تناقضات في حياتنا الفكرية

عثمان شبوب

للكلمة المنطوقة أو المكتوبة في عالمنا اليوم ، وبفضل انتشار وسائل الاعلام من القوة والتأثير على تفكير الافراد والجماعات ، أو على شعورهم وسلوكهم وارادتهم ما لم يسبق له مثيل • فمنذ وجد الانسان على الارض ، وجدت معه اللغة التى يتخذها وسيلة للتفاهم والتخاطب ونقل المعلومات ، ولقد ذهب أصحاب النظرية اللغوية الى أن البناء اللغوى لاحدى اللغات ، يخلق بناء فكريا وسلوكيا ذا طابع خاص • وان اللغة انما هى «عالم لغوى وسط» يقوم بين الواقع الموضوعى وبين الناس ، أى ان اللغة هى التى تحدد للافراد والجماعات طريقة رؤيتهم للعالم وتجربتهم له ، كما تحدد موقفهم منه ، واسلوب تعاملهم معه

ولعل هذا القول من الشيوع الى درجة ان اعادته تكاد تكون من البديهيات ، لكن الظاهرة التى تفرض نفسها على الملاحظ هو هذا التطور السريع الذى يطرأ على عدد من التعبيرات ، وهذه المصطلحات الجديدة فى اللغة التى تنشأ عن التطور الدائم التجدد فى الاوضاع الاجتماعية والثقافية بحيث لم يتمكن الانسان — بعد — أن يحدد مدلول هذه المصطلحات والتعبيرات اللغوية بالدقة المطلوبة •

ولو تأملنا تعبير «الاصالة» الذى دخل قاموس حياتنا الثقافية والسياسية الآن ، لوجدناه واحدا من أهم التعبيرات التى ما تزال تفتقر الى تحدد المعنى ، ووضوح المدلول ، ولعل قيامنا بسد هذه الثغرة ، يمثل خطوة فى تحليل الاشكالات التى يمكن أن يؤدى تعمقها الى القاء مزيد من الضوء على التناقضات التى نعانيها فى حياتنا الفكرية فى مرحلتنا الراهنة •

لا شك ان فترة التحرر من الاستعمار ، قد خلقت واقعا جديدا اقتضى استخدام تعبير يكشف عن نزوع شعب لم يعان فقط من الاستغلال الاجتماعى بأشكاله المختلفة ، وانما عانى مما هو أفضع منه وهو الغبن القومى وهــــدم الشخصيــة •

لقد كان هناك نوع من التجريد ، تجــريد شعب من ثقافته ولغته ، واحلال لغة وثقافة دخيلة محل ثقافة أصيلة • ومن هنا كانت غاية الشعوب المستقلة اليوم هى اعادة تنصيب الثقافة اليومية ، واخراجها من الظل لمواجهــة مشــاكل الواقع •

والواقع انه منذ الاستقلال بدأت تتبلــور فى حياتنا الفكرية والثقافية اتجاهات وتثار تساؤلات فى كثير من معطياتنا الوطنية ••• وهذه الظاهرة لم تبرز أثناء عهد الاحتــلال أو أثناء الثورة المسلحة لانه كان من الضرورى تعبئة كل القوى والطاقات الوطنية لمقـــاومـة الاستعمار • ولا يهمنا فى هذه الكلمة السريعة أن نركز على الجانب التاريخى وانما يهمنـا فقط محاولة معرفة مدى توفيق هذه التيارات والاتجاهات فى تصور جذور وآفاق نهضتنــا الثقافية واصالتنا الوطنية •

وهنا يمكننا أن نشير الى اتجاهات ثلاثة بازاء هذه المشكلـــة :

1) اتجاه الرفض والانطواء : وقد ركز هذا الاتجاه على مقاومة الفكر الحديث والبحث الحـر المجدد ، والتمسك بالمنهج التقليدى الذى يقتصر على التراث القديم ، ويغلق باب الاجتهاد والنقـــد •

ويعتقد أن الاصالة ، اجراء ضدى أو رد فعل على الحضارات الاخرى ، ومن هنا نجـده يركز على صفة الاختلاف التى تتسم بها بلاده ، ويغفل صفة التخلف • وقد ساعد على تعميق هذا التصور الساذج ، اتجاه بعض المثقفين الاوربيين الرومانطقيين الى رفع شعار الاصالة ودعوة المجتمعات النامية الى التمسك بها ، ومقصـودهم فى ذلك كما قال احد الكتاب ان «تظل المجتمعات» متحفا للقيم الاثرية يأتى اليه العلماء ، ليجـدوا فيه الماضى متجسـدا فى الحاضر •

وهذا هو الذى دفع بعض علماء الاجتمـاع فى أمريكا الى المطالبة بضرب نطاق حديدى على الهنود الحمر ليحافظوا على نقاوتهم حتى يبقوا نماذج للدراسة والبحث •

وقد وجدت هذه الدعوة فى نفوس هؤلاء ارتياحا لانها تمثل تبريرا لجمودهم ، وتجعل من التخلف فضيلة ، وتشعرهم بأن أسلوب حياتهم مرغوب فيه أى انها تريدهم ان يكـونوا شعبا فولكلوريا يتضمن أشياء سياحية غريبـة وطريفـة •

2) اتجاه المسخ والتنكر للاصالة الوطنية ويتبناه بعض تلاميذ الفكر الغربى •

وهذه الجماعة ترى أن النهضة الفكرية والثقافية تكمن فى قطع كل صلة بالتراث والماضى وحتى باللغة ذاتها لنختار لانفسنا منطلقا حـرا فى مستوى العصـر •

وداخل هذا الاتجاه ينبغى أن نميز ثـلاث نزعـات :

1 ـ نزعة تنطلق من الجهل الكلى بما تمثله الثقـافة الوطنيـة من تـراث ولغة ، وترتكز على احكام ذات صبغة تعميمية مسبقـة •

والنتيجة المنطقية لهذا الموقف أو التصور هو : الدعوة الى الانطـلاق فى مسيـرتنا الثقافية على أساس الثقافة الاجنبية واعتبار اللغة العربية عاجزة على أن تكون كعامل اساسى فى النهضة الثقافية • ولكن من دون أن يصدروا فى هذا الاتجـاه عن عدائى مبيت ، وهؤلاء بالامكان تمكينهم من الاطلاع على امكانيات وظروف الثقافة الوطنية واجراء حوار معهم •

2 ـ وهناك الذين كونهم التعليم الاجنبى فمسخهم روحا ومحتوى ولغة ، وهؤلاء هم الـذين يبلون اليوم البلاء الحسن فى خدمة الاستعمـار ومساعدته على تدارك هزيمته فى الابقاء على امبراطوريته السياسية ، بتشييد صرح امبراطورية ثقافيـة •

ويحلو لهؤلاء ، عملاء الاستعمار الثقافى، أن يرموا الاتجاه الوطنى الاصيل بالجمـود والتعصب ورفض تعلم اللغات الحية ، وينسون أن أصحاب هذا الاتجاه الاخير فى موقف يمكنه أن يميز بوضوح بين ازدواجية اللغة وثنائية الثقافة ، وانه اذا كنا فى حاجة الى لغة بـل الى لغات عالمية متعددة للاتصال بالفكر الانسانى والثقافة الانسانية ، فاننا فى نفس الـوقت فى حاجة الى الاحتفاظ بثقافتنا المتميزة وتنميتها وتطويرها • وليس فى هذا أبدا ما يتنافى مع التفتـح والمشاركـة فى اغنـاء التراث الانسـانى •

3) الاتجاه السلفى المتفتح : وقد انتشر هذا التيار فى العالم العربى الاسلامى بعد الاحتكاك بالحضارة الاوربية والتقدم العلمى والفكرى فى أوربا • وكان رجال مثال جمال الدين الافغانى ،

ومحمد عبده والكواكبي وعبد الحميد بن باديس قد ادركوا خطر الانغلاق والعزلة والجمود التي عنيها العالم العربي والاسلامي فحملوا لواء التفتح واستنكار الجمود والتعصب ، والدعوة الى الاتصال بالحضارة والثقافات الانسانية الاخرى في حدود اسلامية متسامحة •

هذا الاتجاه يحاول اليوم أن يربط بين مضينا ومستقبلنا ، بين منابع تراثنا ومصادر تقدمنا في التطورات الفكرية العالمية المعاصرة •

غير أنه في داخل هذا الاتجاه نلاحظ نوعا من التردد والبلبلة لدى البعض من ممثليه وذلك لسببين :

أولا : عدم وضوح فكرة التراث نفسها في أذهان الكثيرين من القائلين به ، بمعنى عدم القدرة على صياغتها صياغة علمية تضعها أمام الباحثين والمفكرين وعامة الناس وضعا صحيحا ، واقتصارهم على الترديد اللفظي لها •

ثانيا : ان الربط بين التراث والمعاصرة يبدو في كثير من الاحيان ربطا آليا ، لا ينظر بعين الاعتبار لفكرة التفاعل ومنهج الجدل ، ويوشك ان يكون مجرد اضافة حسابية • ويكمن خلف هذين السببين مفهوم مبتسر ، قاصر،عن الشخصية الوطنية،والاتجاه الى اقتطاع جزء من تاريخها فحسب هو مثلا عروبتها واسلامها فقط ، أو بربريتها فقط •

* * *

وهناك نزعة اخرى ، ولكنها من نسيج آخر ، تدخل – في رأيي – في نطاق الثورة العالمية للشباب ، فهذه تناقش كل القيم والتقاليد ، وتضع نقطة استفهام امام كل وضع، وهذا اتجاه طبيعي ومشروع ، ولكن ادعاء بعضهم ان التشبث بالعربية وبالتراث والاصالة ما هو الا اهتمامات شكلية سطحية أمام جوهر المشكلة الانسانية التي تتمثل في الامبريالية والصراع الاجتماعي والثورة التكنولوجية • فهذا فيما ارى نظرة جزئية للمشاكل بينما النظرية الثورية المتماسكة شمولية بطبيعتها فلا يمكن اقامة ثورة صناعية وزراعية بدون ثورة ثقافية تعززها وتدفعها الى الامام •

هذه باختصار فكرة عن التيارات والاتجاهات التي تتوزع حياتنا الفكرية ، واعتقد ان الحوار بين هذه التيارات الموضوعية منها بصفة خاصة ، سيقربنا من الصيغة المشتركة المعبرة عن حقيقة واقعنا وتطلعاتنا ، لاني أرى ان هذا الحوار لم يبدأ بعد ، فكل تيار يعيش منعزلا عن الآخر ويعوض عن أسلوب الحوار بأسلوب التخريب المنفعل او المكر الخفي •

وبهذا الاسلوب ، أسلوب الحوار الصادق ، سنحقق في حياتنا الفكرية ما يسمى بالوحدة في ظل التنوع ، ونقيم حياة ثقافية أصيلة متفتحة تجابه في مركز قوة كل اشكال الاستعمار الثقافي والفكري الذي هو دعامة الاستعمار السياسي والاقتصادي ، كما تعكس حياتنا الوطنية في مختلف الميادين وهي حين تسعى للتعبير عن كل ذلك تسلك طريق الابتكار والابداع ، وتنبذ كل جمود وتعصب ضيق وهذا هو معنى اصالتنا •

وساعود الى هذا الموضوع في العدد المقبل •

■ القانون خير حارس لمبادئنا

■ نظام الشريعة الإسلامية نظام اشتراكي وله صفة

ننشر فيما يلي نص خطاب الاخ هوارى بومدين رئيس مجلس الثورة والحكومة الذى القاه بمناسبة تنصيب اللجنة الاستشارية المكلفة بمناقشة مشاريع القوانين الاساسية ، يوم 1971/3/12 .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ،

حضرات السادة :

تَسْتَهِلُّونَ اليَوْمَ العَمَلَ فِي هٰذِهِ اللَّجْنَة الإِسْتشَارية التَّى عُهِدَ إِلَيْهَا بالنَّظَرِ فِي التَّشْرِيعاتِ القَائِمَةِ فى بلادنا وما تتطلبه من إِصْلَاحٍ وتعديلٍ لتكون مُلَائمةً لما نطمح إِلَيه من تَقَدُّمٍ . . . ولتعزيزِ مَكَاسبِ ثَوْرَتنا بما يَصُونُها وَيَكْفُلُ لَهَا الحَصَانَةَ وَالنُّمُوَّ والدَّوَامَ .

إِنَّ التَّشْريعاتِ التَّى فَرَضَهَا النِّظَامُ الإِستعماريُّ عَلَى بلادنا فرضاً مُدَّةَ قَرْن وَرُبْعٍ وَالتِي سَلَبَنَا بها مُكْتَسَبَاتِنَا الرُّوحيةَ وَالمَادِّيةَ وَحاوَلَ بها طَمْسَ مَعَالِمِ مَاضِينَا ،وَمَحْوَ عَنَاصِرِ شَخْصِيَتِنَا قَدْ بَقِيَ معظمُها جارياً به العَمَلُ بمُقْتَضَى قَانُون 31 ديسمبر 1962 وهيَ الْغريبَةُ عَنْ ديارنا وَالتي وُضِعَتْ لِاسْتِغْلَالنَا وَإِنكارِ وُجُودِنا وَذَاتِيتِنا. **يَجِبُ أَنْ نتخلَّصَ نهائياً من القوَانِين الدَّخِيلةِ عَلَيْنَا .**

وَالآنَ وَقدِ انفكَّتِ الأَغلَالُ ومَلَكْنَا زِمامَ أمْرِنَا لتَسْيِيرِ شُؤوننَا بأَنفُسنَا فعَلَيْنَا أن نتخَلَّصَ نِهائياً مِن القَوَانِين الدَّخِيلَةِ عَلَيْنَا وَمنَ التَّرِكَةِ التَّشريعيَّة التِي كانتْ فى خِدمَةِ الإِحْتلَالِ العَسْكريِّ وَ الإِسْتغْلَالِ الإقْتصَادِى .

أيها الاخوة

تُطْرحُ عَلَى الثَّوْرَة فِى كُلِّ مَرْحَلَةٍ

لاشتراكية

خلود لما فيه من سعة ودقة



مِن مَرَاحِلِ سَيْرِهَا مَهَامٌ مُعيَّنَة تَتطلَّبُ ٱلتَّحقيقَ وَٱلإِنجَازَ وانَّ طَبيعَةَ هٰذِهِ ٱلْمَهَامِ هِيَ ٱلَّتِي تَفْرِضُ وَتُحَدِّدُ ٱلأَسْبَقِيَّةَ فِي إِيجَادِ ٱلْحُلُولِ حَسْبَ دَرَجَةِ ٱلأَهَمِّيَةِ وَالإِسْتِعْجَالِ · وَقَد تَحَتَّمَ عَلَى ٱلثَّوْرَةِ مُنذُ سَنَوَاتٍ أَنْ تُجَابِهَ مشَاكِلَ مُلِحَّةً لَمْ تَكُنْ تَقْبَلُ ٱلتَّأْجِيلَ أَو تَتَحَمَّلُ الإِنتِظَارَ لِمَا لَهَا مِنْ أَثَرٍ مُبَاشِرٍ عَلَىٰ مُسْتَقبَلِ ٱلثَّوْرَةِ نَفسِهَا · وهٰكَذَا عَمِلَتِ ٱلسُّلطَةُ ٱلثَّوْرِيَّةُ عَلَىٰ تَصْفِيَةِ ٱلْمَظَاهِرِ الصَّارِخَةِ فِيمَا خَلَّفَهُ الإِسْتِعمَارُ مِنَ ٱلتَّشْرِيعَاتِ ٱلتِي كَانَتْ تَمَسُّ بِمَبْدَإِ ٱسْتِقْلالِنَا وَسِيَادَتِنَا وَعَمِدَتْ بِجِدٍّ وحَزْمٍ إِلىٰ قَطْعِ دَابِرِ ٱلتَّبَعِيَّةِ ٱلتِي تَعَمَّقَتْ جُذُورُهَا وَٱتَّسعَ نِطَاقُهَا وإِنَّ عملَ ٱلْيَوْمِ لَيْسَ إِلاَّ حَلقَةً فِي سِلْسِلَةِ ٱلتَّدَابِيرِ ٱلْمُتخَذَةِ والَّتِي يَنْبَغِي أَن تَسْتَمِرَّ حَتَّى نِهَايَةِ شَوْطِهَا وَتَحْقِيقِ أَهْدَافِهَا ·

السُّلْطَةُ الثَّوْرِيَّةُ أنْصَرَفَتْ لِبِنَاءِ أَجْهِزَةٍ ثَابتةٍ تُوَفِّرُ ٱلأَمْنَ وَالطُّمَأْنِينَةَ لِلْوَطَنِ وَالمُوَاطِنِ ·

وَفِي هٰذَا السِّيَاقِ أَيضاً أنْصَرَفَتِ ٱلسُّلْطَةُ الثَّوْرِيَةُ لبِنَاءِ أَجْهِزَةٍ ثَابِتَةٍ تَمَّ بِهَا تَوْفِيرُ الأَمْنِ وَالطُّمَأْنِينَةِ لِلْوَطَنِ وَالْمُوَاطِنِ وَأَلغَتْ بعْضَ التَّشْرِيعَاتِ وَأَنشأَتْ أُخْرَى أَكْثَرَ مُلاَءَمَةً مَع وَاقِعِ بِلاَدِنَا وَاخْتِيَارَاتِنَا الأَسَاسِيَّةِ وَرَاجعَتِ النِّظَامَ البَلَدِيَّ الْمَوْرُوثَ عَنِ ٱلعَهْدِ الإِسْتِعمَارِي وَأَقَامَتْ محلَّهُ نظَاماً شَعبيّاً يتَلاَءَمُ وثَوْرَتَنَا وَيعْمَلُ عَلَىٰ تَحقِيقِ أَهدَافِهَا وعَزَّزَتْهُ بنظَامٍ أَشمَلَ مِنْهُ وَأَوْسَعَ هِيَ الْمجَالِسُ الشَّعبيَّةُ لِلولاَيَاتِ ·

كمَا أسَّستْ نظَامَ التَّسيير الذَّاتي ومكَّنتْه منْ أداء الدَّور المُنَاط به فِي إطَار تنمية البلادِ وتحْقيقِ اسْتِقلالِهَا الإقتصادي وَإقامَةِ مُجتَمعهَا الاشترَاكي المُزْدَهِر .

وَستُنشىءُ قَريباً مجالسَ العُمَّال التي يُشارِكُون بفضْلها في تَسْيير المُؤسَّسَات التي يعْمَلُون فيها إرضاءً لرُوح الدِّيمُقرَاطِيةِ وَضمَاناً لمَصْلحَة الثَّوْرَةِ .. وَضَبَطتْ قَانُونَ الوَظيف العُمُومي .. وَوَضَعتِ القَضَاءَ العسْكري وَأسَّستْ نظَاماً قضَائيّاً يُقَرّبُ القَضاءَ من المُوَاطِنِين وَيُبَسِّطُه وبهذا كلّه أصْبحَ جهَازُنَا القَانُوني يَتمَرْكزُ وَيسيرُ نَحْوَ الاِستِقْرَار .

عَلى أنّه قَد بَقِيَتْ جوَانبُ كثِيرَةٌ تتطلّبُ أن يُنْظَرَ في أمْرهَا وتَدْعُو الى المُرَاجَعَة وَقد حَانَ الوَقْتُ لِتَطْويرِهَا بمَا يتَّفقُ وَمُتطلَّبَات مجْتَمعنَا الاشترَاكِي الذي يَتماشَى مَعَ شَخْصيتِنَا وَ أصَالَةِ شَعْبِنَا وَتجَاربِهِ .

عَلَيْكُمْ أنْ تَعْلَمُوا أنَّ قَانُونَ كُلِّ أُمَّةٍ قِطْعَةٌ مِنْ مَاضِيهَا الطَّوِيلِ وَحَاضِرِهَا المَائِل .

فَالجَزَائرُ اليَوْمَ وهيَ مُنطَلِقةٌ في ثَورَتهَا الثَّقَافيةِ الشَّاملَة تَعلَمُ أنَّ قانُونَ كلِّ أمّة قطْعةٌ منْ مَاضيهَا الطَّويلِ وَحاضِرهَا المَائل يُمثّلُ نشْأتهَا وَتَطوّرَهَا وأخْلاقَهَا وَتَقاليدَهَا ودينَهَا ومُعتَقدَاتِهَا وتعْلَمُ أنَّ قوَانينَنَا الحَاليةَ غريبةٌ عنَّا تَتعَارَضُ معَ أَحسَنِ ما في تشْريعنَا الاسْلاَمي التَّقليدِي وتنقُضُ مُقدَّماً ما نَوَدُّ أن نَسُنَّه منْ قوَانينَ حَديثَةٍ تَنْسجمُ وأهدَافَنا الثَّوْريةَ .

فيجبُ اذَنْ اعادةُ النَّظَر فيهَا جِذْرِيّاً لِتُرَدَّ الى المَصَادِر التَّشْريعِيَّة الاسْلاَمِيَّة وَلتسْتَطيعَ تَلْبِيَةَ حَاجيَاتِ وَأهْدَافِ ثَورتنَا الاشترَاكِية .

وانَّ مَا في خَصَائصِ التَّشْريع الاسْلاَمي مِن سَعَةٍ ودقَّةٍ في بنَاءِ الأحْكَام وَمَكانَةِ العُرْفِ فِيهِ وَحِرصِهِ عَلى التَّوَازُنِ في الحُقُوق بَيْنَ الفَرْدِ والجَمَاعَةِ مِثْلُ مَنْعِ التَّعَسُّفِ في اسْتِعْمَال الحَقِّ الخَاصِّ وَمَنْع الاحْتكَار في التجَارَة ومَوْضوعِيَّةِ أحْكَامِهِ

أصالة التناهي
الجوهر الدائم

وَتجرُّدِها عَن كُلِّ عَصَبيَّة أوْ عاطفة خاصَّة سِوى فكْرَة العَدْل والْحَقّ المُطلَق ومُرُونَةِ أُصُولِه ومصادِرِهِ.

أَقُولُ إنَّ هذا كلَّهُ قَدْ أكسَبَ الشَّريعَة الاسْلاميَّةَ صفَةَ الْخُلُودِ وقَابِليَّة الاسْتجابَة لتَغْطيَّة جَميع الْحَاجَات التَّشْريعيَّةِ تَبعاً لمَصْلَحَة الْأُمَّةِ في مُخْتلَف مراحِل نُمُوِّهَا عَلى مَرِّ الزَّمَن وعَلى أَسَاس الْمُحَافَظة عَلى أصالَتِها وَرُوحِها في تَطوُّرها وَتطوُّر الْحَضارَة الانْسانيَّة الشَّامِلَة.

فَقدْ وضَع مشرِّعُو السَّلَف نُظُماً حكيمَةً مِن التَّشْريع تحُولُ دُون تَضخُّمِ الثَّرَوَات في أيْدى أقَلِّيَّةٍ وتُقيمُ العَلاقَاتِ الاقتِصاديَّة بَيْن النَّاس عَلى دَعائِمَ مَتِينَةٍ مِن التَّكافُلِ والتَّعاوُن وَالعَدْل وتكَفُل لكُلِّ فَرْد حيَاةً انسانيَّةً كريمَةً وَتحْفَظ لَه حُقُوقَه ومُقومَاته.

النِّظَامُ الإِسْلَامِي نِظَامٌ اشْتِراكِيٌّ حَقٌّ

وَاذَا كنَّا لَا بُدَّ من وصْف هذَا التَّشريع بصِفَة منَ الصِّفَات المُتداوَل اسْتعمَالها عَلى ألسنَة المُحدِّثينَ مِن عُلمَاء الاقتصَاد فَإِنَّنا نَصِفهُ بأنَّه نظامٌ اشْتراكِيٌّ حقٌّ.. فَقدْ أَخرَجَ فقهَاؤنا منْ نطَاق الملكيَّة الفرْديَّة الأشياءَ التى تَكُونُ ضَرُورَةً لجَميع النَّاسِ فَأَوْجَبوا أن تكونَ مِلكيَّتُهَا مِلكيةً جَماعيةً حتَّى لا يَسْتَبِدَّ بهَا فرْدٌ أوْ أفرَادٌ والضَّروريَاتُ فى حَيَاة الجَمَاعَة تَختَلفُ باخْتلاف البِيئَاتِ وَالعُصُور.

وَذلكَ أنَّه إلى جَانب الْمَصَادِر الأرْبعَة الْكبْرى للتَّشريع الإسْلامى هُنَاكَ مَصَادرُ أُخرَى أَهمُّها الإجْتهَادُ الذِي يُسَايِرُ تَغيُّرَ الظرُوف ويُرَاعِي فى الدَّرجَة الأُولى مَصْلَحَة العِبَاد وَمَصْلحَةَ الأمَّة.

وَلقَدْ كَان الاجْتهَادُ بمَثابَة الرُّوح للشَّريعَة الإسْلاميَّةِ وَمَنبَع الْحيَاة لِفقْهِها وَلا يُعقَلُ أبَداً أن تُؤَدِّيَ الشَّريعَة وَظيفَتَها وأنْ يَكونَ لهَا فقْهٌ حيٌّ يُنَظِّمُ مَصَالحَ الأُمَّة دون الاجْتهَاد.

لذَلك وُجدَ الاجْتهَادُ منْذ وُلِدَتِ الشَّريعَةُ فى عَهْد الرَّسُول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدِ اجْتهَدَ الرَّسُول نفسُهُ

عَلَيْهِ اُلسَّـلاَمُ فى حَـوَادثَ عَديدةٍ واجتهَد أصْحَابُه فى حَيَاته بتَوْجيـهٍ منـه ٠

ومِن هُنَـا فانَّ توقُّفَ الاجتهـادِ مَعناه جُمُودُ الفِقهِ الإسْـلاَمى وَعُقمُه فى تَقدِيم الحُلول الشَّرْعِية للحَوَادث والمُشكلاتِ المُسْتَجدَّة وبالتـَّالى عجْزُهُ عَن مُسَايَرَة التَّطوُّر ٠٠ وقَـد جَاءَ الاسْلاَم صَالحاً لكلِّ زمَان ومَكان ٠

أيها الاخوة :

إِنَّكمْ لتُـدْركُـون كُلَّ الادْرَاك أَن القَانُونَ لاَ يَـكونُ عَادلاً إلاَّ إذا كَان مُعبِّراً عنْ أهْـدَاف الجَمَـاهير وَأَنَّه لاَ يُحقِّـقُ الغَايَة المِثـاليـَّة منْـهُ إلاَّ اذَا كَانَ فِى خِـدْمَتهَا ضَامنـاً لمبْـدَإِ اشْتِـرَاكِ الشَّعْـب فِى تَسْيِير شُؤونِهِ وَتَحْقيق ثَوْرَتِهِ ٠

وَبذلِك تَتعَزَّزُ المَبَادىءُ الأَسَاسيَّةُ لثَوْرَتنَا الاشترَاكِية كَالـرُّجُوعِ إلى القَـاعدَة ٠ ٠ وَالتَّسْيِـيرِ الجَمَاعِي وَتوْزيعِ المسْؤُوليَّة وَسَدِّ الطـُّرُق عَلى الفَرْدِيَّة وَدَعْمِ الدِّيمُقْرَاطيـَّـةِ الحقَّة المُتَأَصِّلَة فى رُوح شَعْبنـَا مُنْذ القِدَم وَالتى هىَ شعَارُ دَوْلَتنَا الاشترَاكِية الحَدِيثَة القَائمَةِ عَلَيْـه والعَاملَة عَلى تَجْسِيمِـهِ ٠

وَإنَّ خَيرَ حَارِسٍ لهَذِه المَبَـادِىءِ التِى يَنْبَغـى أن نَعْتَنىَ بِهَـا هُـو القَانُونُ وأفضَلُه مَا ينَاسبُ ظُروفَ بَلَـدنَا وَعَقليـَّةَ شَعْبنَا وَإذا كَانَتِ التَّشْريعَاتُ غَيرَ مُلاَئمَة معَ الـرُّوح الشَّعْبية تَعَطَّلتْ وَلمْ تُحَقِّق الغـَايَة المَنْشُودَةَ منهَا ٠

وإنَّ منْ أَهَـمِّ مَظاَهِـرِ عَصْـرِنَـا التَّطوُّرَ السَّريعَ وتَعَاقبَ الحَرَكَات التِى تَترَتَّبُ عَليْه فَالتَّطوُّرَاتُ الـتى كَانتْ تَسْتَغرقُ حقْبَةً منَ الـزَّمَـن فى أَوَائِل القَرْن نَـرَاهَا فى الوَقْت الحَاضر تَتعَـاقَبُ أَدْوَارُهَـا وَتَتِـمُّ بسُرْعَة مُضَاعَفَة فَلا نَكَادُ نَأْلَفُ حَالَةً حتَّى تَتْبَعُها حَالةٌ أخرَى تَخْتَلفُ عنْهَا تمَامَ الاخْتِلاَف ٠

وَإنَّ كَثـيراً مِـن التَّشْـريعَـاتِ المُصَادَق عليْهَا بعْدَ الإسْتِقْلاَل وَالتى كَانَتْ تَتَّسِمُ بنَزْعَة إِصْلاحِيةٍ وَاضحَةٍ قَدْ كلَّ العَمَـل بهَـا عَـلى أنَّ بَعضَ النُّصُوص منْهَـا قَـدْ تَجَـاوَزَتْهَـا الأَحدَاثُ وهِى فى حَاجَةٍ أَكيـدَةٍ الى المُرَاجَعَة والتَّعْديل ٠

القَوانينُ المَوْرُوثَةُ عَنِ الإسْتِعْمَارِ يَجِبُ أَنْ نَضعَ لَها حَدّاً ٠ ٠

فَهُناك مَفاهيـمُ قَانـُونيـَّةٌ كَثيرَةٌ وَرَثْنَاهَا عَنِ المُسْتَعْمِر يجبُ أن نَضَعَ لهَا حدّاً لأَنَّهَا صَالحَةٌ لمجتَمَع لِيبِيرَالِي لاَ لمُجْتَمَع اشْترَاكِى منْهَا عَلى سَبيلِ المِثَالِ مفهُومُ الحُرِّيَات العَامَّةِ الذِى

كَثيرًا مَا يُغطيّ الاسْتقْلاَلَ الاقتصَاديّ لفائِدَةِ البَعْضِ عَلى حسَاب الآخَر وفكرةُ الفَصْل بيْنَ القطَاع العَامّ للدَّوْلة والقطَاع الخَاصّ لهَا رَغمَ أنهُمَا يكوِّنان قطاعاً وَاحداً مِلكيتُهُ تابعَةٌ للدَّوْلة بصفَتهَا مُمثّلةً لمصَالح الجَماهير الكَادحَة وَقوَاعد تَسْيِيره تَخْتلفُ باخْتلاَف المُؤسّسَات التِي وُكِّل اليْهَا .

هَذا لاَ يَعْني إطلاقاً أنَّنَا نَغلقُ عليْكُمْ بَابَ المقَارَنَة بيْنَ التّشْريعَاتِ بَلْ نُحثُّكمْ عليْهَا بشَرْط أنْ تأخُذوا بعَيْن الاعْتبَارِ خَصَائصَ مُجْتمَعِنَا وَمَبَادئ ثَورَتنَا الاشترَاكيّة . .

فَإذَا كَانَتْ بَعْضُ التّشْريعَاتِ الغَرْبيّة قَدْ أدّتْ الَى انحِلاَل الأُسْرَة فإنّهُ بالعَكْس يَجبُ عَلى قوَانِيننَا أنْ تُحَافظَ عَلَى الأُسْرَة وعَلَى تَمتّن رَوَابطهَا كَخَليّةٍ أسَاسيّةٍ للمُجْتمَع وَأودُّ أن أُوردَ مَثلاً آخَرَ فى هَذا السِّيَاق وهُو أنَّ إشرَاكَ العُمَّال فى تَسْيير المُؤسّسَات قَدْ غيّر تمامًا من العَلاَقات الاجْتمَاعيّة وَمنْ هَيْكَل المؤَسّسَات وَالقوَاعِد التى تَسيرُ عليْهَا ممَّا سَيُحدثُ بلاَ شَكٍّ تَغييرًا جذْريًّا فِى قانون العَمَل .

وَالمُقَارَنَة هُنا مَع التَّشْريع فِي الدُّوَل الاشترَاكِية أوْلىٰ طَبْعاً مِن المُقَارنَة مَع تَشْريع الدُّوَل الرَّأسمَاليَّة .

نُريدُ تَشْريعاتٍ مُتَجَدِّدَةً مَعَ الزَّمَنِ مُسَايرَةً للتَّطوُّر.

اخوانى

لَقَدْ أُلْقِيَتْ عَلىٰ كَوَاهِلكُمْ تَبعَةٌ ضَخْمَةٌ ألاَ وَهى التّشريعُ الثّوْريُّ أوَ الإِطَارُ القَانُونى الجَديدُ الذى يَتلاَءمُ وثوْرَتنَا الشّامِلَة بأَعْمِدَتهَا الثّلاَثة : « الصّنَاعى » وَ « الزّرَاعى » وَ « الثّقَافى » فَعَليْكُمْ إذَنْ أن تَأخُذوا هذا كُلّه بالاِعْتِبَار وَتتّخذُوا التّدَابِيرَ الفَعّالَةَ لكيْ يُصْبح التّشْريعُ فى بلاَدنَا مُلاَئماً لمُتَطلّبَات مُجْتمعنَا الجَديد . فَأرْجُو مِن لَجْنَتكُمْ أنَ تُوَاجهَ هَذه المُهمَّة الدَّقيقَةَ باجْتهَادٍ وإخْلاَص وَتقُومَ بهَا أحْسَنَ قيَامٍ بفَضْل الكَفَاءَات التى تَلاَقتْ فِى رِحَابهَا .

وَمهْمَا تَبْذلُوا مِن جُهُودٍ فِى النّهُوض بالمُهمّةِ المُنَاطَة بكُمْ فإنّه لَنْ يقفَ بكُمُ الجُهْدُ عنْدَ حَدٍّ . .

فأمَامَكُمْ أعبَاءٌ مُتّصلَةٌ فعَليْكُمْ أنَ تَسْهَرُوا وَتكُونُوا دَقِيقِي الوَعْيِ بِثِقَل المَسْؤُوليةِ وَتعَدُّد أعْبَائهَا . . حَتىّ تَظلَّ تَشْريعَاتُنَا متجَدِّدَةً مَعَ الزَّمَن مُسَايرَةً للتَّطَور نَاميَةً معَ الحَضَارَة عَلىٰ أسَاس أصَالَتنَا التِي هِيَ الجَوْهَرُ الدَّائمُ . . سَدَّدَ اللّهُ خُطَاكُم،والسَّلاَمُ عَلَيْكُمْ .

طريق الذهب
وطريق الثقافة

* الثقافة الحقة وعى قوى لما نعلم ، وهد فواضح لتطبيق ما نعلم ، وايمان بالشعوب التى نعمل من أجلها .

* اذا أردنا أن ندخل فى عهد الثورة الثقافية فلنعلم أن لكل ثورة روحانيتها التى هى الايمان بالعقيدة والايمان بالشعوب .

* ان مشاربنا الشعبية فى افريقيا تجعلنا نتجه الى كل حركة فكرية تدعو الى المساواة والاخوة والبساطة .

عبد المجيد مزيان

قد تتكون ثورات ثقافية من منظومة فكريةمبسطة اذا وجد لها مناضلون يحماونها بحرارة ويبثونها بايمان وتضحية ٠ وتاريخنا مملوء بالامثلة الحية لهذه الظاهرة ٠ وليس مقصودنا في هذه اللمحة الخاطفة من تاريخنا الاجتماعيأن نفرض نظريات الماضي على الحاضر لان عالمنا الثقافي أصبح ذا تشعبات وتعقيدات تستدعي مجهودات جبارة للتحليل من اجل التطوير ٠ وليس مقصودنا أن نبين أيضا ان المجتمع يمكنه ان يفصل بمحض ارادته ، حياته الثقافية عن حياته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ٠ ولكن اطوارا من الحياة تأتي على بعض المجتمعات تتجند فيها اغلبية الطاقات للثقافة ، وأطوارا أخرى تأتي لبناء اقتصاد قد ينجح مدخرا او قد ينهار بالاستهلاك التبذيري

من هنا نريد أن نشرح طريق الذهب وطريق الثقافة ٠ طرق الذهب كثيرة في عالمنا القديم ، وليس من الاسراف أن ندعي أن جل الامارات الاسلامية بنيت على طرق التجارة ٠ فمنذ «رحلة الشتاء والصيف» الى رحلة الاندلس والسودان ، تكونت البنيات الحضارية بطرق تكاد تكون متماثلة في هذا الجزء من العالم ٠ وقد تناول المؤرخون الجدد بالبحث هذه الظاهرة وأكدوا أن قيام الامارات الاسلامية على أساس تجاري وطرق تجارية هو الذي أدى الى انهيارها بسرعة بمجرد ما اتجه العالم المستهلك الذي هو العالم الغربي الى طرق أخرى : طريق البحر البعيد للاتصال مباشرة بآسيا وطريق أمريكا الذي حول الاتجاهات التجارية ٠

وانه لتحليل يستحق كل العناية لانه تحليل موضوعي في أغلب مظاهره لولا توغل كثير من التزييفات في صلب التحليلات التي قدمت الينا عن الظاهرة نفسها ٠

آخذ مثلا من تاريخنا : امارة بني زيان تأسست سياسيا قبل انشاء طريق الذهب الى السودان ، ثم «عبد» طريق الذهب والعبيد بعد الاستقرار وصار الخط كما يلي : تلمسان كسوق وسطي لها اتجاهان : القوافل الى توات ثم الى «السوادين» والسفن من مرسى حنين الى غرناطة وامارات شمال البحر المتوسط ٠ ان الاستقرار السياسي هنا هو الذي خلق الازدهار الاقتصادي وهو الذي «عبد» الطرق ، وجلب الاموال من الشمال والجنوب ولكن ماذا وقع لكل هذه الاموال المجلوبة ؟

لماذا لم توظف في بناء اقتصادي جديد ؟ لماذا لم تؤدي الى خلق منافسة تجارية في البحر وفي نفس الطرق البعيدة التي اختارها الاوروبيون ؟

هنا أيضا يمكننا أن نجيب بأن عدم الاستقرار السياسي هو الذي عجّل بالانهيار الاقتصادي والانهيار الكامل في الاخير ٠ وكلما حاولنا أن نبسط تحليلاتنا لنردها الى السبب الاقتصادي الرئيسي في حياة الامارات المغربية الا وعثرنا على أسباب سياسية لا تقل عنها أهمية «وجذرية» ٠ وليس معنى هذا أننا نعطي الاسبقية للاسباب السياسية مبالغين ، ولكن التداخل بين الاسباب يستدعي كثيرا من التدقيق ٠

هذا اعتراض أول على تخليص التفسيرات الخاصة بانحطاطنا في تحويل طرق الذهب والتجارة ٠

أما الاعتراض الثاني فسأضعه جوابا عن سؤال يستدعي كل الاهتمام ٠ هل كان طريق الذهب والتجارة هو الطريق الوحيد للاتصال بين شمال الصحراء وجنوبها ؟ اذا أردنا الجواب على هذا السؤال فلا بد من دراسة البناء المجتمعي لامارات القرون الوسطى ٠ وسيلوح لنا من أول وهلة أن

الامصار التى كانت تعد قاعدة لملك هذه الامارات تعيش على نظام اقطاعى من نوع خاص • وهـذا موضوع يتطلب كثيرا من البحث ، وسنعود اليه ، **اما الاوصاف البارزة لهذه الاقطاعية فمرجعها الى تاسيس طبقات فى داخل المدينة وفى أنحاء الامارة كلها • والمشروعية او اللا مشروعية السياسية كانت ترجع آنذاك الى مواقف الطبقات • فكلما أسرف الامراء وحاشيتهم فى الترف غضبت عنهم الشعوب وهيئت لهم الهجومات • وكان التجار حلفاء للارستقراطية احيانا وعرضة لنهب الاموال من طرف هذه الارستقراطية أحيانا اخرى • وغالبا ما كانت تأتى أطوار الانحطاط الاقتصادى من مثل هذه الصراعات**، اذ ان التاجر الذى كان يخشى على مدخره من نهب الامراء، كان يفضل استهلاك أمواله حالا فى تبذيرات مهلكة ، وكان الامراء ابان الانحطاط لايعرفون أى نوع من الاستهلاك باستثناء المسالك التبذيرية من أكل مفرط وشراء الجوارى وبناء القصور فلا تستطيع مقاومة أومنافسة المجتمعات الغربية واكرام المغنين • وهكذا كانت تتفتت مجتمعاتنا من الداخل ، فلا تستطيع مقاومة أو منافسة المجتمعات الغربية الصاعدة •

واذا كانت مجتمعاتنا فى القرن الرابع عشر والخامس عشر توصف بهذه الطبقية التى تجعل ارستقراطية البلاد فى القمة فان التبلور المجتمعى لم يكن ثابتا عبر الازمنة • وسواء كانت هناك دورية ، كما يثبت ذلك ابن خلدون أو حركية خطية ، فاننا نلاحظ الى جانب مظاهر الانحطاط قوة ابداع وبطولات عند الطبقات السفلى من صغار الصناع والفلاحين وطلبة ذلك العهد •

نحن نعلم أن طريق الذهب الذى عبد فى قرون قد أكلته صحراء التبذير والملذات والانحطاط فى سنين وذهب أدراج الرياح بين الجوارى والقصور والخموز فى غرناطة وتلمسان وفاس • هكذا دمرت هذه القرى الفاجرة لان «مترفيها بسقوا فيها» •

ونفد الذهب وتنوسيت مسالك الذهب ولكن الطبقات الشعبية الفقيرة من صغار التجار وقادة القوافل ، والصناع والطلبة استمرت متصلة بافريقيا لاقتناء الذهب والعبيد ولكن لتبادل المعاش البسيط ، وللاتصال الفكرى والحضارى المستمر ولا زالت هذه التبادلات تجرى حتى الآن لم يحدد من شأنها لا انقراض الممالك ولا الاستعمار •

وفى اطار هذا التبادل نريد أن نقف فترة قصيرة لنكون صورة عن التبادل الثقافى بين افريقيا والجزائر فى عصور الانحطاط ، ونستخرج وصفا مختصرا لحملة هذا التبادل ، ولا يهمنا اذا كانت العملية مصطنعة بعض الشىء ، اذ المقصود أن نلتفت الى أبطال مجهولين، لابد من اعطائهم حقهم فى التاريخ ، ثم علينا أن ندقق الواقع بعد ذلك •

يقال ان الاسلام لم يعرف حركة تبشيرية منظمة ، ويقارن المؤرخون بين المسيحية والاسلام

فى هذه الظاهرة فيدعون أن الاسلام كان دين جهاد بالسيف والمسيحية دين تبشير بالتى هى أحسن ٠ ولا أرى تكذيبا لهذا الادعاء مثل انتشار الاسلام فى افريقيا ، وانتشار المسيحية فى امريكا ٠ لقد قتلت شعوب امريكا تقتيلا لانها رفضت المسيحية ، ودخلت شعوب أفريقيا فى الاسلام بالدعوة والاتصالات الروحية ٠ وان مشاربنا الشعبية فى افريقيا لتجعلنا نتجه تلقائيا الى كل حركة فكرية تدعوا الى المساواة والاخوة والبساطة الانسانية التى ترفض الماديات المزيفة ولا ننسى أن الاسلام كان ولا يزال مبدئيا دين الشعوب الامية ، أى دين الشعوب الفقيرة التى رفضت منذ العهود البعيدة امبرياليات فارس وروما ومصر الفرعونية بصفتها تجسيما للحضارة الكاذبة المبنية على الجبروت واستعباد الشعوب ٠ وظهور مماليك من النوع الفارسي والرومي تنتسب الى الاسلام انما هو انتساب كذب على الاسلام لمخادعة الشعوب ٠

من أجل هذا كانت الدعوة الى الاسلام بين شعوب أفريقيا ظاهرة متبوعة بالنجاح ٠ والدعوة هنا ليست بالعملية المخطط لها من الجامعات والمجامع ، ولا من البلاطات وقلاع لتفكير الرسمى وانما هى عملية بسيطة تلقائية ، يقوم بها رجال بسطاء ، ويخططوه لها تخطيطا واقعيا تجريبيا مرنا يماشى الظروف ، ويتكيف مع الواقع ، ويغير الاتجاه حسب مقتضيات التجربة اليومية ٠

لدعاة الاسلام فى أفريقيا أجيال متعددة ٠ فهناك الفاتحون الاولون الذين كانوا يذهبون الى حياتها ويتعلمون لغتها ، وهناك أجيال تابعة أرض مجهولة يندمجون فى الشعوب ويحيون حياتها ويتعلمون لغتها وهناك أجيال تابعة متعددة تذهب لتعليم القرآن والفقه الاسلامى ، وأخرى لنشر الطرق والصوفية ثم يتحول الافريقى نفسه الىداعية لدى أخيه الافريقى فتتوالى الدعوات أجيالا أجيالا وأمواجا أمواجا دون انقطاع ٠

أما الصفات الاكثر بروزا للداعية فيمكننا أن نلخصها فى الطالب بالمعنى الدقيق الذى تطلقه عليه لهجاتنا المحلية فى الجزائر ٠

فمن هو هذا الشخص ؟ انه فى الغالب طالب فى العلوم الدينية انقطع عن الدراسة وأصبح معلما للقرآن ٠ وقد كانت أسواق المدن والقرى الجزائرية مملوءة بالطلبة الذين ينتقلون من الدرس الى الحرف السهلة مثل الخياطة والتجارة الصغيرة ، وتعليم الاولاد القرآن والكتابة ٠ وكان من بينهم من يسيح فى الارض اما بحثا عن معاش ، أو بحثا عن علم يقتنيه من شيوخ يسمع عنهم ، وأصبح الطالب طيلة قرون عديدة مثال السائح المتجول فىطرقات البوادى واسواق المدن،ومثال الرجلالملازم للمساجد المشهورةبالعلم والرباطات الذائعة الصيت ٠ وكان هؤلاء الطلبة الشباب أقدر الناس على التكيف وتحمل شرائد السفر مشيا على الاقدام ، كما كانوا أكثر الناس تحملا للجوع ، وأكثرهم صبرا لوطأة المجتمع ٠ وقد عرفنا منهم بقايا انقرضت منذ سنين فقط ، ورأيناهم مشاهدة عيان يحيون هذه الحياة كما لو كانوا أشخاصا شاردين عن قبضة القرون ٠ ونريد أن ننبه الى أنه لا يمكن وجود مثل هذه السياحة العلمية الا فى مجتمعات تقدر العلم وتهىء له الاسباب المادية التضامنية ، رغم ما فيها من صرف وعجز فى بعض الاحيان ٠ فضيوف المساجد عديدون فى كل قرية من قرانا وتزويد المسافر للعلم وكل ابن سبيل فرض من فرائض الاسلام ، فلا غرو أن تسفر هذه الظاهرة عن ايجاد أشخاص يضربون الاراضى ضربا لتعلم الدين وتعليمه ٠

من هنا بدأت طرق الثقافة ، ثم امتدت أطرافها أبعد فأبعد الى أقاصى الجنوب من الصحراء ، فالطالب القادر على الجمع بين التعلم والتعليم والحرفة البسيطة والتجارة الصغيرة والدفاع

عن النفس بالسلاح اذا داهمته الاخطار • هو داعية الاسلام بين شعوب الزراعة وتربية المواشي أي بين الاميين في هذه القارة الافريقية •

واذا أردنا أن ناخذ نماذج تاريخية معروفة فانه يمكننا الرجوع الى القرن الخامس عشر مثلا• فالتاريخ هنا يخبرنا أن الفقيه محمد بن عبد الكريم المغيلي انتقل من تلمسان حيث حصل على العلوم الدينية تحصيلا وافرا قصد توات حيث أنشأ مركزا ثقافيا ذا اشعاع هائل وهو مدرسة تمنطيط بقرب أدرار • ثم تابع حركته التثقيفية بين شعوب افريقيا في مملكة كانو بنيجريا الحالية، وترك هناك مدرسة دينية مالكية أشعرية لازالت على أثره حتى الآن • هذا فقيه مشهور حفظ التاريخ اسمه، ولكن التاريخ لم يحفظ آلاف الاسماء لدعاة مثله ذهبوا الى أبعد من « كانو » وتركوا عقيدة دينية بسيطة في قليل من القرآن وقليل من الفقه والتصوف • وما القرن التاسع عشر منا ببعيد حيث انطلقت من قرى مازونة وعين ماضي وتماسين، وورگلة قوافل من الطلبه للدعوة الدينية بتشاد وكامرون وساحل العاج •

ويبدو لي أن البضاعة العلمية كانت هزيلة في غالب الاحيان عند هؤلاء الطلبة، ولكن نفسهم الروحي كان قويا الى أقصى حد •

فبضاعتهم العلمية قرآن محفوظ مع فهم بسيط لمعانيه، ثم قليل من الفقه المالكي لا يتعدى منظومة ابن عاشر الاندلسي، وتوحيد أشعري يتلخص في متن السنوسية، وقواعد العربية لا تتعدى عندهم الاجرومية • وقد سموا أنفسهم طلبة تواضعا وتشخيصا لواقع • ذلك أنهم متفتحون حقا على التعليم طول حياتهم، يذهبون اليه أين وجد، وينشرونه أين فقد •

أما نفسهم الروحي فيظهر في صبرهم على كل المكاره المادية والمعنوية • فتحملهم لصعوبات الاسفار في الصحارى والادغال وتعودهم على المعاش القاسي يمثل المكاره المادية، أما المكاره المعنوية فكانت تظهر في احتقار أهل اليسر لهم (I) وكان العداء بينهم وبين التجار عداء روحيا وسياسيا يرجع أصله الى أن جل الطلبة من أبناء الفلاحين وصغار الصناع وجدوا تعويضا لفقرهم في الثقافة واكتسبوا في مجتمعهم الفقير نوعا من المكانة التشريفية كثيرا ما استعملوها لتحطيم مكانة التجار في المدينة التقليدية • ثم ان الشائعات الكثيرة كانت تشاع عنهم كلما دخلوا قرية وهم غرباء فيتهمون بالمكر والخديعة والسحر فكان الناس يتقونهم ويتخوفون من معاملتهم • ولا ينكر أن منهم دجالين ومحتالين حقا، ولكن ما أقل هؤلاء العاجزين المنحرفين أمام ذوى الايمان القوى والاخلاق السوية •

فالطالب الداعية في الاوساط الافريقية كان يمثل «المرابط» أحسن تمثيل • ورجال الرباط آنذاك مجاهدون حقا لانهم أكثر النس صبرا في كل أنواع الشدائد وأنواع الكفاح • وانه ليظهر لي أن الاتجاه نحو الامم الامية لمشاركتها معاشها القاسي هو الفضيلة الاساسية التي يتحلى بها هذا الطالب المرابط • انها فضيلة تقتضي كثيرا من الرحمة في المعاملات ومحبة لبني الانسان لاتقاس بمقاييس فلسفية أو تقنيات فكرية للاخلاق، وانما هي محبة ورحمة عملية تظهر في الحياة اليومية وفي المواقف تجاه الاحداث • فالرجل الذي يتواضع في سلوكه ويدعو الى التواضع، ثم يبرز شجاعته الفكرية في الصبر على أنواع الاذى من أجل أفكاره،والرجل الذي يدعو الى المساواة،

I) يوجد في المدن التجارية مثال يحقر من شأن طلبة القرآن وهو «اللهم اغن التاجر وافقر الدرار» وقد اجيبت هذه الدعوة مسبقا — والدرار هو معلم القرآن لانه يشتغل بالدرارى أي الذرية «الاطفال الصغار

ويعيش هذه المساواة في الفقر والجوع بين الفقراء والجائعين والرجل الذى يتعلم لغة الآخرين محبة فى الآخرين والرجل الذى يتزوج ويندمج فى مجتمعات غريبة عنه، فى سبيل فكرته، والرجل الذى يحارب العرقية بذوبانه فى العرق الآخر، هو حقا رجل يبرهن فى سلوكه عن حقيقة فكره الداعى الى العدالة والمساواة والانسانية العميقة ٠

بواسطة هؤلاء الاشخاص تكونت طرق الثقافة، بعد أن انقرضت طرق الذهب ، وذهب النخاسون الى خزى الاجيال ، وحل محلهم دعاة الانسانية فى افريقيا ، وفشل التجار بنظرتهم الى العالم نظرة سطحية محدودة ، ونجح «الطالب» المتواضع لانه كان تواضعه يحمل ايمانا عميقا بالاخوة الانسانية ٠ ولم يقتن «الطالب» درهما ولا معاشا ولكنه اكتسب ثروة روحية لا تعرف الفناء ٠

« ما عندكم ينفد وما عند الله باق »

ليس بى حنين الى الماضى حينما أنبش هذا الماضى ولكنى أريد أن أعرف مجتمعى بماضيه وحاضره ، ولا يمكن للماضى ألا يمتد الينا على الاقل فى مبادئه الاجتماعية والروحية الاساسية. أريد أن أعرف النماذج البطولية الحقة وأراها أصدق ما أراها فى صميم الشعب وأعماقه ، لا فى العينات المزيفة التى جمعت الذهب فأكلته أكلة خنازير فى الملذات المتعفنة ٠

وانى حينما أريد استقصاء البحث عن فضائل مجتمعى لا أدعى أنها فضائل أبدية ٠ فقد يمكن التحول عن الاصل ولكنى لا أريد لمجتمعى أن يستبدل فضيلة برذيلة بل أن يستبدل فضيلة بمثلها أو أحسن منها ٠ اذ للقرن العشرين فضائله الخاصة به ٠

ففضيلة الصبر والنضال من أجل عقيدة كان من فضائل «طلبتنا» فى القديم ، ونريد لطلبة عصرنا أن يكونوا طلبة للعلم «من المهد الى اللحد» متواضعين متفتحين أبد الدهر ، ونريد لهم أن يتحلوا بنفس الصبر والعزيمة التى كان يتحلى بها القدماء ، وليس القدماء بأفضل من أهل هذا الزمن ٠

ومن العجب أن فضائل الطلبة القدماء هى نفس الفضائل التى كانت تتحلى بها «نخبة المثقفين المناضلين» أى الانتليجانسيا من الاجيال الثورية الكبرى ، فى هذا القرن العشرين ٠

فليس تكديس المعارف المتناثرة المتنافرة هو الذى يمثل الثقافة الحقة ، ولكن الثقافة الحقة هى قوى لما نعلم وهدف واضح لتطبيق ما نعلم ، وايمان قوى لا تزعزعه الاحداث ، بالشعوب التى نعمل من أجلها ٠

اذا أردنا أن ندخل فى عهد الثورة الثقافية ، فلنعلم أن لكل ثورة روحانيتها وهى ، وان تعددت مناهجها ، وتجسيماتها ، روحانية واحدة أساسية نسميها الايمان بالعقيدة والايمان بالشعوب ٠

أبوبكر محمد بن داوود

كاتب يغمراسن بن زيان

بتلمسان

رابح بونار

تمهيـــد : اننا نلاحظ عند دراستنا لتاريخ نشأة الدولة الزيانيـة على يــد مؤسسها يغمـراسن بن زيان سنة 633 هـ ولتاريخ الدول الاخرى التى انفصلت مثلهــا عن الامبراطورية المـوحدية كالدولة المرينيـة بفاس سنة 668 هـ والدولة الحفصيـة بتـونس سنة 626 هـ والـدولة النصرية بالانـدلس سنة 626 هـ ، انهـا دول خلفت الامبراطورية الموحدية فى أنظمتها الادارية وفى تراتيبها الحربية ونشاطها الاقتصادى، وحاولت أن تسبقها فى مجـال العنـاية بالحـركة العلميـة وتشجيـع أعـــلامها فى كل فن ، وقد سعت بعض هذه الدول لتخلفها فى اتساع رقعتهـا وضخامة ملكها ٠

ولما قامت الدولة الزيانية انبرى يغمراســن مؤسسها على قرب عهده بالحياة البدوية الساذجة الى اقامة دولته الفتية على أسس حضارية يتطلبها عصره ، فاهتم بتنظيم ادارته على غرار ما كانت عليه الادارة الموحدية بتلمسان ، وأنشأ قــوة عسكرية متألفة من قبيلة بنى عبد الواد وغيرهم ليتقى بها الاخطار التى كانت تحدق به من قبـل بنى مرين بفاس غربا ، وبالحفصيين بتونس شرقا وليدافع بها القبائل الاعرابية والبربرية المناوئـة له داخل رقعة دولته ٠

ثم ابتكر سياسة مرنة ترتكز على الولاء لأواخر خلفاء الموحدين بمراكش ولامراء بنى نصـــر بالاندلس ليدعم بذلك مركز حكمه ، وعلى العداء لبنى مرين الذين كانوا يحاولون القضاء عـــلى دولته ليوسعوا بذلك رقعة دولتهم ويخلفـــوا الموحدين فى أمبراطوريتهم ٠

وكان يتظاهر بالولاء للحفصيين ــ تقية منه ــ ما كانوا أقوياء وعند ما ضعفوا أخذ هو وخلفاؤه يوسعون رقعة دولتهم على حسابهم فى قسنطينة وبجاية ، وهكذا تتجلى لنا سياسة يغمراسن فى

مساعيه الجادة لتدعيم أركان دولته مرنة حكيمة قد تكللت بالنجاح ، وتتوجت بالانتصار ، رغم ما كان يتهددها من أخطار في الداخل والخارج

تشجيعه للحركة العلمية :

ولم يقتصر نشاط يغمراسن على العناية بالناحية السياسية والحربية والادارية وحدها بل انصب نشاطه أيضا على العناية بتشجيع الحركة العلمية والادبية وعلى تزيين بلاطه بالعلماء والادباء منافسا بذلك غيره من أمراء عصره ·

فدعا اليه أبا اسحاق التنسي وكان من أكابر العلماء بعصره وألح عليه حتى غادر موطنه ووفد عليه بتلمسان وانتصب للتدريس بجامعها الاعظم ثم أغدق عليه يغمراسن كل انعام · (1)

ووفد عليه أبو بكر محمد بن خطاب من الاندلس لما بلغه عنه من تشجيع للعلم وأهله فرحب به ، «وأحله المحل الرفيع من دولته» (2) وأكرم أبا عبد الله محمد بن محمد بن مرزوق من علماء تلمسان وأجله وأوصى أن يدفن بازائه من الجامع الاعظم بتلمسان (3) ، كما أكرم غير هؤلاء من علماء تلمسان أو الوافدين عليها ·

وقد كانت العناية بتشجيع الحركة العلمية ظاهرة عامة للدول التي خلفت الامبراطورية الموحدية ، وكان التنافس بينها على هذا التشجيع قائما أشده وقد استأثر الحفصيون بالنصيب الاوفر منه في القرن السابع الهجري ، وحاول المستنصر من خلفائهم أن يستأثر بأبي بكر بن خطاب لما وفد على تلمسان وكاتبه في ذلك وبعث اليه بهدية مغرية فرد الهدية وآثر الاقامة تحت كنف الدولة الزيانية ·

ان الازدهار العلمي الذي نشاهد آثاره في القرن السابع الهجري بالمغرب عامة تعود بعض أسبابه الى هذا التنافس الذي كان يقع بين الملوك حول استقدام العلماء الى بلاطهم واغداق ضروب الانعام عليهم ، والى تدهور الوضع السياسي والاجتماعي بالاندلس الذي حفز كثيرا من رجال الفكر على الهجرة الى أقطار المغرب طلبا للامن والحياة الرضية ·

وقد كانت هجرة أبي بكر بن خطاب الى تلمسان مبعث حياة أدبية ملحوظة كما كانت هجرة ابن الابار وابن عميرة وحازم القرطاجني منطلق ازدهار أدبي لامع في تونس ، ويهمنا هنا أن نذكر نبذة من ترجمة أبي بكر بن خطاب وما تركه من آثار فكرية في الجو الادبي بتلمسان ·

لمحة عن حياته ونشأته :

أبو بكر بن خطاب هو محمد بن عبيد الله (4) بن داوود بن خطاب المرسي ، ولا نعلم عن نشأته الا انه ينسب الى مرسية ، وانه كان على حد تعبير ابن الخطيب «شكس الاخلاق متقاظبا زاهيا بنفسه» (5) ·

شيوخه :

وذكر ابن الخطيب جملة من الشيوخ أخذ عنهم أبو بكر وانتفع بعلمهم فروى عن القاضيين أبي عيسى بن أبي السداد ، وابي بكر بن محرز وأبي بكر محمد القرشي وغيرهم (6) ويضيف يحيى بن خلدون والعبدري الى هؤلاء الشيوخ جماعة أخرى منهم «أبو بكر بن جهور ، وابو بكر الغافقي ، وابو الحسين بن عبد الرحمن الرفاء ، وابو عيسى محمد بن محمد بن أبي السداد ، وأبو المطرف بن عميرة وغيرهم» (7) ·

---

(1) الحافظ التنسي : محمد بن عبد الجليل : الدر والعقيان مخطوط مج 1 ص 139
ابن مريم : البستاني ط الجزائر سنة 1908 م ص 67

(2) ابن الخطيب : الاحاطة في اخبار غرناطة مج 2 ص 275
ابن خلدون يحيى : بغية الرواد ط الجزائر سنة 1903 ج 1 ص 48

(3) المصدر السابق ج 1 ص 48

(4) وفي بغية الرواد ج 1 ص 48 ورد اسمه عبد الله بدون تصغير ووافقه عليه ابن مريم في البستان ص 227

(5) الاحاطة ج 2 ص 275 — (6) المصدر السابق ج 2 ص 276

(7) العبدري : الرحلة المغربية تحقيق احمد بن جدو ص 16 — بغية الرواد ج 2 ص 48

ارتحاله الى تلمسان :

التجأ أبو بكر بن خطاب الى تلمسان فى صحبة ابن وضاح والجالية الاندلسية التى آثرت الوفادة عليها وأشار الى ذلك ابن خلدون فقال : «ووفد عليه (أى يغمراسن) لاول دولته ابن وضاح اثر دولة الموحدين ، أجاز البحر مع جالية المسلمين من شرق الاندلس فآثره وقرب مجلسه وأكرم نزله وأحله من الخلة والشورى بمكان اصطفاه له ، ووفد فى جملته أبو بكر بن خطاب المبايع لاخيه بمرسية» (8)• ويبدو أن ورود أبى بكر بن خطاب على تلمسان انما كان على اثر الفتنة التى وقعت بمرسية وأشار اليها ابن الخطيب بقوله : «انه رجع الى مرسية وقد ساءت أحوالها فأقام بها مدة ثم انفصل عنها واستقر بالعدوة بعد مكابدة» (9) وابن خلدون يذكر انه بايع أخاه بمرسية (10) ، ولم تساعده القلاقل التى كانت تهانيها مرسية على المقام بها فارتحل عنها الى المغرب وتقلب فى أنحائه وكان ارتحاله فى تاريخ غير معروف ، وقد يكون قبل سنة 661 هـ بقليل ، ويؤيد ذلك ما جاء فى احدى رسائله التى كتبها عن أميره يغمراسن بعد التحاقه به لتهنئة المستنصر بانتصاره على ابن عمه أبى القاسم بن أبى زيد بقسنطينة وجاء فيها : «وصل الى العبد كتاب مولاه ••• يعرفه بأنه توجه الى قسنطينة فى هذه الايام الفارطة قاصدا معالجة دائها بما أعد الله له من دوائها(11)

وفاته :

اذا كان تاريخ ميلاد أبى بكر غير معروف فان تاريخ وفاته يكتنفه غموض وقد اختلف مترجموه فى ذلك فذهب يحيى بن خلدون : «الى أنه توفى يوم عاشوراء سنة 636 هـ (12) ووافقه ابن مريم فى بستانه (13) على هذه الرواية وهى لا شك تصحيف واضح من النساخ ، وذهب ابن الخطيب فى احاطته (14) الى أنه توفى بتلمسان يوم عاشوراء بعد الثمانين وستمائة وهو قريب من الصواب رغم ما فيه من عموم وعدم تحديد ، على أن الاصوب أن نقول فى تاريخ وفاته أنه توفى بعد سنة 681هـ لانه كان حيا فى هذه السنة وقد كتب فيها رسائل ، ومن ذلك ما كتبه عن أميره أبى سعيد ابن يغمراسن وقد تولى الامارة سنة 681 هـ بعد موت أبيه جوابا عن تعزية الامير النصرى بالاندلس وجاء فيها : «عن الامير عثمان بن الامير أبى يحيى يغمراسن بن زيان ، سلام كريم عليكم ورحمة الله تعالى ••• وبعد حمد الله مقدر الآجال ، المحمود على جميع الاحوال •••» (15) وكذلك رسالته التى عزى بها أميره أبا سعيد عثمان عن أبيه يغمراسن وجاء فيها «مولاى السلطان أبو سعيد أدام الله مدة حياته ، وعرفه من التأييد ما يتكفل لامره بالتأييد» (16) وهكذا يتضح لنا أنه توفى بعد سنة 681 هـ جزما وبقى تحديد سنة وفاته بالضبط وهو متعسر ، ولكن يمكن أن نحصر هذه السنة بما بعد سنة 681 هـ وما قبل سنة 688 هـ وفى هذه السنة الاخيرة مر العبدرى بتلمسان ووجد أبا بكر قد توفى وسأل عنه تلميذه ابن خميس وروى عنه بعض شعره •

منزلته فى الشعر :

بلغ أبو بكر بن خطاب منزلة سامية فى الشعر كما يذكر مترجموه ولكن ضآلة ما عثرنا عليه من مقطوعاته الشعرية لا يساعدنا على تحليله ولاالحكم عليه وانما نكتفى بما ذكره مترجموه عنه «وهم قد أجمعوا على الاعجاب بشعره ونثره ، فابن الخطيب يقول عنه نقلا عن صلة بن الزبير «أن ابا بكر بن خطاب كان كاتبا بارعا ، وشاعرا مجيدا مشاركا فى أصول الفقه وعلم الكلام وغيرهما» •

---

(8) ابن خلدون عبد الرحمن : كتاب العبر ط لبنان سنة 1909 مج 7 ص 163 –(9)(ابن الخطيب : الاحاطة ج 2 ص 275
(10) كتاب العبر مج 7 ص 163 — (11) فصل الخطاب من رسائل ابى بكر بن خطاب مخطوط ص 2 — (12) بغية الرواد ج 1ص48
(13) البستان ص 227 — (14) الاحاطة ج 2 ص 278
(15) فصل الخطاب ص 13 — (16) المصدر السابق ص 14

ويحى بن خلدون يقول عنه انه «كان من أبرع الكتاب خطا وأدبا وشعرا ، ومن أعرف الفقهاء بأصول الفقه» (17) ووصفه الحافظ التنيسى «بأنه خاتمة أهل الآداب ، المبرز فى عصره على سائر الكتاب» (18) وأما العبدرى فانه كان معجبا كثيرا بشعره وقد روى له بعض مقطوعات وعلق عليها ومن ذلك ما قاله فى هذه المقطوعة :

1) اشكرن لربك وانتظرن
فى اثر عسر لامر يسرا
2)واصبر لكربك وادخرن
فى ستر ضر الفقر أجرا
3)فالدهر يعثر بالورى ن
والصبر بالاحرار أحرى
4)والوفر أكثر معشران
والفقر بالاحرار يغرى

ان نظام هذه الابيات يدل على باع من الادب مديد ، وطبع فاضل ومقول مجيد ، وناظمها رحمه الله متمكن الجلالة ، معراف الاصالة (19) وقال فيه عبد الرحمن بن خلدون: انه كان شاعرا محسنا (20)

وروى له ابن الخطيب مقطوعات متعددة منها مقطوعة فى الحكم مطلعها :

«اقنع بما أوتيته تنل الغنى ن
واذا دهتك مصيبة فتصبر»

وثانية فى الابتهالات مطلعها :

رب أنت الحليم فاغفر ذنوبى ن
ليس يعفو عن الذنوب سواك

منزلته فى الترسل والكتابة :

ونبغ أبو بكر بن خطاب فى الترسل والكتابة الفنية وبها اشتهر أكثر من اشتهاره بالشعر ، وقد بلغ فيها درجة كبيرة فاق بها معاصريه فى المغرب والاندلس ، وقد ذكرنا من قبل ما حلاه به مترجموه من براعته فى فنى الكتابة والشعر ، ومن آثاره ايثاره بمنصب رئاسة ديوان الرسائل السلطانية بغرناطة .

ولما انتقل الى تلمسان تقلد هذا المنصب فى بلاد يغمراسن وأنشأ رسائل عديدة كانت نموذجا يحتذى ، وكان يوجه هذه الرسائل عن يغمراسن أو ولده أبى سعيد الى الموحدين بمراكش والى الحفصيين بتونس والى ملوك بنى الاحمر بالاندلس فى مناسبات مختلفة يقول عبد الرحمن بن خلدون فى ترسله «انه كان مترسلا بليغا وكاتبا مجيدا . . فستكتبه (أى يغمراسن) وصدر عنه من الرسائل فى خطاب خلفاء الموحدين بمراكش وتونس فى عهود بيعاتهم ما تنوقل وحوفظ» (21)

وذكر أن حافظ التنيسى أن يغمراسن «جعله صاحب القلم الاعلى» فى تلمسان (22) على أننا رغم بحثنا الكثير عن آثاره الكتابية فاننا لم نجد منها الا بضعة رسائل مخطوطة من مجموع جمعه أديب يدعى الحاج عبد القادر ودعاه فصل الخطاب من رسائل أبى بكر بن خطاب» وقد ذكر فيه تسعة أبواب ، ويبدوا أن أكثر رسائله ضاع فظهر لذلك تقسيم الكتاب غير مرتب ولا منسق تنسيقا منطقيا وهذه الرسائل الباقية من المجموع قد صدرت عن أبى بكر وهو بتلمسان، وروى له ابن الخطيب رسالة اخوانية أنشأها فى الاندلس (23) وخاطب بها صديقين له بمرسية ، وقد بعث بها من مدينة اشبيلية .

وقبل أن نذكر اسلوب هذه الرسائل وخصائصها نذكر كلمة عن أسلوب الرسائل الديوانية وغيرها فى الاندلس والمغرب .

اسلوب الرسائل الديوانية فى هذا العصر :

لقد أثبت مؤرخو الادب فى هذا العهد أن كتابة الرسائل قد تأثرت بطريقة القاضى الفاضل المتوفى سنة 596هـ وهى تمتاز بالتزام السجع واطالة الفقرات وبالاستعارة والطباق ومراعاة النظير ، والغلو فى التورية والجناس واثار المعانى الخيالية (24) وجاء بعده محى الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة 692 هـ وقد سلك طريقته واعتمد أسلوبه .

---

(17) بغية الرواد ج 1 ص 48 — (18) الدر والعقيان ج 1 مخطوط ص 276 — (19) الرحلة المغربية ص 16
(20) كتاب العبر مج 7 ص 163 — (21) المصدر السابق مج 7 ص 163 —(22) الدر والعقيان ج 1 ص 139
(23) الاحاطة مج 2 ص 277 — (24) الاسكندرى احمد : الوسيط فى الادب العربى وتاريخه ص 295 — (24) الرحلة المغربية 23

وشاعت هذه الطريقة فى المشرق والمغرب وكان كتاب المغرب والاندلس يتاثرون بكل التيارات التى تحدث فى المشرق يحاكونها ويحتذونها ، وهذا ما لاحظه ابن بسام فى القرن الخامس الهجرى ولاحظه آخرون بعده وانتقدوه ·

وصار السجع فى الرسائل الادبية والاخوانية ونحوها بعد ذلك حلية مرغوبا فيها بل قد طغى السجع على غيرها من فنون الادب كالمؤلفات الادبية والرحلات وكتب التاريخ ·

والعبدرى هو معاصر لابى بكر بن خطاب يقول فى وصف بجاية فى رحلته : «ثم وصلنا الى مدينة بجاية ، مبدأ الاتفاق والنهاية ، وهى مدينة كبيرة حصينه منيعة شهيرة برية بحرية،سنية سريه،وثيقة البنيان ، عجيبة الاتقان» ، وكذلك ابن جبير فانه يميل الى السجع فى رحلته ، ومثله الرحالة أبو البقاء خالد البلوى الذى زار تلمسان فى أوائل القرن الثامن الهجرى وقال فيها · «فرايت مدينة قل مثلها ، وجل عراها وبانها وأثلها ، بطاح وأدواح ، وربى ملاح ، وضياء وانشراح ٥ · · »

ومن المؤرخين نجد يحى بن خلدون يميل الى السجع فى بعض فصول كتابه : فيقول أبى حمو موسى بن يوسف «ولما كان مولانا الخليفة الامام السلطان الهمام ، الجواد الضرغام ، كبير الملوك وناظم السلوك ، وناهج سبيل الفخر المسلوك» (25) ويقول أيضا فى ذكر السلطانين أبى سعيد وأبى ثابت «قمرا الخلافة وفرقدا الشرف والاناقة ومقرا الامان المنتجع والاخا ، هذا قطب الاسلام والدين ، وهذا يوم الكفاح أسد العرين» (26) ·

وأما كتاب الرسائل فى عصر الموحدى فأشهر من يمثلهم ابن عطية وقد كتب رسالة ديوانية عن عبد المؤمن الى أهل تلمسان جاء فيها : أما بعد فالحمد لله وسعت رحمته كل شىء على العموم والاطلاق ، وجمعت عصمته أهل الاجتماع على طاعته والاتفاق ، ونمت نعمته تماما على أبلغ وجوه الانتظام والاتساق (27) ويقول من رسالة أخرى مخاطبا ابن هود الثائر : «وتقدمت بشارتنا به جملة ، حين لم تعط الحال بشرحه مهلة» (28) ·

وقد لاحظ ابن خلدون فى القرن الثامن أن ظاهرة السجع قد غلبت على الكتاب فقال : «واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها فى المخاطبات السلطانية وقصروا الاستعمال فى المنثور كله على هذا الفن الذى ارتضوه وخلطوا الاساليب فيه وهجروا المرسل وتناسوه وخصوصا أهل المشرق ··· والمحمود فى المخاطبات السلطانية الترسل وهو اطلاق الكلام وارساله من غير تسجيع الا فى الاقل النادر حيث ترسله الملكة ارسالا من غير تكلف له ثم اعطاء الكلام حقه فى مطابقته لمقتضى الحال·· (29)

ترسل أبى بكر بن خطاب :

ولم يكن أبو بكر بن خطاب ليخرج عن هذا الاسلوب الشائع فى عصره فى الرسائل وهو السجع والعناية بالمحسنات البديعة فكان ذا عناية بالسجع واطالة الفقرات كما فى قوله من رسالة أخوانية «ونزلنا فى الاخبية خارج البلد بموضع يعرف بالقنب قد تفجر عيونا ، جمع ماؤه وهواؤه عن المحاسن فنونا، وعرض علينا النزول فى الديار داخل المدينة ، فرأينا المقام بالقنب أحد الاسباب المساعدة على حفظ الصحة المعينة (30) » وكقوله من رسالة أخرى «الفقيه الاجل أبو طالب أبقاه الله للمجد يحمى شرائعه ، وينمى بضائعه ، ويبنى مصانعه، ولا زال الاعتناء الربانى يسعد مقاصده ويجمع جمع السلامة أوابد أمله

---

(25) تاج المغرب مخطوط ، الخزانة العامة بالرباط ص 4 —
(26) بغية الرواد ج 1 ص 4 — (27) المصدر السابق ج 1 ص149
(28) كنون عبد الله : النبوغ المغربى ج 2 ص 96 — (29) المصدر السابق ج 2 ص 100 — (30) مقدمة ابن خلدون ص424 425

وشواده ، (31) » وفى هذه الفقرة سجع مختلف بين قصير وطويل كما فيها تورية بجمع السلامة التى يريد بها الجمع اللغوى والجمع الاصطلاحى فى النحو ، ويهتم بالاقتباس من القرآن وغيره كما فى قوله : واستفهم لسان السيف لمن الملك اليوم (32) وكقوله من رسالة تعزية لابى سعيد بن يمغراسن «فقد أدال الله من جزعه صبرا ، وجعل مع عسره يسرا (33) » أو كقوله من رسالة تعزية وتهنئة وجهها عن أميره يمغراسن الى المستنصر بتونس «فلم يكن الا قدر ما يلمح البصر ، أو تنداح دائرة فى الماء يرمى فيه بالحجر (34) » .

وهو يهتم أيضا بالتورية كثيرا فيورى بألفاظ نحوية وفقهية ونحوها كقوله من رسالة الى فقيه «والشكر لما حزتم من مآثر الفضل ينقسم بانقسام الزمان كالفعل غير أنه لا ينفى ولا يجزم (35) » وقوله فى رسالة فى الصدقات أو خطبة النكاح «ورسم فيه أثر فعله الذى لا يتصف بالجبر والاكتساب (36) » ويهتم بأنواع الاستعارات وضروب الاخيلة كقوله : «وكتائبه المتعودة لشن الغارة ضراغم آجامها الرماح الخواطر ، وبراثنها السيوف البواتر (37) »وقوله : «وصل النبأ الذى طاشت له الاحلام ، وتعثرت فى الطروس الاقلام (38) » وقوله : «قد طفت جثث قتلاهم فى بحر الزقاق أمثال الزقاق » وقوله : وصل كتابكم الخطير ينصع بيانا ، ويخلو من مصافاتكم صورا حسانا (39) وقوله : «ما أهدى الجذل الى الصدور ومحا أثر الحزن منها بيد الصرور (40) » وقوله فى تنزيه صفات الله عن النقص وغوص الافهام الكاملة لادراكها كأن طيور الاقلام خلال أوراق غصون سطور الكلام تلقط منها عناقيرها حبا (41) وفى العبارة ضعف تركيب لكثرة الاضافات فيها .

وهكذا نصل الى جملة نتائج وهى أن الاسلوب الفنى للرسائل الديوانية قد نقله أبو بكر بن خطاب الى تلمسان وقد بثه بين طلبتها وشاع عنه هذا الاسلوب فى منتصف القرن السابع وما بعده وكان هو أكبر ممثل له فى تلمسان والمغرب وكان يقابله شيخه أحمد بن عميرة ومواطنه ابن الابار بتونس .

اثرابى بكر بنخطاب فى الحركة الادبية بتلمسان:

اننا لا نجد مراجع كافية تحدثنا عن مدى تاثير أبى بكر بن خطاب فى الحياة الادبية بتلمسان ، ولكن بعض الاشارات التى وردت عرضا فى بعض المراجع قد تكشف لنا عن هذا التأثير أو بعضه ومن ذلك ما ورد فى رحلة العبدرى (42) من أن ابن خميس كان راوية عن أبى بكر بن خطاب وتلميذا له ، وكان ابن خميس هو أكبر شاعر وكاتب أنجبته تلمسان فى هذا القرن وقد تأثر به فى اتجاهه الادبى وأسلوبه ونجد رسالته الصوفية تنتحى منحى رسائل شيخه فى التزام السجع ، وفى اطالة الفقرات ، وقد يكون قلده فى رسائله الديوانية التى لم نعثر على أى رسالة منها بعد أن شغل منصب كاتب الرسائل بديوان أبى سعيد خلفا عنه بعد وفاته ، ولا يبعد أن يكون أبو زكرياءيحى بن عصام (43) وكان أديبا شاعرا ملازما لابن خميس قد أخذ عنه وتأثر به .

وكما لا يبعد أن يكون أبو عبد الله محمد بن المعلم وكان من كتاب يغمراسن (44) قد أخذ عنه وتأثر به ، كما تأثر به الجو الادبى فى تلمسان عامة .

وقد حدثنا ابن خلدون عن أثر رسائله فى المغرب كله فقال : وصدر عنه من الرسائل فى خطاب خلفاء الموحدين بمراكش وتونس فى عهود بيعاتهم ما تنوقل وحفظ (45) وفى هذه العبارة الموجزة ما يفيد أن رسائل أبى بكر صارت تراثا أدبيا يدرس ويحفظ ونماذج مثالية يحاكيها الكتاب ويقيسون منها فى رسائلهم الديوانية وغيرها .

---

(31) ابن الخطيب : الاحاطة 2 : 277 — (32) فصل الخطاب ص7 —(33) المصدر السابق ص 7 — (34) المصدر الساق 14
(35) المصدر السابق ص 6 وفيه اقتباس من بيت ابن الرومى (36) فصل الخطاب ص 8 — (37) المصدر السابق ص 15
(38) المصدر السابق ص 15— (39) المصدر السابق ص 6 (40) المصدر السابق ص 12 — (41) المصدر السابق ص 13
(42) المصدر السابق ص 16 — (43) الرحلة للعبدرى ص 15 (44) المصدر السابق ص 19 — (45) بغية الرواد ج 1 ص 111

تحليل مضمون بعض رسائله :

ونبدأ من ذلك برسالة عزا بها الامير أبا سعيد عثمان فى أبيه يغمراسن وفيها يقول فى مقدمتها «مولاى السلطان أبو سعيد أدام الله حياته وعرفه من التأييد ، ما يتكفل لامره بالتأييد ، ويقضى بتقديم ملكه واثباته، عبده وخديمه، ومولى الشكر لاحسانه الجزيل ومديده، محمد بن خطاب سلام الله ، وبعد حمد الله الذى لا يموت والصلاة على سيدنا محمد رسوله الذى آتاه من المعجزات ما يفوق الحصر ويفوت ٠ ٠ ٠ ٠»

ثم يدعو له ويخبره أنه كتب اليه من تلمسان حول «وفاة مولاه السلطان أبى يحى والدكم قدس الله ثراه ، وجعل الجنة مثواه ، ما جرى به القدر وشاب لاجله صفو الحياة بالكدر» ٠

ويعظم المصاب ويوضح أثره على النفوس فيقول : «فيا له رزءا فادحا ، وثكلا جرى بنا فى ميدان الاسى جامحا ، ونغص العيش ، وعلم الحليم الوقور الطيش ٠ ٠ ٠» ثم يستلم لمشيئة الله التى لا تدفع ، ويرضى بأحكامه فى الارواح «التى هى عوارى تسترجع لوقتها وتسترد ، وذلك ما لا يغيب عن علم مولانا السلطان ٠»

ثم يستطرد الى تهنئته بالسلطان الذى أدال الله به «من جزعه صبرا وجعل مع عسره يسرا ، وهو ما يسر من الاتفاق على بيعتكم السعيدة ، وحلولكم فى مرتبة الملك المشيدة ، وهنيئا لها فاليكم كان ميلها ، وبصبح ولايتكم انجلى عنها ليلها ٠ ٠»

وأخيرا يختم بالدعاء له بدوام السرور والاعتذار عن تقصيره فى ايفائه حق السلطان ويسجل تاريخ الرسالة التى كتبت فى 5 ذى الحجة من عام 681 هـ

رسالة ثانية له :

ومن هذه الرسائل رسالته فى الجواب عن تعزية الملك النصرى من بنى الاحمر بالاندلس لابى سعيد حول وفاة أبيه يغمراسن فيقول له فى مطلعها : ان الصداقة التى تربط بين الملكين متينة «لا تحيل صفاءها الايام» ويسبغ عليه من الالقاب ماجرت به العادة السلطانية فى ذلك العصر ويشيد بامارته ذات المآثر الجليلة على لسان سلطانه أبى سعيد ثم يحمد الله ويصلى على النبى ص راضيا بما قدر الله من مصاب يصيب العام والخاص مثبتا ان الصبر هو بمنزلة الراس من الجسد كما جاء فى الحديث ، ويخبره أنه كتب اليه من تلمسان حرسها الله «وفضل الله تصفو مشارعه وتصفو مذارعه ، وصنع الله الاجمل تتلاحق طلائعه ٠٠٠ وأخاؤكم الكريم عقده وثيق ، ووجهه سافر أنيق والوفاء بأذمته المؤكدة لا يسلك غير طريقه طريق، ولايتخذ عن فريقه فريق، والتعظيم لجنابكم الرفيع موصول أبدا ، موفى قولا ومعتقدا وانه بذلكم لحقيق ٠ ٠ ٠»

وبعد أن يؤكد علائق المودة بينهما واللزوم على عهودهما السابقة يخبره أنه وعى كتابه الذى عزاه فيه عن أبيه ويشكره عليه ويشيد بحبه لصفيه الراحل ولئن فقدوه فقد بقى لهم من ولده «أخ معاضد فى كافة الاحوال مساعد، يقاسمكم فى المر والحلو ٠٠٠ »

وأخيرا يعتذرهم عن تأخر كتبهم اليه لانه «قد تقرر بيننا وبينكم من خلوص السر والجهر ما لا يحتاج معه الى تكلف العذر ، فاننا ننظر الى كل ما يصدر عنكم بعين الرضا ، ونقيس مستقبل حالكم فى الوفاء على ماتيقننا منه فيما مضى بحول الله» ٠

وهكذا تنتهى هذه الرسالة التى توضح لنا مدى العلائق السياسية الوطيدة لتى كانت تصل بين مملكتى غرناطة وتلمسان فى القرن السابع الهجرى وقد تأكدت هذه العلائق لاسباب سياسية واجتماعية واقتصادية فى القرنين التاليين : الثامن والتاسع وكانت تتسم دائما بالصفاء والتعاون ولم يشبها طيلة هذه القرون الثلاثة ما يكدر صفوها أو يضعف من فعاليتها ٠

وأخيرا نذكر خلاصة لهذه الالمامة التى بدأناها بنبذة عن حياة يمغراسن ونشاطه السياسى وتشجيعه للحركة العلمية ، ثم ذكرنا الماة عن حياة كاتب يمغراسن أبى بكر بن خطاب فى الاندلس وتلمسان ، وحاولنا ان نذكر اقياسا عن عبقريته الشعرية والنثرية وأن نلمح بايجاز عن مدى تأثيره على الحياة الادبية ، ثم عرضنا بايجاز الى تحليل بعض خصائصه النثرية والى تحليل رسالتين له وهكذا نكون قد القينا ضوءا خافتا على شخصية علمية كبيرة كان لها تأثير على حياتنا الثقافية بتلمسان فى بعض عهودها الزاهرة ومن الوفاء لها أن نذكرها بالاكبار ، وان نشيد ببعض ما تركت لنا من آثار فكرية تستحق منا العناية بالدرس والتحليل ٠

الاستعمار المقنع (•)

(للتخلف مظاهر شتى معروفة وشتى هي أسباب التخلف • سنتناول ، في الصفحات التي تلي ، عوامل الاستعمار الاجنبي في التخلف الثقافي ، دون أن نتعرض الى علاقات هذا التخلف بالاوضاع الداخلية والذاتية (مثل تآمر «النخبة» الاهلية على التراث القومي وأدوارها في مسخ ذهنية المواطنين) ، فلذلك حديث آخر•)

محمد عزيز الحبابي

يعتبر الاستعمار سلاحا خطيرا يفتك بالانسانية لانه يعوق تطور ثقافة المستعمرين (بفتح الميم) ، بل يعمل جاهدا ليحملهم على نسيان تراثهم القومي ومشاركتهم في الحضارة• «اننا، في بعض الحالات نقدم للدول التي نسميها متخلفة الآلات والتقنيين ولكننا لم نقترح قط منهاجا كاملا واقعيا يساعد فعليا ، هذه الشعوب على مواجهة مشاكلها أو على تحقيق مطامحها المشروعة» (I) •

لنضرب مثلا بحالة هنود أمريكا : انها عملية اجتثاث لاصول الثقافة • فلا يكاد يعرف شيء عن ثقافتهم ، وكل ما تبقى هي كمية ضئيلة من الشعر الهندي يرجع الى ما قبل الاستعمار ، ولا يتوفر الباحث الا على ترجمة رديئة باللغة الانجليزية للملحمة الهندية Wallam Ollun، وقد عثر على نقوش تعرض بعض فصولها (2) • أن الاستعمار يقوم قبل كل شيء ، بتفكيك شخصية السكان الاصليين • فافظع جرح تعانيه الانسانية هو اقتلاع جذور كثير من الشعوب المغلوبة الملقاة في أحضان الضياع مهملة مشردة فوق تراب وطنها ، مفصولة عن تراثها القومي وقد اصبح غريبا بالنسبة لـ «الاهالي» «وأهالي» هنا تتخذ معناها القدحي ، طبقا لما اصطلحته لغة الاستعمار) ٥

لقد أمست الثقافة ، اليوم ، بالنسبة للافراد والشعوب ، ضرورة حياتية ، بالمعنى العميق لهذا اللفظ • ذلك ان الثقافة، كما اوضحناه في حديث سابق • نستمد مصدرها من العمل ، بصفته ملتحما بالطبيعة الانسانية • ان الثقافة فعالية

•) صفحات من كتاب عن مشاكل الثقافات القومية والحضارة الانسانية ، تحت الطبع (القاهرة الانجلو المصرية)

I) انظر Tibor Mend, in journal Le Monde 7-7-1956.

2) انظر Alain Bosquet, Anthologie de la Poésie Américaine, Paris, Stock 1956.

صادرة عن الوعي بالذات ، الوعي الذي يشمل التكوين التقني والاقتصادي والمجتمعي، والسياسي والفكري0ومن هذا المستوى الثقافي الطبيعي، يستطيع الفرد أو الشعب، أن يتخطى المرحلة التي يرتفع منها الى ما هو شامل ، أي التي تجعل منه متحضرا

لقد كان أمانويل مونيي محقا عندما أبرز قيمة الرابطة الاصلية التي تجمع بين الطبيعة والوجود والعمل في الشخص • ذلك أن الشخص لا يستمر ويتقوى ويتفتح ويعبر عن ذاته الا بفضل جهود متجددة يوجه بها ذاته وعالم الاشياء (3) • ولكي نحقق الشمولية ونرتفع الى مستوى الجوهر ، يجب أن نتخلى ، كما قال (هيجل) عن الكائن – لذاته ، أي عن قيمته المباشرة «لكن من هنا يكتسب الجوهر فعاليته» (4) • وهذا هو المستوى السوي للتفتح الواقعي التام للشخص : فبقدر ما يتسع مدى الشخص بقدر ما تتقوى فعاليته وقدراته «ان الشخص يستمر في تثقيف ذاته الى أن يدرك ما هي الثقافة في ذاتها ، وحينئذ فحسب تصبح في الذات وتكتسب بذلك كينونة فعالة» (5) •

* * *

بغية ابادة ثقافات الشعوب المستضعفة وفق منهج منظم ، يمضي المستعمرون ومؤرخوا الاستعمار يعللون ما قامت به ، وما زالت تفعله الامم «الناشرة للحضارة» ، فيعطون تفسيرات أصبحت كلاسيكية ، مثل قولهم :

«الآن وقد حمل الغرب الاهالي فضائل الحضارة فما عليهم الا أن ينتفعوا بها • فان هم لم يستفيدوا فذلك راجع الى طبيعتهم المتوانية المتراخية أليسوا أحرارا في أن يعملوا لبعث ثقافتهم ، ان كانت لديهم ثقافات ؟ لقد منحوا المساواة المدنية والسياسية بالبيض ، ولكنهم لا يعرفون كيف يستغلونها انهم مفطورون على ذلك ولا احد يستطيع ان يغير من طبيعتهم» •

يالها من سفسطة . ..

جميع ذي النوايا الحسنة يدركون لا معقولية النظرية القائلة بوجود طبيعتين متباينتين ، طبيعة «البيض» المتحضرين والمسؤولين عن الرسالة الحضارية ، وطبيعة بقية أجزاء البشرية التي لا تنتمي الى الغرب ، ولذلك فهي ليست «متحضرة» (6) • ولم تؤد قط رسالة حضارية ، وليست لها قابلية للتحضر، كل هذا مجرد مغالطات وسفسطة يدحضها التاريخ ويكافحها الواقع : لا وجود لاختلاف نوعي بين شعوب لها جوهر بدائي ، وأخرى لها جوهر قابل للتطور •

لقد برهن (رومانيس) على بهتان تلك الدعاءات بصفة غير مباشرة ، في نهاية القرن الماضي عندما نشر كتابه «التطور الذهني عند الانسان» (7) يأتي المؤلف بمثال على التواصل المتبادل ، مستندا الى التجربة التي أجراها (ماليري) في الولايات المتحدة وقوام هذه التجربة أن مقابلة نظمت ، في 6 مارس 1880 بين اناس صم بكم من الجنس الابيض

---

3) انظر **J.M. Domenach, in esprit, N° 2. 1956 P. 70.**

4) انظر **La Phénoménologie de l'esprit I, II, Paris Aubier P. 53**

5) نفس المصدر ص 5

6) انظر **John Dewey, Freedan and culture (New-York Putman's sons)**

7) انظر **(7) Romanes, l'évolution mentale chez l'homme TRA. gr, H de Volgny, Paris Alcau 1891.**

غير متعلمين وبين فئة من الهنود الحمر، فاستطاع الصنفان من الاشخاص أن يتفاهموا عن طريق لغة الاشارة ، لان الاساس البشرى الخام متشابه (8) . فمثلا «عندما لامست اليد اليمنى اليد اليسرى كان معنى ذلك «لاشيء» وعندما عانقت اليد اليمنى اليسرى ، واستقرت الاصابع فوق ظهر اليدين ، كانت دلالة هذه الاشارة «الصداقة» . وقد استطاع الصم البكم أن يفهموا ذلك ، وأن يفهموا أيضا الاشارة التى ترمز الى حلب البقرة وشرب اللبن (ص 113 من نفس الكتاب)

اذن ليست هناك سوى طبيعة انسانية واحدة أما الاختلافات فمنشؤها أوضاع الحياة التى تتغير من مجتمع لآخر .

«المساواة»التى يدعى البعض أنها منحت لـ «الاهالى» فى الاقطار المحتلة (سياسيا أو اقتصديا ...) لا تعدو أن تكون بندا شكليا محضا مسطرا فى القانون العام . ذلك أنه لا تعطى للمستعمرين سوى حريات ثانوية باستثناء أفراد قليلين يحصلون على هذه الامتيازات ، لكن فى شكل مساومة : يمنحون بعض «الحريات» أو الامتيازات ، على حساب مواطنيهم «الاهليين» وعلى شرط أن يصيروا «متعاونين» أى سدنة لهيكل الاستعمار .

*
* *

يضاف الى هذا القيد فى الكم ، قيد آخر يفرض على نوع الحريات الممنوحة ، فغالبا ما تكون هذه الحريات مرتبطة بفكرلوجيا مركزة على نظام «الاقتصاد الحر» الذى لا يكفل للمستعمرين حق الثقافة ، وانما يضمن لهم فحسب حرية نسبية تخولهم أن يصبحوا عمالا متخصصين

صحيح أن نوعية الاقتصاد ، فى النظام الاستعمارى ، تسمح أحيانا للسكان الاصليين أن يتعاقدوا مع من يشاؤون ، وأن يتمتعوا بحقهم فى المساواة مع الجميع ، الا أن هذا النظام يغفل دراسة ما اذا كانت الاوضاع الحقيقية تفسح المجال للجميع ، أم أن القوانين هى مجرد ضمانات وضعت لكى يظل الاقوياء أقويا. يمتلكون الموارد المادية الاولى والثقافية التى تتأسس عليها قواهم ويبقى المستضعفون «أحرارا» أمام جهلهم وضعفهم ...

انه نظام تسابق بين اناس قواتهم غير متساوية على الاطلاق ، نظام مباراة بين خرفان حرة ، وذئاب حرة ، فى نفس الحلبة ! وهى نتيجة مرة لنظام الاقتصاد الحر ، تتمسك بها حتى الدول المترفهة. فأولئك المنسيون فى الولايات المتحدة سواء منهم البيض او السود ، وسواء الصفر أو الحمر (والذين لا يقل عددهم عن ثلث مجموع السكان !) يمثلون المهجورين المنفيين فى أرض

(8) Garrick Mallery Sing, langage among the North Américan Indiaos, Firt Annual Report of the Bureau of Ethnology, Washington, 1881.

9) انظر كتابنا «أحرية أم تحرر ؟ » الفصل المتعلق بالعندية والملكية

النعم ، وكأنهم بمثابة نفايات لفظها المجتمع ، الا أنه، كلما أتيحت الفرص للبعض من المستعمرين المتخلفين ، البدائيين ، حصلوا على نفس النتائج التى يحصل عليها الآخرون ، وأحيانا يتفوقون على المتمدنين ، المستعمرين ، الممرنين • فكما يلاحظ (اليبر ميمى) فى كتابه «الصور الذاتية للمستعمر» • (IO) ان : المستعمرين الذين ينجحون يكونون «عادة متفوقين على الاوروبيين من نفس الدرجة ، ويستحقون ما نالوه عن جدارة» (II) •

تلك بعض مغامرات «التآمر» على الثقافات «الاهلية» فاذا تجاوز الباحث المظهر الى المكنون ، ماذا يجد ؟

* *
*

ذلك ما سنحاول الاجابة عليه فى العدد المقبل

---

(10) A. Memmi, Portrait du colonisé.

II) يمكن الرجوع أيضا الى قصة لنفس الكاتب بعنوان : La Statue de Sel



فلسفة ابن خلدون الواقعية

ابن عمار الصغير

ان الدراسة العلمية تقتضي النزاهة والابتعاد عن العاطفة التي قد تشوه الحقائق وتسبغها بنوع من الانحياز. وان المفكر الحقيقي هو الذى لا يظهر الجانب الايجابي من ظاهرة معينة او عامل معين ، بل في مقابل ذلك عليه ان لا ينسى الجوانب السلبية التي قد توجد في الظاهرة ، وذلك ليعطيها صورة امينة وحقيقية واضحة ، ان الابتعاد ونسيان الجوانب السلبية في الظاهرة يجعل البحث فيها يتسم بنقصان وعدم كمال ـ وليس هذا من قبيل التفكير الحر السليم ـ حقا ان الحقيقة تصبح محرجة في بعض الاحيان وخاصة اذا كانت هذه الحقيقة تتعلق بالدارس او عقيدته أو شعبه وبني جنسه ، ها هنا تظهر قيمة المفكر اذا استطاع ان يطفو على مجتمعه ويتعدى العاطفة ، ويزيح الحجاب عن كل نقيصة ـ ان وجدت ـ وعن كل الكمال.

اللاعرقية
أو مفهوم كلمة "عرب"
عند ابن خلدون

ونظرة تأمل الى تاريخ التفكير البشرى فى هذا الصدد تبين لنا بأن المفكرين أو الفلاسفة كانوا دائماً ينحازون الى بنى جنسهم . فأفلاطون لا يرى شعبا متمدنا خارج الشعب اليونانى. والفيلسوف الحاكم ـ مارك أوريل ـ الرومانى لا يرى شعبا متمدنا منظما خارج روما وأثينا . «وتوسيديد يبرز لنا قوة اسبارطا. والشعوبيون يظهرون قوة المسلمين من غير فضل العرب . أما هيجل فلا يرى تاريخا ولا سياسة خارج أوربا وعند الجرمان خاصة . واما «ارنست رينان» فيبعد التفكير السليم ، والتحليل والتركيب والربط فى التفكير العلمى عند العرب . فالعربى عنده لا يمكن أن يتعمق فى بحث ما لان ميدانه السطحيات .

ان النظرية العلمية الحديثة أبعدت هذه الخرافات ، وفندت هذا التزوير وذلك بوسائل علمية . واظهرت بان الانسان يساوى الانسان الآخر . وانما النتاج العلمى وليد ظروف جغرافية واقتصادية واجتماعية وتاريخية ـ أى انه لا بد من ايجاد ظروف معينة لكى نتمكن من هذا النتاج ـ ان العبقرية نفسها ليست خاصة بجنس معين وان لكل شعب من الشعوب عباقرة ـ وان طمسوا ـ فالعبقرى اذا قدر له أن يعيش ظروفا غير الظروف التى أنتجته لما استطاع أن يبلغ المستوى الذى بلغه ، «فبتهوفن» ـ مثلا ـ لو وجد فى منطقة جغرافية قاحلة كوسط افريقيا لما أنتج ما أنتجه فى ميدان الموسيقى ولما خلد اسمه بين كبار الموسيقيين ، ولكنه عاش ضمن ظروف مكنته من الوصول الى ما هو عليه ، فتوفرت لديه كل الوسائل التى تمهد له الطريق للخلق والابداع ـ أى لا بد للمجتمع أن يقدم رصيدا من الثقافة لهذا المواطن او هذا المفكر ـ واما ان يخلق عبقرى فى صحراء قاحلة أو فى غابة بعيدا عن الحضارة والثقافة فهذا ما لم يقدمه لنا التاريخ ولو مرة واحدة . واذا كان هناك من الباحثين من يلقب ابن خلدون بالفيلسوف ـ وهو نفسه يفند الفلسفة فانما فلسفته وتفكيره هو تفكير واقعى وليس عرقيا ، أى أن تفكيره علمى موضوعى .

ان ابن خلدون أدلى ببعض الآراء فيما يخص كلمة ـ عرب ـ فأثارت ضجة فى الاوساط العربية فى أيامنا هذه اذ رأوا فيه عدوا لدودا لما يسمى

اليوم بالقومية العربية • كما ان هذه الآراء استغلت من طرف بعض الغربيين الذين يخفون حقدا وكراهية للعرب فوجدوا الفرصة سانحة اذ يقدمها لهم عربى قدير ومفكر محترم •

يبدو ان اول ضجة أثيرت فى هذا الصدد كانت فى العراق اذ رأوا بأن ابن خلدون عدو للعرب ومن الكافرين بالعروبة ولذلك يجب حرق كتبه نبش قبره وذلك باسم العروبة ــ I ــ

ثم قامت حملة أخرى ضد ابن خلدون فى مصر وكان منظمها الاول الدكتور طه حسين الذى غير الاتجاه وحاول أن يجد عاملا آخر وهو التشكك فى نسبه العربى ولعل هذا التشكك يكون حلقة من سلسلة تشككاته المتعددة فى الادب الجاهلى، والعربى • ويرى الدكتور بأن الكره الذى يكنه ابن خلدون للعرب راجع الى بربريته ــ 2 ــ ثم ياخذ بهذا الرأى مرة أخرى عبد الله عنان ــ 3 ــ ويقرر بأن حديث ابن خلدون عن العرب طريف رغم ما يطبعه من شدة وتحامل•فالعرب فى نظره امة وحشية تقوم فتوحاتهم على النهب ولا يتغلبون الا على البسائط ، ولا يقومون على اقتحام الجبال والهضاب لصعوبتها،واذا تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب (ص II2 من كتابه ابن خلدون وتراثه الفكرى) ثم يبين لنا الاسباب والدواعى التى جعلت ابن خلدون يحكم هذا الحكم القاسى فيقول : قد نفهم سر هذا التحامل الذى يطلق رأى ابن خلدون فى العرب بمثل هذه الشدة اذا ذكرنا رغم انتسابه الى أصل عربى بأنه ينتمى فى الواقع الى ذلك الشعب البربرى الذى افتتح العرب بلاده بعد مقاومة عنيفة وفرضوا عليهم دينهم ولغتهم واضطروا بعد طول النضال والمقاومة والانتقاض أن يندمج أخيرا فى الكتلة الاسلامية وان يخضع راغما لرئاسة العرب فى افريقيا واسبانيا حتى تحين الفرصة لتحرره ونهوضه "

والخصومة بين العرب والبربر فى افريقيا واسبانيا شهيرة فى التاريخ الاسلامى ، وقد ورث البربر بغض العرب من بعيد ، ونشأ ابن خلدون وترعرع فى هذا المجتمع البربرى يضطرم بمشاعره وتقاليده وذكرياته • ونشأت فيه أسرته قبل ذلك بمائة عام ونعمت برعاية الموحدين البرابرة وتقلبت فى نعيمه فليس غريبا بعد ذلك أن نسمع منه أشد الاحكام وأقساها ع لى العرب (ص II3 ــ II4 من نفس المصدر) • ويبين الاستاذ عنان بأن ابن خلدون لسان حال البرابرة ولهذا السبب فان ابن خلدون ينطق هنا بلسان الوطن البربرى الذىغزاه العرب وأثخنوا فيه مدىأحقاب وبسطوا عليه سلطانهم الدينى والسياسى • ولبث عصورا يقاتل فى سبيل حرياته واستقلاله (ص II4 من نفس المصدر) • ان الاستاذ عنان يظهر لنا مغزاه الحقيقى ــ حسب رأيه ــ والانتقادات التى وجهها لابن خلدون انما هى انتقادات مبنية على مفاهيم عرقية أى هناك عرق عربى مداس وداسه بربرى• ومن ذلك فان هجوم الاستاذ عنان موجه للبربر وعلى رأسهم ابن خلدون • ويبين لنا مرة أخرى الاستاذ عنان انحياز ابن خلدون للبربر حين يفرغ فصلا خاصا للحديث عن خلال البربر • ولم يعقد فصلا للتحدث عن خلال أية أمة من الامم الاخرى (فهو هنا ينم عن هواء خاص ونعرة بربرية واضحة ومن ذلك ما يفسر لنا صرامته من الحملة على العرب غزاة افريقيا المتغلبين عليها • • • • ص II4 من نفس المصدر) وأحمد أمين نفسه وقع فى هذه الازمة غير انه يختلف عن الآخرين ورأى بأن ابن خلدون وقع فى تناقض وذلك لانه لم يحدد مفهوم كلمة «عرب» (فى كتابه ظهر الاسلام ص 293 ــ 294) وتحاشى أن يظهر ابن خلدون بمظهر المتعصب الناقد الحاقد على العرب• ويرى «غوتيه» فى كتابه ماضى شمال افريقيا حين يذكر قول ابن خلدون ليعزز آراءه الهدامة :

(ان ابن خلدون مولع باستطلاع الامور فما اغرب هذه الخصلة الغريبة من امرىء مسلم ـ ص 101) ويضيف **(هل نفرض إن ريحا من رياح نهضتنا الغربية قد هبت عبر الاندلس حتى نزلت على روح ابن خلدون الشرقية ـ ص 96) اى ان ابن خلدون ككل العرب لا يمكن «لطبيعته» ان يفكر تفكيرا موضوعيا سليما ٠**

هذا سرد لأهم الآراء التى قيلت فى هذا الصدد عن ابن خلدون وقبل أن نرد عليها علينا أن نعود الى آراء ابن خلدون نفسها ٠ ونتساءل : ما موقف ابن خلدون من كل ذلك ؟ وهل حقا يظهر كراهية للعرب وهو العربى النسب وهل فضل البرابر على العرب ؟

فلنسرد آراءه التى أدلى بها فى ما يخص كلمة عرب ولنتابع مفاهيمها ، وفى أى نطاق ذكرت ليتضح لنا مفهومها الحقيقى ٠

فى الباب الثانى من المقدمة نجده يعقد أربعة فصول (25 ـ 26 ـ 27 ـ 28 ـ اى من صفحة 260 ـ 269) لدراسة هذه الكلمة وهى : **فى ان العرب لا يتغلبون الا على البسائط٠وفصل فى ان العرب اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب٠ وفصل فى ان العرب لا يحصل لهم الملك الا بصبغة دينية من نبوة او ولاية او اثر عظيم ٠ وفصل فى ان العرب أبعد الامم عن سياسة الملك٠** ثم يعود ابن خلدون فى الباب الخامس من المقدمة ويعقد فصلا وهو (الحادى والعشرون) ليتكلم مرة ثانية على العرب بقوله : **فى ان العرب أبعد الناس عن الصنائع ٠**

هذه هى الفصول التى يقرر فيها حكمه ٠ وقد ذكر فى مقدمته وفى تاريخه كلمة «عرب» فى مواطن ومعانى مختلفة ٥ والسؤال الهام الذى نطرحه هنا هو : ما هى الادلة التى استند عليها ابن خلدون فى اطلاق هذه الاحكام العارية من كل مجاملة ؟ وما هى التعليلات التى يوردها لبيان أسباب هذا النوع من الطبائع والاخلاق ؟

ان ابن خلدون بعيد جدا عن الحديث العاطفى لانه لا يدلى بحكم الا ويعلله بعلل جغرافية واقتصادية وتاريخية ٠

اننا نجد ابن خلدون وكأنه يقول : ان كل شعب أو مجتمع احيطت به مثل هذه الظروف ، أو كانت حالته على هذا المنوال الا وكانت طباعه على مثل ما كان عليه العرب ٠ ان ابن خلدون جعل من كلمة عرب معنى ومرحلة من مراحل الاجتماع البشرى أى البداوة والتوحش ـ والتوحش هنا لا يعنى معنى اخلاقيا وانما حالة طبيعية أى لا دخل لحكم القيمة فى ذلك ـ وهى المرحلة الاولى لتكوين المجتمعات وسيرها فى طريق الحضارة ٠ وان أصل الحضارة نفسها انما هى البداوة ٠ ففى هذه المرحلة التى عليها العرب تنسب لهم كل النقائص التى تنسب الى مرحلة بدائية بالنسبة الى مرحلة أكمل منها ٠ انه لم يتحدث عن العرب بوصفهم جنسا من اجناس البشر ـ وان هذه هى خاصته وسيبقى كذلك كما يدعى بعض المتعصبين الغربيين ـ ولكنهم بوصفهم سكان منطقة جغرافية معينة ، وحالة اجتماعية واقتصادية وسياسية معينة ، سواء كان سكانها جنسا من العرب أو من الترك أو من الصقالبة ٠ انه يستعمل كلمة «عرب» كأنها مرادفة لمعنى من المعانى الاجتماعية ، وليست اسما لجنس من أجناس البشر ، وهو نفسه يوضح ذلك بقوله : «ومن كان فى معناه» ٠

ولنعد الى النصوص ونتأمل ما قاله فى هذا الصدد ، ونتتبع تعليلاته لنتبين هل كانت دراسته مبنية على عاطفة أم هو حكم نتيجة لبحث علمى دقيق ٠

يقول ابن خلدون في الفصل الحادى عشر ان العرب لا يتغلبون الا على البسائط ، وذلك لانهم بطبيعة التوحش الذى فيهم أهل انتهاب وعيث ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ، ويفرون الى منتجعهم بالقفر (4) .

ان هذا الوصف وصف حقيقي لحالة طبيعة التوحش – التسلط على أسهل الاشياء وأخذ ما أمكن أخذه – وهذه الاغارات معروفة في كتب التاريخ أى هناك قبيلة تغير على أخرى وان الاغارات كانت تأخذ أسهل هدف لان الضحية لا بد أن تكون سهلة الوصول وأوهن قوة من القبيلة المغيرة لكى يتمكن من مغالبتها وارضاخها ويقول ابن خلدون في نفس الفصل (فكل معقل أو مستعصب عليها فهم تاركوه الى ما يسهل عنه ولا يعرضون له ... واما البسائط متى اقتدروا عليها لفقدان الحامية وضعف الدولة فهى نهب لهم وطعمة لآكلهم) .

أما اذا انتقلنا الى فصل آخر ، ولعله الفصل الذى أثار الحمية العرقية عند الناقدين العرب هو الفصل الذى يقول فيه (ان العرب اذا تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب) واما البرهنة التى يقدمها على هذا الحكم فهى : ان السبب فى ذلك انهم أمة وحشية ، وباستحكام التوحش واسبابه فيهم صار لهم خلقا وجبلة ، وكان عندهم الفا لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة . هذا الحكم هو وصف للحالة الطبيعية للتوحش ، المقابل للتجمع أو التمدن . وهذا الوصف فى الحقيقة ليس خاصا بالعرب ، وانما يمكن أن يطبق على كل الشعوب فى هذه الحالة أو فى هذا الطور . والتوحش حالة طبيعية يعيشها الكائن الحى انسانا كان أو حيوانا عيشة منفردة ومنعزلة وبعيدة عن العمران والتنظيم . ان هذا الكائن الحى الذى تعرض لشظف العيش، والجفاف والرمال لا بد أن تكون طباعه على هذه الحالة ، وذلك لعدم توفر انظمة تقهره وتوقفه عند حده . ويضيف ابن خلدون فى نفس الفصل شرحا وتعليما (فغاية العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب وذلك مناقض للسكون الذى به العمران ومناف له) ، أى ان السر هنا فى الترحال وعدم الاستقرار اذ ان المدنية تتبع حتما السكون أما الترحال فغايته مؤقتة ، يأخذ ما قدر عليه ، ويستغل الثمين والخسيس لحل أزمة مؤقتة .

ويعقد فصلا آخر – وهو الفصل الحادى والعشرون من الباب الخامس (ص720) – للحديث مرة أخرى عن العرب ويرى بأنهم ابعد الناس عن الصنائع . **انه لا يعلل ذلك بقلة الذكاء او تاخرهم العقل كما يفعل «رينان» وانما يعلل ذلك بأسباب منها : انهم أعرق فى البدو ، وابعد عن العمران الحضرى وما يدعو اليه من الصنائع – أى انهم فى مرحلة أقل من مرحلة الصنائع – وهى مرحلة البداوة – ولكى تتبين لنا فكرته – اللاعرقية – اكثر فهو يعطى امثلة لأجناس أخرى فى نفس الفصل (وعجم المغرب من البربر مثل العرب فى ذلك لرسوخهم فى البداوة منذ احقاب من السنين) واذا قال بانهم ابعد الناس عن العلوم علل ذلك بان العلوم محتاجة الى التعليم وهو مندرج فى جملة الصنائع . والصنائع لا تكون الا فى المدن أى فى مرحلة الاستقرار ونشوء الحضارة**

ثم ننتقل بعد ان ذكرنا الاغارات ونتائجها التى هى من صفات التوحش ومن المتطلبات الاقتصادية – أى المعاشية – وفقدان الصنائع والعلوم فى هذه المرحلة لنفس الاسباب ، لنصل الى مرتبة تاسيس الملك . فكيف يكون ؟ أو ما هى الاسباب التى تمكن العرب من تكوين الملك وتسييره ؟ ان ابن خلدون يرى بأن العرب لا يحصل الملك لها الا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم

من الدين عن الجملة • فبما ذا يعلل ذلك ؟ يرى ابن خلدون ان السبب في ذلك انهم لخلق التوحش الذى فيهم أصعب أمة انقيادا بعضهم لبعض ، للغلظة والانفة وبعد الهمة والمنافسة في الرئاسة• فقل ما تجتمع أهواؤهم • فاذا كان الدين بالنبوة او بالولاية كان الوازع لهم من انفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والانفة الوازع عن التحاسد والتنافس•• أى ان الدين عنصر لتغييرهم من حالة التوحش والانعزال الى حالة قابلة للاجتماع والتمدن •

ولنا أن نتساءل أخيرا هل ذكر ابن خلدون نقائص العرب فقط أم ذكر فضائلهم مقابل ذلك ؟ ــ وهى الفضائل الموجودة عندهم وفى حالة التوحش ــ وذلك ليتبين لنا اذا كان منصفا أم متحيزا ، اذا كان يحكم احكاما عقلية أ م عاطفية ؟

اننا نجد ابن خلدون يقرر فى الفصل نفسه الذى يتكلم فيه عن النقائص فى حالة التوحش يبين كذلك الجانب الايجابى فيها (وهم مع ذلك أسرع الناس قبولا للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الاخلاق الا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة المتهىء لقبول الخير •••) ــ 5 ــ

نجد ابن خلدون فى هذه الفترة يلتقى مع «روسو» الذى يرى : بان الحالة الوحشية هى الحالة الطبيعية والمرحلة الاولى للانسانية •

هذه هى الآراء التى أدلى بها ابن خلدون والتى أدت الى كثير من الفهم الخاطىء ، لقد درس ابن خلدون وضعية اجتماعية دراسة موضوعية ، ووصف مرحلة من مراحل البشرية فى حالة تجمعها وذكر الحقائق التى تتسم بها هذه الظاهرة من نقائص وفضائل • ان ابن خلدون أبعد الناس عن التعصب والتحزب وكيف يكون كذلك وقد أدلى برأيه فى التاريخ اذ يرى بأن التحزب والتشيع مفسد لرواية الاخبار وصحتها ، ومفسد للعلم نفسه •

أما اقتصاره على دراسة المغرب • وهذا رد على الاستاذ عبد الله عنان ــ فهذا ما يخبرنا عنه ابن خلدون نفسه موضحا ذلك (وانا ذاكر فى كتابى هذا ما أمكننى منه فى هذا القطر المغربى اما صريحا ومندرجا فى اخباره وتنميحا **لاختصاص قصدى** من التأليف بالمغرب وأحوال اجياله وأممه وذكر ممالكه ودوله دون ما سواه من الاقطار) لماذا ؟ **(لعدم اطلاع على احوال المشرق وامِمه واما الاخبار المتناقلة لا توفى كنه ما اريده منه فالمسعودى انما استوفى ذلك ابعد رحلته•••)** هنا تظهر لنا طريقته العلمية لا التعصبية أو التشيعية وهى قيمة المشاهدة وتقلبه فى البلاد• وهذا مايسميه علماء الاجتماع بالممارسة والمشاركة كما ذكر فى كتابه مع أنه لما ذكر المغرب قصد فى استيفاء أحواله • ــ 6 ــ

ان هذا اللفظ الصريح ليس تعصبا للبربر ، ولا تعصبا على العربَ وانما النزاهة العلمية تقتضى ذلك ، وابن خلدون الذى نقد اسلافه كيف يمكنه أن يرتد عن رايه الاول وان يخالف ما اوصى به ، ولذا نجده يتحاشى الكلام عن ظاهرة يجهلها ، أو عن اخبار لم تمكنه الظروف من تصحيحها وتمحيصها واما ذكره للمغرب فلانه شاهد تقلباته واحواله وفهم بذلك كل ما يدور به من بنيات اقتصادية واجتماعية وسياسية •

ان دراسته للعرب انما هى دراسة وتحليل اجتماعى لمرحلة من مراحل التجمع البشرى ••انه وصف وتعليل لكل النشاطات والسلوكات واظهار للعلل • وبذلك نعد دراسته دراسة علمية موضوعية لا دخل للحكم الاخلاقى او العاطفى فيها•

[2] ان كلمة عرب تعنى معنى لمجتمع فى الحالة الطبيعية المتوحشة • ونجد ابن خلدون فى هذا الصدد يقدم صورة حية للحياة المجتمعية فى جميع ابعادها • انه يصفها من الداخل حين يكلمنا عن حياتهم الاقتصادية والنفسية والعلاقات الاجتماعية كل ذلك وهو مجترد من الذاتية. ونجده فى دراسته يراعى العامل الحركى لان المجتمع فى تحرك دائم وهذا ما يذكرنا بموقف المدرسة الاجتماعية المعاصرة المختصة بالمجتمعات البدائية ويمثلها – ليفى برول – ومن ذلك يبدو لنا جليا بان كل مجتمع لا يكتفى بما اجتمعت له من وسائل المعاش دون أن يمتد بصره الى ما وراء ذلك من امكانيات حضارية أخرى • وقد مرت الشعوب حتى فى بدايتها أن تتصور عوالم أخرى خارج عالمها الضيق فى صور شديدة الاختلاف ، فهى أحيانا مبالغة فى القدرة والقوة والمهارة وهى أحيانا امعان فى الضعف والتخلف والتاخر • وهذا ما يبين لنا بأن الانسان يدرك دائما ان هناك انماطا معاشية أخرى ممكنة ، وهذه التحركات والاغارات من الوسائل المغيرة لنمط الحياة البدوية ، أو حياة الترحال •

واما الدرس الذى يمكن أن نستخلص من هذه الفصول فهو ان ابن خلدون وصف حالة اجتماعية فى طور من اطوارها • ان هذه الدراسة الموضوعية ستعيننا على تفهم المجتمع البدوى فى هذه البلاد فى ايامنا هذه على الرغم من تعاقب الاجيال فان الحالة الاجتماعية فى هذا العصر مضاهية فى كثير من الاوجه للحالة الاجتماعية فى عصر ابن خلدون • وان الحركية – أو الصراع – ما زال قائما بين طبقتين : البدوية والحضرية •

مراجع خاصة :

1 – الاستاذ ساطع الحصرى يورد الرد على هذه الآراء فى كتابه : دراسات فى مقدمة ابن خلدون ••ويدافع عن ابن خلدون ليثبت عروبته غير اننا نتفق معه فى بعض آراء اخرى اذ غايتنا ليست اثبات عروبته وانما تتبع طريقته العلمية •

2 – الدكتور طه حسين : دراسة نقدية وتحليلية للفلسفة الاجتماعية عند ابن خلدون

3 – عبد الله عنان : ابن خلدون حياته وتراثه الفكرى

4 – المقدمة (ط لبنان دار الكتاب ص 262)

5 – المقدمة (ط لبنان دار الكتاب ص 266)

6 – المقدمة (ط لبنان دار الكتاب ص 530 – 540)

الأندلس

تاريخ اسم وتطوره

د. الطاهر
أحمد مكى

مع اول جماعة من المسلمين وطئت اقدامها الشاطىء الجنوبي من مضيق جبل طارق ، تهيأ التاريخ لمرحلة اخرى فى سيره: افريقية تفتح اوربا،وفى جانب منها لاتينى وكاثوليكى ، يستقر الاسلام ، وتعلو كلمة الله ، وتتخذ العربية لسانا ، وعلى سطح الجزيرة الايبرية تتعايش اجناس من البشر واللغات والعقائد ، ويظل الاسلام بيسره وسماحته ومساواته الناس جميعا .

لم يعد الملوك مردة جبارين ، متعتهم القهر ، وميسمهم الاذلال ، ولم يعد المستعبدون في الارض رقيقا، يصنعون الرفاهية دون أن يشاركوا فيها ، ويصوغون الحياة دون أن يأخذوا بحظ منها ، وأقام دون الامس ، وما هو غير صالح من عاداته وتقاليده ونظمه ، حجبا كثافا وأستارا صفاقا ، ليواجه المجتمع الجديد مستقبلا أكثر تفاؤلا ، وأخف أثقالا • وكان من بين الجديد الذي جاء به ، اسم جديد لشبه الجزيرة لم تعرفه من قبل ، وما زال حتى أيامنا هذه يثير من حين لآخر شيئا من الفضول العلمي ، لاستكناه أصله والتوصل الى مصدر اشتقاقه ، ورغم كل ما كتب عنه ، وبخاصة في دراسات المستشرقين ، فان تفسيرنا له ، مجرد ظن مصدره التبصر ، وليس حقيقة تقطع بها الوثائق ، وتدعمها الشواهد ، ونجد لها بين مصادر التاريخ دليلا •

كان المسلمون الفاتحون أول من أطلق اسم الاندلس على هذا الجانب من الارض ، اما قبل ذلك فعرفت اسمين مختلفين : اطلق عليها الاغريق لفظ ايبيريا IBERIA الى جانب أسماء أخرى ذات طابع اقليمي • وهو اسم كان في البدء يعني شواطىء شبه الجزيرة التي تطل على البحر الابيض المتوسط ، الجنوبية والشرقية ، ثم توسع في استعمالها حتى شمل شبه الجزيرة كلها ، ونجد اللفظ مستخدما لاول مرة في مؤلفات HECARTEE DE MILET وهو اغريقي ، مؤرخ وجغرافي، عاش في القرن السادس قبل الميلاد • وهي حقيقة لم يغفل عنها الجغرافيون العرب القدامى ، يقول الحميرى ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن عبد المنعم ، المتوفى عام 866 هـ ، في كتابه «**الروض المعطار في خبر الاقطار**» (ص 2 طبعة القاهرة 1927) ، وهو يتحدث عن الاندلس ، **وقيل** اسمها في القديم ابارية • IBIRIA.

والاسم الثاني ، وأطلقه الاغريق أيضا ،أو على الاقل أول ما نعثر عليه نجده في كتاباتهم ، فهو ISPANIA ولو أن أصل الكلمة يجب أن نبحث عنه في لغة قوم هم أقدم من اليونان ، والكاتب BOCHART يرى في كتابه «الجغرافية المقدسة» وصدر في مدريد عام 1712 ، أن الاسم مشتق من الكلمة الفينيقية SPAN بمعنى بلاد الارانب ، لان شبه الجزيرة كان غنيا بهذا النوع من الحيوان • واحدى العملات القديمة التي وصلتنا من عصر ADRIANO تمثل اسبانيا في شكل أم جالسة بين قدميها أرنب ، وهو تفسير يرفضه الباحثون المعاصرون دون أن يقدموا له بديلا • نعم ، هناك من يرى أن الكلمة ربما كانت من أصل سلتي ، وأن أصلها في هذه اللغة هو نفس أصل الكلمة الالمانية SPANN ومعناها قدم ، ولكنه افتراض أبعد عن التصور من افتراض الاصل الفينيقي ، وقد استخدم اليونان شكلا ثانيا للكلمة وهو SPANIA ،وربما كان الكاتب الاغريقي ARTEMADORO هو أول من استخدمها •

أما الرومان فقد استخدموا الكلمة اليونانية ISPANIA بعد أن زادوا عليها حرف H في البدء فأصبحت HISPANIA وأول من استخدمها مكتوبة بهذا الشكل الشاعر الروماني TITO LIVIO وعاش من 59 ق م الى 17 ق م ، واستخدام الشاعر لها ، يعني أنها كانت معروفة بين الناس قبل هذا التاريخ ، وقد استخدموا اللفظة الاخرى SPANIA استخداما قليلا ، ومن هذه الاخيرة اشتقت لفظة اسبانيا ESPANA الحديثة • ويشير الحميرى أيضا الى هذه الحقيقة فيقول ان «اسم الاندلس في اللغة اليونانية **اشبانيا**» •

أما كلمة هيبيريا HESPERIA ، وترد أحيانا في بعض المصادر الاغريقية مراد بها شبه الجزيرة نفسها ، فانها ليست مختصة باسبانيا ، وانما

تعنى ، فى اللغة الشاعرية ، كل الاراضى التى تقع غربا على شاطىء البحر الابيض المتوسط .

لم يعرف العرب قبل الفتح كلمة الانـدلس وبتعبير يافوت ، فى معجم البلدان : «**هى كلمة اعجمية لم تستعملها العرب فى القديم، وانما عرفتها العرب فى الاسلام**» ، وباستثناء الاشارات العارضة والنادرة الواردة فى كتب الرحالة والمؤرخين والجغرافيين الاندلسيين ، فان المصادر العربية لا تعرف أيضا كلمة «أسبانيا» ، ولا تتحدث **عنها** . والمؤلفون العرب عدا قلة يقولون «**بلاد الاندلس**» فمن أين أخذ العرب هذا الاسم ؟ .

* * *

كان المستشرق الهلندى **رينهارت دوزى** R. DOZY المتوفى عام 1883 ، أول من طرح مشكلة الاسم ، وحاول أن يجد لها تفسيرا علميا ، وهو نفس التفسير الذى قبله سيبولد C. F. SEYBOLD محرر مادة أندلس فى دائرة المعارف الاسلامية وتوسع فيه شيئا كلاهما يرى انه مشتق من كلمة WANDALUCIA ، وهى صيغة ربما أطلقت على أقليم باطقة BETICA الذى احتله الوندال قريبا من عشرين سنة . من 411 م الى 429 ويشمل منطقة واسعة فى الجنوب الشرقى لشبه الجزيرة ، يخترقها نهر الوادى الكبير . وربما أطلق أيضا على ثغر TRADUCTA الذى عبر منه الوندال فى طريقهم الى أفريقيا . ويظن ان موقعه هو ما يطلق عليه حاليا الجزيرة الخضراء ALJECIRAS . بينما تشير الروايات العربية الى أن موقعة هو نفس المكان الذى حط فيه طريف رحاله مستطلعا ، والذى حمل اسمه الى الابد ، فعرف باسم جزيرة TARIFA ، غير أن تحديد الموضع بالدقة ، هل هو مدينة الجزيرة الخضراء ، أو جزيرة طريف ، أو الصخرة التى حملت اسم طارق بن زياد ، ما زال موضع خلاف وهو خلاف لا تترتب عليه أية نتائج عملية ، لان المواضع الثلاثة تكاد تكون متصلة .

ووفقا لهذه النظرية ، فان الفاتحين المسلمين من العرب والبربر ، أطلقوا اسم الاقليم او المدينة ، التى هبطوا فيها لاول مرة على شبه الجزيرة كلها ، بل وعلى ما دان لهم من ولايات فى جنوب فرنسا ،مثل سبتمانيا SEPTIMANIE **ونربون** NARBONNE .

هذا التدرج فى التسمية تدعمه رواية للحميرى يقول فيها : ان شبه الجزيرة فى القديم كان يسمى أيبيريا ، ثم سميت بعد ذلك باطقة BETICA ، ثم سميت اشبانيا ، اسم رجل ملكها فى القديم ، أو الاشبان الذين ملكوها فى الاول من الزمان ، ثم أطلق عليها الانـدلس ، أخذا من اسم الاندليش الذين سكنوها . . لكن الرواية العربية، وهى بازاء تسمية غامضة تحاول أن تجد لها تفسيرا ، لا تقف عند التاريخ الخالص وحده وانما تضرب فى بيداء الاسطورة على غير هدى ، والحق أن أكثر ما نجد ذلك فى كتب التاريخ ، وأقل ما نجده عند الجغرافيين .

فهى سميت بالاندلس ، لان أول من سكنها الاندلس **بن طوبال بن يافث بن نوح ، أو الاندلس بن يافث مباشرة دون عبور بطوبال** . ولتتعادل الحكاية ، وتجد لها من قلوب الناس مكانا ، وان لم يكن لها من عقول المفكرين نصيب . فان سبت بن يافث ، أخو الاندلس بن يافث ، عبر المضيق ونزل بالعدوة بالمقابلة للاندلس ، وحط رحاله فى مكان نسب اليه ، وحملت المدينة التى نزلها اسمه ، فكانت مدينة سبتة CEUTA ، وما تزال قائمة عامرة حتى أيامنا هذه .

وتضطرب الاسطورة فتجعل اسم الانـدلس سابقا لاسم اسبانيا ، وتجعل من الاخير اسم

لملك اجتاح الاندلس وملكها وعمرها ، اسمه اشبان بن طيطش ، ولا يجد القاص معنى لكلمة اشبانيا ، فيوشيها بشيء من التوابل ، تجعلها ذات نكهة ومذاق ، فيضيف اليها : وذكر بعضهم أن إسمه اصبهان ، لان مولده كان بها ، وانه استحال في لسان العجم فاصبح اشبان • وهو استنتاج ذكي تدعمه قوانين اللغات، فالهاء حرف غير منطوق في اللغات اللاتينية ، والسين والشين والصاد من مخرج متقارب ، ويحل أحدهما مكان الآخر ، ولما كانت اللاتينية ، وبالتالي الاصبانية لا تعرف حرفا لصوت الصاد ، فهي تستعيض عنه عند نقل كلمة اجنبية اليها تضم ذلك الصوت ، باقرب الحروف اليه مخرجا ، فكانت السين أو الشين • غير أن هذه الاشارة وان اتسمت بالذكاء يبعدها عن الواقع ، أن التاريخ يقف منها في الجانب المقابل ، ان اسم اسبانيا أقدم بكثير من مجيء اصبهان الى الحياة •

ويمضي **المقري** في نفح الطيب مع الاسطورة الى نهايتها ، ورواية عن ابن حيان في المقتبس ، يزيد فيقول : وذكر رواة العجم أن الخضر عليه السلام وقف على اشبان المذكور وهو يحرث الارض ، فخاطبه ، ودعا له ، وبشره ، في حديث مسجوع مصنوع ، أشبه بسجع الكهان ولئن كان الخضر في عالم الاساطير يتحدث بكل اللغات فلم يقل لنا الراوي بأيها تحدث الى هذا الشيخ اشبان !

ومع اشبان هذا تستطيع أن تمضي لحظات ممتعة عبر خيال خصيب ، فهو أحد الذين ملكوا أقطار الدنيا ، فيما زعموا — والاحتراز من المقري! استوت له الاندلس بأسرها ، ودان له من فيها واتخذ اشبيلية دار مملكته واستغلظ سلطانه في الارض ، وكثرت جموعه فعظم عتوه ، وغزا ايليا ، وهي بيت المقدس الشريف، بعد سنتين من ملكه ، خرج اليها من اشبيلية في السفن ، فغنمها وهدمها ، وقتل فيها من اليهود مائة الف واسترق مائة ألف ، ونقل رخام ايليا وآلاتها الى الاندلس •

لقد أورد **المقري** في الجزء الاول من تاريخه فيضا من هذه الروايات ، وليست كلها صنعة قاص ، وانما فيها تاريخ حقيقي وكثير ، مضطرب نعم ، ومتداخل دون شك ، ولكنه مادة خصبة لفترة تفتقد المؤرخ والتاريخ واشارة المقري ، منسوبة الى ابن حيان ، الى أنه كان ينقل عن رواة العجم ، صحيحة الى حد كبير ، بل ويخيل الى أن المؤرخين الاندلسيين عاشوا على هذه الروايات ، يلتقطونها من أفواه عامة المستعربين في الاندلس، أوالعجم بتعبير ابن حيان، وهي روايات يتناقلونها شفاها ، وهذا التداول الشفوي هو مصدر هذا الخلط والاضطراب • لقد وجد ابن حيان ، شيخ مؤرخي الاندلس دون منازع ، ان هذه الاخبار لا تستقيم مع موازينه في الرواية ولا منهجه في الاداء ، غير أنها سبيله الوحيد الى معرفة شيء عن تاريخ الاندلس القديم ، فأوردها واعتذر لنفسه • والحق أن هذه الاساطير لا تختص بها المؤلفات العربية ، رغم ايهام بعض المستشرقين بذلك ، وانما نجدها في المؤلفات الاسبانية المسيحية التي كتبت باللغة اللاتينية نجدها في «مدونة تاريخ اسبانيا العام» التي أمر ألفونسو العاشر الملقب بالحكيم بكتابتها ، تاليفا في جانب منها ، ونقلا عن العربية في جوانب أخرى ، في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي وفي مؤلفات Rodrigo Jiménez de Roda مطران طليطلة ، وعاش في النصف الاول من القرن الثالث عشر ، وفي مؤلفات أخرى كتبت باللغة اللاتينية خلال هذا القرن أو بعده• وتعكس قصة غزو بيت المقدس وقتل اليهود وأسرهم طابع الصراع العنيف الذي كان قائما بين اليهود والاسبان الكاثوليك في الاندلس ، قبل مجيء المسلمين ، وخلال حكمهم ، وبعد سقوط دولة الاسلام هناك •

مهما يكن من أمر فقد انتشر اسم الاندلس سريعا بعد الفتح الاسلامي، وشاع استخدامه في كتب التاريخ والجغرافية والرحلات والوثائق، ومحا من المدونات

وذواكر الناس كلمة اسبانيا محـــوا تاما ، تحت أية صورة ، وفى البدء ، وكانت دولة الاســـلام تشمل كل شبه الجزيرة الايبيرية تقريبا، وجانبا من جنـوب فـرنسا ، كـان لفظ الاندلس يطلق عليها جميعا • غير أن الامر لم يستمر على هذا النحو طويلا ، فقد انحسر سلطان المسلميـن سريعا عن جنوب فرنسا ، ومنذ القرن العاشر بدأت حركة المقاومة الكاثـوليكيـة تشتـد فى الشمال من الاندلس وتجد من البابا وبقية العالم الكاثوليكى عونا وتشجيعا ، دون أن تأخذ فى أى من أطوارها معنى قويا ، وبدأت الدولة الاسلامية تتآكل شيئا فشيئا ، حتى انحسرت فى القرن الثالث عشر داخل اقليم ضيق ممتد من ساحل جبـل طارق حتى المرية ، ويمتد داخلا حتى سلسلـة جبال رندة وجبال البيرة ، ويرى معظم الباحثين المحدثين ، وجلهم من الاسبان والمستشرقـن أن اسم الاندلس كان مرتبطا بالدولة الاسلامية وحدها ، مهما كان امتدادها ، يتســـع معها ويضيق بانكماشها • ويجد هـذا الرأى سنده فى آن المدونات الاسلامية درجت على أن تطلق على الدويلات المسيحية المختلفة التى قامت فى الشمال أسماء مختلفة ، غالبا ما تكون اسم المقاطعة التى يملكها الحاكم مثل : نبرة وأرجون وقشتالة و أشتورياش والبرتقال ، وتسميهم بالروم أحيانا وبالنصارى أحيانا أخرى •

وهو رأى لا يقبل على اطلاقه ، ذلك أننا نجد على بن موسى من بنى سعيد ، والمتوفى عام 673 هـ ، ومكمل تصنيف كتاب «**المغرب فى حلى المغرب**» ، يضمن الكتاب جزءا خص به الاندلس المسيحى ، وأسماه «كتاب لحظة المريب فيما بقى من جزيرة الاندلس لعباد الصليب» ، أى أنه يمتد بالتسمية فيجعلها تشمل تلك الدويلات المسيحية التى تكونت على حســاب الدولـــة الاسلامية ، وانتزعت منها عدد من المدن الكبرى والهــامــة •

وفيما أرى يجب التفرقة بين المصادر العربية الاولى حين تشير الى هذه الدويلات ، أو الشبيهة بها ، التى قامت فى الشمال ، وتكونت فى وقت مبكر على الطرف النائى لشبه الجزيرة ، على أرض لم تتأصل فيها الحضارة الاسلامية يوما ، وان مر بها المسلمون من حين لآخر غازين أو عابرين ، أو ملاحقين لجيوش المسيحيين ، ومن ثم لم يرها المؤرخـون الاول جزءا من الانـدلس الاسلامى ، وبين المصادر المتأخرة حين اتسعت هذه الدول، وقوى شأنها ، على حساب الاندلس الاســلامى ، فضمت اليها مدنا ازدهرت فيها الحضارة الاسلامية ونفقت سوق الادب،وعمرت بالمدارس والمساجد ، وشغلت عقول الناس ، واحتلت من قلوبهم مكانا، مثل طليطلة وشنترين وبلنسية ، وسرقطة ، ثم اشبيلية وقرطبة ومرسية أخيرا ، فاعتبروهـــا اندلسا ، وان كانت فى يد المسيحيين •

يقول ابن سعيد : «وأعظم الملوك الذين توارثوا المملكة عند النصارى بالاندلس وقسموا بلادها اربعة : اذفونش ، وهو مالك قشتالة ، وهـــى اعمال فى جهة طليطلة ا لى البحر المحيط ، كانت قاعدتها قبل أن تصير لهم طليطلة مدينة غليسية (1) ، وهى على البحر المحيط • ثم البرجلـونى وهو ملك شرق الاندلس ، ويقال لمملكته أرغون، لانه كان فى مدينة ارغون حتى ملك طرطوشـة وبرجلونة (برشلونة) وغيـرها • ثم الببـــوج وهو فى بلاد الشمال مجاور لبطليوس ، قاعدته ليون • ثم ابن الريق ، وهو ملك جليقية ، وهى فى الشمال والغرب من الاندلس ، كانت قاعدته مدينة شانت ياقوه ، وهى عظيمة الى نهـــاية ، فيها معدن الـذهب ، وقد صارت له أشبـونة وغيرها من بلاد الاسلام (2) •

بقى أن اشير الى ان المؤرخين المسلمين ، فيما قرات ، لم يطلقوا ابدا اسم اسبانيا على الاندلس الاسلامى،ولا على ما تبقى منه فى يد الكاثوليك، او استولوا عليه عنوة فيما بعد من المسلمـين • كذلك فان المدونات الكاثوليكية ، وهى متاخـرة وقليلة ، وكتبجلها رجال الدين فى اللغــة اللاتينية ، لا تطلق على الجانب الاسلامى اسم الاندلس الا نادرا ، وانما تتحـدث فقط عـــن العرب والمسلمين • ويرى سيبولد SEYBOLD

1 ـ هكذا فى الاصل وتحتاج هذه الفقرة الى تصحيح ، لان عاصمة قشتالة قبل ان تستولى على طليطلة ، كانت فى مدينة برغش وهى وسط المملكة ، وبعيدة عن البحر المحيط تماما وعليسية هى صورة عربية اخرى للفظ جليقية اسم مقاطعة فى الشمال الغربى ـــ 2ـ بنو سعيد ، المغرب فى حلى المغرب ، ج 2 ص 473 الطبعة الثانية ، تحقيق الدكتـــور شوقى الضيف ، دار المعارف بالقاهرة ـ بلا تاريخ ـ

فى دائرة المعارف الاسلامية ، مادة أندلس ، «أن نصارى اسبانيا الشمالية كانوا يجهلون اسم الاندلس جهلا تاما ، وكانوا يطلقون على الجزء العربى الجنوبى الاسم القديم اسبانيا HISPANIA ، أو سبانيا SPANIA ، أما موطنهم الشمالى فأطلقوا عليه أسماء خاصة مثل : أشتورياش وليون وقشتالة وأرجون» ・ وهى فكرة تحتاج الى اعادة تحرير ・ فالحق أن المسلمين هم الذين أطلقوا الاسماء الاخيرة على الدويلات المسيحية التى قامت فى الشمال ، وهى تسمى دويلات تجوزا ، لانها مجرد اقطاعيات يقوم عليها اقطاعى ، فارس أو أمير أو نبيل ، وقد سبقت المدونات الاسلامية فى ذلك أية مدونة مسيحية ، على نحو ما أشرنا اليه ・

أما القول بان نصارى الشمال كانوا يجهلون اسم الاندلس جهلا تاما فدعوى لا تحتاج الى فضل بيان ・ ذلك أنه ينبغى أن نفرق بين المعرفة والتدوين ・ لا أظن أن ملوك الشمال حين كانوا يهبطون قرطبة طلبا للعلاج عند كبار أطبائها ، او الدارسون المسيحيون حين كانوا ينزلونها التماسا للعلم عند شيوخها ، كانوا يجهلون فى عاصمة دولة تسمى الاندلس ・ ولا أعتقد أن المسيحيين الذين كانوا يعايشون المسلمين فى دولتهم ، وعرفوا باسم المستعربين LOS MOZARABES ، لانهم اتخذوا العربية لسانا ، فتحدثوا بها ، وشعروا فيها ، ثم هاجروا الى الشمال يعملوا مترجمين أو خبراء ، أو ناقلين لما عرفوا من علوم ، كانوا يجهلون هم ، أو الذين يستخدمونهم ، انهم قادمون من عند الاندلسيين ، وانهم – رغم كاثوليكيتهم – يتكلمون لغتهم ، ويحتذون عاداتهم ، تقاليد وملبسا وأنماط حياة ・ وتجاهل للواقع أن المترجمين الذين عكفوا فى طليطلة على امتداد القرنين الثالث عشر والرابع عشر على نقل التراث الاسلامى من العربية الى اللاتينية ، ثم الى القشتالية فيما بعد ، كانوا يجهلون أن شبه الجزيرة يسمى بلاد الاندلس ، أو الاندلس فحسب ، فى مؤلفات المسلمين ・ وأما أن المسيحيين كانوا يسمونها اسبانيا ، فذلك قاصر على الكتب المدونة ، وكتابها دون استثناء・ لغتهم اللاتينية ، وجلهم من رجال الدين ، وهم بحكم ثقافتهم الدينية واللغوية المحافظة ، ان لم نقل المتعصبة ، يتمسكون بالقديم ، ويقفون عند مفردات اللغة اللاتينية لا يتجاوزونها الى لفظ آخر لم تعرفه ・ وكانت اللاتينية تعرف لفظى HISPANIA و SPANIA وتجهل لفظ الاندلس ، لانه جديد مستحدث ・ وهم عند ماكانوا يستخدمون هذه التسمية كانوا يعنون بها شبه الجزيرة كله ، سواء فى ذلك الاراضى الاسلامية أو التى فى حوزة الكاثوليك ・ فاذا اتصل الامر بالمسلمين وحدهم سموهم : المسلمين LOS MOROS أو المحمديين ، أو الافريقيين ، أو العرب فى القليل ・

يوجد اسم **«الاندلس»** أو **«بلاد الاندلس** فى أقدم المصادر التاريخية والجغرافية التى لدينا، وأقدمها يعود الى مطلع القرن التاسع ، أى أن بين الفتح الاسلامى وتدوين وقائعه فترة تبلغ المائة أنقص أو أزيد قليلا ، فهل جاء هذا الاسم مع التدوين ، أم عرفه المسلمون قبله؛وفى أى عام؟

لا توجد وثائق أو نصوص تعيننا على هذا التحديد ، غير اننا اذا لجأنا الى المسكوكات ، لا نجد الاسم فى العملة التى ضربت أيام الفتح نفسه ، ويظن أن الذى أمر بسكها موسى بن نصير ، أيام أن كان محاصرا لمدينة ماردة ADIRƎM وصنعت من ذهب متوسط الجودة・ وأقدم ما نحتفظ به منها دينار مثير يوجد فى مكتبة باريس الوطنية ، ويعود الى عام 93 للهجرة الموافق 711 ميلادية ، على وجهه كتابة باللغة اللاتينية ، ويستخدم التاريخين الهجرى والميلادى وهما يتطابقان أحيانا ويختلفان أحيانا أخرى، وفى هذا الدينار نجدهما متوافقين ، وصورة الكتابة على الوجه الذى يحمل التاريخ جاءت على هذا النحو (1) ANN XCIII H e INDCXI

وفى العام التالى ، 94 هـ = 712 م ، ضربت دنانير أخرى وصلنا عدد كبير منها ، وفى سنة 95 هـ = 712 م ضرب نوعان آخران من الدنانير، وهى أندر وجودا الآن من دنانير العام الذىسبقه وفى هذه الدنانير كلها استخدم العرب الاسم اللاتينى لشبه الجزيرة ، وهو كلمة اسبانيا :

(1) N° 128, Catalogue de la Voix.

SAAVEDRA : Invasion arabe en Espana, P. 108.

ويلحظ الدارس لهذه المسكوكات أن المسلمين اتبعوا فى كتابتهم للاتينية نفس الطريقة التى يتبعونها فى اللغة العربية ، فكتبوا فرنسية الحروف الصامتة دون ان يتبعوها بالحركات ، مما يعنى أن كاتبها كان مسلما يعرف اللغة العربية ، وشيئا محدودا من اللغة اللاتينية ·

ونفتقد بعد ذلك عملات جديدة ، الى أن يجىء الحر بن عبد الرحمن الثقفى واليا على الاندلس ، فيأمر فى عام 98 هـ = 716 م بضرب عملة جديدة ، تحمل لاول مرة لغة مزدوجة ، النص اللاتينى على وجه ، وترجمته العربية على الوجه الآخر ، كلمات النص اللاتينى جاءت على الصورة التالية:

Feritus Solidus In Spania anno XCVII

ويقول النص العربى المقابل له : «ضرب هذا الدينار بالاندلس سنة ثمان وتسعين» · وهذا الدينار هو أقدم وثيقة بين أيدينا نجد فيها الاسم اللاتينى SPANIA مترجما الى اللفظ العربى «الاندلس» · والى جانب ذلك يشير هذا الدينار عددا من الملاحظات · فنجده ، على غير ما تعودنا فى العملات السابقة ، يحمل الكتابة اللاتينية كاملة ، بحروفها وحركاتها · ولو أن الرسم كتبوه على نحو ما رنت فى آذانهم الكلمات ، وليس كما تقتضيها قواعد اللغة واقتصرت الكتابة على التاريخ الهجرى وحده ،سواء فى ذلك الوجه العربى أو اللاتينى ، وان ثمة فارقا بين التاريخين فى النص العربى والنص اللاتينى فالنص الاول يحمل تاريخ 98 هـ ، بينما يحمل الثانى تاريخ عام 97 هـ · واذا كان الفارق فى هذا الدينار لا يتجاوز العام ، فانه فى دنانير أخرى يتسع أحيانا حتى يبلغ ثلاث سنوات·وفى عدد منها نجد أخطاء فى النص العربى ، مثلا نجد الجملة مكتوبة على النحو التالى : «سنة مان وتسعين» بدلا من ثمان ، و «ضرب هذا الدينار بالاند ثمان وسنة تسعين » ، وذلك يعنى ان صناعة لم يكونوا متمكنين لا من اللغة اللاتينية ولا من اللغة العربية ، أو بتعبير أدق ، لم يكونوا عربا من المشرق ، ولم يكونوا اسبانا من أهل شبه الجزيرة ، وفيما يبدو لى كانوا بربرا من الذين دخلوا الاسلام حديثا ، وحظهم من كلتا اللغتين كان محدودا ·

أول استخدام رسمى اذن لاسم «الاندلس» يعود الى عام 98 هـ ، أى بعد ستة أعوام من الفتح، لكن ذلك لا يعنى بأية حال أن استخدام المسلمين لهذا الاسم بدأ فى نفس العام ، لان استخدام اسم فى عملية رسمية ، يعنى أن يكون الاسم المستخدم ذائعا وشائعا ومعروفا بين الناس ، ان لم يكن للجميع ، فللكثرة الغالبة التى ضرب لها على الاقل · وانا أرجح أن اسم «بلاد الاندلس» كان معروفا للكثرة الغالبة من المسلمين ، ليس بعد الفتح فحسب ، وانما عشيته أيضا ، وحتى قبله بزمن ، على نحو ما سنعرض له بعد قليل · أما عدم استخدامه فى الدنانير التى ضربها موسى ابن نصير ، فلانها لم تستخدم العربية اطلاقا ، وانما كانت تقليدا أمينا لدنانير لقيها فى افريقية، تونس الحديثة ، جرى الناس على التعامل بها هناك منذ أيام هرقل ، ابان احتلال الرومان لقرطاجة ·

ليس ثمة شك فى أن اسم الاندلس يرتبط على نحو ما بالوندال ، وهم قبائل جرمانية غازية ، هبطوا جنوب اسبانيا الشرقى لمدة قصيرة لا تتجاوز الثمانية عشر عاما ، من 411م 429 م ، فعاثوا فيه فسادا ، ودمروا فى طريقهم كل شىء ، ثم عبروا المضيق الى شمال افريقية فاستقروا فيه زمنا ، ولم يكونوا هنا بأحسن حالا مما كانوا عليه هناك ، وتركوا فى حياة الناس وذواكرهم اسوأ الاثر · فالذين اشتق منهم الاسم اذن معروفون للاسبان الذين فى شبه الجزيرة ، ومعروفون أكثر لسكان شمال افريقية، وكان هؤلاء لا يعرفون عن الغزاة الجدد الا انهم قادمون من وراء المضيق ، والارض التى قدموا منها هى بلاد الوندال ·

ثم تفسير ساذج وكسول يقول ان العرب اشتقوا اسم الاندلس من كلمة VANDALOS ، أما كيف تم ذلك دون أن يخضع لاى قانون صوتى أو لغوى فلم يقف عنده أحد · واذا بحثنا الامر علميا ، وتأملناه مليا ، وجدنا اسم الوندال له صورتان ، واحدة جرمانية والاخرى لاتينية ، أما صورته الجرمانية فهى WANDAL ، والحرف الاول منها ينطق فى اللغة الالمانية واوا ، ومن ثم يجب أن ينطق جمعها فى العربية وندلس ، وانقلاب الواو همزة لا تعرفه العربية أبدا · واذا قيل ان العرب أخذوها عن الاسبانية فان نفس الكلمة يجب أن تكون فى الاسبانية GUANDALUZ

لان الاسبانية درجت على أن تحول حرف W الاجنبى الى GU هكذا صنعت مع المفردات الالمانية ، فكلمة WILHEM أصبحت فى الاسبانية GUILLEN ومع المفردات العربية ، فكلمة «وادى الرمل» أصبحت GUADARRAMA واذا قلنا ان العرب عرفوا اللفظ فى صورته اللاتينية VANDALES ، فيجب أن ينتقل الى العربية فى صورة بندلس ، ولم يحدث كذلك أن انقلبت الباء همزة فى اللغة العربية · ان تصور أن تكون لفظة WANDALOS أو VANDALOS قد أخذت طريقها الى العربية مباشرة أمر بعيد الاحتمال ·

لكن الذى أراه أن شمال افريقية ، كانت تعرف اسبانيا ، وهى منهم على مرأى البصر ، فى الفترة التى سبقت الفتح باسم **«بلاد الاندلس»** أى البلاد التى جاء منها الوندال ، وقد ارتبط هؤلاء فى مخيلة الناس بقسوتهم وجبروتهم ، وعاشوا فى أذهانهم شيئا مرعبا ، وان التسمية شاعت فى كل شمال افرقية ، وأصبحت تطلق على الجانب الآخر المقابل لطنجة ، حتى بعد أن آل حكم شبه الجزرة الى القوط وان الاسلام حين جاء الى شمال القارة فاتحا ، عرف العرب اسبانيا باسم الاندلس حتى قبل أن يعبر اليها المسلمون فاتحين ، عن طريق البربر المسلمين ، افتراض يدعمه أن المدونات العربية الاولى التى عرضت لاحداث الفتح ، كثيرا ما تتحدث عن «بلاد الاندلس» ، ولا تذكر كلمة «الاندلس» مفردة الا فى القليل ·

اضف الى ذلك أن تطور الاسم الى الصيغة التى عرف بها فى العربية ، يتفق مع اتجاهات اللغة البربرية ، فنجد فى هذه اللغة عددا من الاسماء تضاف اليها الواو بدءا فى حالة الجر ، وتجرد منها فى الحالات الاخرى · فكلمة ADU ، أى عاصفة ، تصبح فى حالة الجر WADU ،وكلمة AMAN بمعنى ماء ، تصبح WAMAN ،وكلمة بمعنى اليوم تصبح WASS و AYYUR بمعنى القمر تصبح WAYYUR · فهم يقولون مثلا : FKIID AMAN أعطنى ماء ، فاذ قالوا أعطنى قليلا من الماء أصبحت FKIID IMIK WAMAN الا يمكن الافتراض اذن بأن البربر تصوروا أن كلمة WANDALUS الجرمانية جاءتهم فى صورة الجر ، فاشتقوا منها اسما فى حالة الرفع ، هو على قواعد لغتهم ، ودون استثناء ، يصبح ANDALUS أى ان كلمة ANDALUS تكون بالنسبة لكلمة WANDALUS ما تكونه كلمة AMAN البربرية مرفوعة ، بالنسبة الى WAMAN مجرورة ، وجاء العرب من المشرق فالتقطوها من أفواه البربر ، فهى اذن دخلت اللغة العربية عن طريق اللغة البربرية ، وليس من اللاتينية ، أو الجرمانية ، أو الاسبانية مباشرة وهكذا يمكن حل المشكلة صوتيا وتاريخيا · ان غياب حرف من كلمة أندلس لا يمكن تفسيره الا فى ضوء هذا الفهم ·

لم يتلاش الاسم بسقوط دولة الاسلام فى الاندلس ، وانما بقى فى اسبانيا الحديثة فى صورة ANDALUCIA يطلق على ما يسميه أبناء سعيد فى كتاب «المغرب فى حلى المغرب» موسطة الاندلس ، أى على المنطقة التى تشمل محافظات المرية وغرناطة ومالقة ، وجيان وقرطبة واشبيلية ، وقادس وولبة · وقبل ذلك عبرت التسمية مضيق جبل طارق مع ثلاثمائة أسرة قرطبية ، نفاها الحكم الاول خلال ثورة الربض الشهيرة ، فاتجهوا نحو فاس ، واستقروا فيها ، وأطلقوا على حيهم اسم الاندلس ، وعرفوا هم بالاندلسيين · كذلك أدت كثرة الوافدين من الاندلسيين على القاهرة ، فى طريقهم للحج ، أو ينزلونها طلبا للعلم ، أو يستقرون بها عاملين، الى أن تكون لهم بالفسطاط أى القاهرة القديمة ، محلة يطلق عليها اسم الاندلس ، تضم رحبة ومسجدا ومصلى ، وضم اليها مع الزمن رباط للعجائز المنقطعات الصالحات ، وآخر للارامل العابدات ، وبستانا · ومنذ نهاية القرن الخامس عشر حمله معهم أولئك المسلمون الذين أكرهوا على الخروج من الاندلس بعد انتصار الكاثوليك هناك ، الى الامكنة الاسلامية التى لاذوا بها فى تونس أو الجزائر أو المغرب · وقبل ذلك وبعده ، بقى لفظ «الاندلس» فى أعماق كافة المسلمين ، جوهرا مشعا ، يبعث التأمل والاعجاب ، ويحرك الشجى والندم ، ويثير الاسى والحسرة على الدوام ·

الاستئصال

لبيار بورديو - وعبدالمالك صياد

ترجمة : عبدالرحمن بوزيدة

● للسياسة الزراعية التى كانت تنزع الى تحويل الملكية الجماعية الى ملكية فردية ، قد ساهمت فى تفكيك الوحدات المجتمعية التقليدية والقضاء على التوازن الاقتصادى .

● ان قرى التجمع تتشابه كلها فى الخطوط العامة لانها ناشئة عن تطبيق انماط لا شعورية اكثر من نشوئها عن نظرية صريحة او ضمنية .

● ان سياسة مراكز التجمع تعبر عن الرغبة المرضية الكامنة فى الجهاز الاستعمارى.

«نترجم هذا الفصل من كتاب صياد و بورديو ـ لانه يعبر فى نظرنا أكثر من غيره عن دخول الرسمالية بطريقة غير اصيلة الى مجتمعنا ـ كما يصف بعمق ودقة الصراع الذى دار ويدور بين الاسلوب الانتاجى الاصيل والرأس مالية

من بين كل الهزات التى تعرض لها المجتمع الريفى الجزائرى من عام 1955 الى عام 1962 فما من شك فى ان تلك التى نتجت عن تجميع الاهالى هى اكثرها عمقا واثقلها نتائج على المدى البعيد ·
وكان نقل الاهالى ، فى فترة أولى ، متصلا بأحداث «مناطق محرمة» ، فما تم بين 1954 ــ هو طرد عدد من الفلاحين من قراهم لا أقل ولا أكثر ، اذ لم تكتسب سياسة التجميع شكلا منهجيا منظما فى النواحى مثل شمال قسنطينة ، الا ابتداء من سنة 1957 على الخصوص · ان الهدف الاول للمناطق المحرمة حسب احدى التعليمات الرسمية هو **احداث فراغ فى بلد غير مراقب وفصل أهاليه عن هيمنة المتمردين ·**

والمفروض من تجميع الاهالى المكثف قرب المراكز العسكرية هو تمكين الفرنسيين من مراقبة مباشرة عليهم ومنعهم من مد جنود جيش وجبهة التحرير الوطنى بالاخبار ودلهم « على المسالك » وتموينهم وايوائهم ·

وكان متوقعا منه أيضا تيسير عمليات القمع على اعتبار كل من بقى بالمناطق المحرمة متمردا ، ولقد تم الابعاد عنوة فى جل الحالات · وفى أول الامر كان يبدو أن الجيش الفرنسى يطبق بانتظام سياسة الارض المحروقة ، فى ناحية «القل» ، على الاقل ، من اضرام النار فى الغابات ، واتلاف للعولة «الذخيرة» والماشية ، واستعملت كل الوسائل لارغام الفلاحين على هجر أراضيهم ومنازلهم ، وعلى الرغم من كل شىء فقد قابل الاهالى هذا التكتيك بمقاومة جنونية، فكان الكثير منهم يفضلون خطر الموت العنيف على حالة الحشر والخنوع والموت البطىء فى (بيوت التبن) والخيام وبيوت القصدير المخصصة للتجميع(··) وهذه النسوة المعتقلات بعد عمليات «التطهير» بعد أن خربت أغلبية المشاتى ، قد تحملن مشقة الترحيل الاجبارى أربع أو خمس مرات ولكنهن كن فى كل مرة يأخذن طريق العودة الى الدوار ·

وفى هذه المرحلة الاولى حيث كان الجيش يسير وفق اهتمامات استراتيجية محضة ــ أولى اهتمامه على ما يبدو لتفريغ المناطق التى كانت تصعب عليه مراقبتها وذلك بدون اكتراث منه على وجه الدقة بمصير الاهالى الذين تم اجلاؤهم ودون أن يضع لنفسه كهدف علنى تنظيم تقطينهم وبالتالى تنظيم كل «حياتهم» ·

ان الفلاحين المنتزعين من مقر اقامتهم الاعتيادى حشروا فى مراكز غير مناسبة اختيرت فى اغلب الاحيان لاغراض عسكرية محضة ، ولنا معرفة بحالة البؤس المادية والمعنوية التى عرفها سكان التجمعات الاولى مثل تجمعات « تمالوست وام طوب وبسنبورغ فى ناحية القل» · وليس هناك اقل تدبيرا ومنهجية أكثر من هذه العمليات· وبلا جدوى نحاول العثور على نظام فى دوامة التنقيلات الفوضوية المترتبة عن حركة القمع ، وقد كان «المجمعون» يجدون أنفسهم فى وضعية تبعية مطلقة بالنسبة لرجال «الصاص» ، وهكذا تحت ضغط الظروف التى خلقها هو بنفسه اضطر الجيش ان يتكفل فعلا باشخاص كان ينوى شل نشاطهم ومراقبتهم ، وشرع اذ ذاك فى تحقيق الضغط والتفريق ·

وهكذا اذن تحول التجميع فى المدة الاخيرة من مجرد نتيجة للاجلاء ليصبح الموضوع المباشر للاهتمامات ، بل أيضا أصبح تدريجيا محورا لسياسة منتظمة · وعلى الرغم من المنع الصادر فى بداية عام 1959 لعدم تنقيل الاهالى بدون رخصة من السلطات المدنية فقد تضاعفت التجميعات · ففى عام 1960 بلغ عدد الجزائريين المجمعين 2157000 أى ربع مجموع الاهالى ، واذا ادخلنا فى الحساب علاوة على التجميعات، الهجرة الى المدن نستطيع أن نقدر بثلاث ملايين على الاقل (أى ما يعادل نصف أهالى الريف) عدد الافراد الذين يوجدون خارج مقر اقامتهم الاعتيادى · ان هذا الترحيل يعد من أعنف الترحيلات التى عرفها التاريخ ·

تجميع الاهالى ومنطق الاستعمار :

فعلا ، ان الاساسى هو تجميع هذا الشعب الموجود فى كل مكان والذى لا يعثر على مقر له ، ان الاساسى هو ان نجعله فى قبضتنا ، ليصبح التحكم فيه ممكنا. وعند مانمسكه سوف نستطيع حينئذ القيام بعدة اشياء مستحيلة علينا اليوم وقد تسمح لنا بالاستيلاء عليه معنويا ، بعد ان استولينا عليه ماديا . قبطان شارل رشارد (1846 ـ 1945)

« أصل من اللورين واحب الخطوط المستقيمة ، والناس هنا فى خصام مع الخط المستقيم . «ملازم دوكركرة» 1960 »

* * *

من جملة الاجراءات الاقتصادية والاجتماعية التى اتخذت فى اطار «التهدئة» يأتى تجميع أهالى الريف كاجراء يندرج بأكثر وضوح فى استمرار القوانين العقارية الكبرى للقرن «19» أى بالاخص قانون حصر الاملاك العقارية (1857 ـ 1856) والقانون الامبراطورى (1863) وقانون فارنى (1873) ، وما يلفت النظر فعلا هو لجوء الموظفين المكلفين بتطبيق «سيناطس كنسلط» ولجوء الضباط المسؤولين على تطبيق سياسة التجميع الى اجراءات متماثلة بحكم وجودهم فى وضعيتين متماثلتين رغم قرن يفصل بينهما .

التجمعات والقوانين العقارية :

سواء أقرت بكل وقاحة بأنها «آلة حرب» قادرة على «ضعضعة نظام القبائل» ، العقبة الاساسية للتهدئة «أو أعلنت انتماءها الى ايديولوجية اندماجية أكثر سخاء من حيث النوايا » . **فان السياسة الزراعية التى كانت تنزع الى تحويل الملكية «العشائرية» الى ممتلكات فردية قد ساهمت بقوة فى تفكيك الوحدات المجتمعية التقليدية بالقضاء على التوازن الاقتصادى الذى كانت الملكية القبلية والعرفية تشكل احسن ما يحميه ، وكانت فى نفس الوقت تسهل حشد احسن الاراضى بين أيدى المعمرين الاوروبيين عن طريق التلاعبات وصفقات البيع الجائرة . وكانت وظيفة القوانين العقارية الكبرى تاسيس الظروف الملائمة لتنمية اقتصاد عصرى يرتكز على الملكية الفردية ، وكان الادماج القانونى معتبرا كشرط اول وضرورى للتحويل الاقتصادى غير ان الوظيفة الكاملة لهذه السياسة توجد فى موضع آخر .**

فقد كان المقصود فى مرحلة أولى تسهيل نزع الملكية من الجزائريين وذلك بمد المعمرين بوسائل تملك تبدو ، وكأنها شرعية ، وذلك بوضع جهاز قانونى يفترض نظرة للاقتصاد وللزمن ، غريبة عن ذهنية المجتمع الفلاحى . أما فى المرحلة الثانية فكان المقصود ضرب الوحدات التقليدية «كالقبيلة مثلا» التى كانت روح المقاومة ضد الاستعمار وذلك بضرب القواعد الاقتصادية التى تكون التحامها ، وقد تم ذلك بالفعل سنة 1875 ، وكانت نتيجة ذلك فشل التمردات القبلية الكبرى .

فلاحون بدون أرض :

وتحت تأثير عوامل مختلفة مشتركة «متعاونة» من أهمها : الاغتصاب العقارى والضغط الديموغرافى والانتقال من اقتصاد « بدائى» الى اقتصاد الاسواق ، وجدت الطبقة الفلاحية الجزائرية نفسها منجرة فى تيار الكارثة. فاحصاء (5 ـ 1950) يظهر أن 438483 مزرعة يملكها الجزائريون الذين يكونون 69٪ من المجموع ، مساحة كل واحدة منها تقل عن 10 هكتارات ، ويغطى مجموعها مساحة تبلغ 1387164 هـ . أى نسبة 18،8٪ من المجموع ، فمتوسط المساحة لكل مزرعة (بالنسبة لمجموع الجزائريين الملاك) هو 3،1 هكتارا عرض (4،7 فى عام 1940) أى مساحة تقل على الضرورى اللازم لا عالة عائلة فلاحية (ريفية) ، وقد ازداد عدد الذين يملكون أقل من عشر هكتارات بنحو 000 50 بين 1950 ـ

1940 أي بنسبة 12٪ ، في الوقت الذى نقصت فيه المساحة العامة التى يملكها الجـزائريون ، بـ 471 000 هكتارا ، والامر الاعمق تأثيرا هـو ان بنية المجتمع الزراعى قد أصابها تغيير خطير فى الثلاثين سنة الاخيرة ، فبين سنة 54 — 1930 نقص عدد ملاك الارض بنسبـة 20٪ بينما ازداد عدد عمال الارض بين قارين ومؤقتين بنسبة 29٪ من التقاليد الفلاحية • وفى هذا النطاق دفـع وقد أدى انتزاع العقار والملكية الى التخلى عن عدد من التقاليد الفلاحية • وفى هذا النطاق دفـع تقلص الارض، والضغط الديموغرافى اللذان يتطلبان زيادة الانتاج بكل ثمن، عددا من الفلاحين الى التخلى عن تسميد الارض فى كل سنتين، وبالطريقة القديمة

فبالنسبة للسنوات 51 — 1950 (لم تكن تمثل طريقة التسميد القديمة الا 62،7 من التسميدات) أما بالنسبة للسنوات (51—1950 فيسمد بالطريقة القديمة JACHERE ما يعادل 62،7٪ مـن الاراضى • والدليل على أن هذا التجديد محتـم وليس تغييرا فى النظرة الاقتصادية ، هو ما نلاحظ من ان طريقة التسميد القديمة قد استمـرت فى الضيعات الاكثر اتساعا • ونلاحظ نفـس الشىء بالنسبة لاتساع الاراضى المزروعة على حساب المراعى الذى سببه البحث عن أكثر ما يمكن (من الطمأنينة) أو من الضمان • يقول المسير الادارى للشلالة :

«توجد عدة عوامل تؤثر على الزراعة وهى الامطار الغير منتظمة ، وجليد الربيع ، والطبيعة الحجرية للحقول • ومن المؤسف ان نلاحظ انها تتسـع فى كل سنة على حساب المراعى ، مع أن تربيـة المواشى اكثر دخلا • ان زراعة الحبوب كاسدة ، فرغم المصاريف الطفيفة فهى لا تكاد تسمـح للفلاح بان يحصد جزءا مما يسـد به رمقه مـن القمح والشعير • انها تبقيه فى حالة تنـويم يجب أن يخلص منه» •

فعند الفلاحين الذين لم يتركوا ⅓ من أرضهم كل سنة JACHERE بدون زراعتها كما عند الذين يحرثون كل أرضهم • نجد نفس القلـق الذى يوحى بتصرفات مستعجلة ، ومتـوترة • صحيح ان فلاحة الحبوب بائرة ، ولكن هـل السؤال المطروح يتلخص فقط فى الانتاج لبيعه فى السوق ؟ ان المراد هو الحصول بأقل ثمن ، وفى أقرب وقت على ما تقتات به العائلة o وهكذا اذاً وبدون تردد ، تقع التضحية بمستقبل الانتاج الغير مضمون ، والخارج عن كل حوز فى سبيل الاستهلاك المقبل الذى هو وشيك وفورى •

ونظرا لعدم وجود أى تحسين لتعويض فقـر الارض المنجر عن استغلالها الشديد المستمـر ونظرا أيضا الى أن ضغط الحاجة أدى الى فلـح أراضى (تافهة) MEDIOCRE قليلة الخصوبة يسهل تصور بقاء الانتـاج منخفضا جـدا ، أى 4،65 للهكتار الواحد سنة 1955 • ان فلح الاراضى التى كانت بورا فى السابق أو غابا لا يـؤدى الا لتقوية الانجراف ، فبين 54 و 1940 كانت الاراضى المفلوحة من طـرف الجزائريين قد انخفضـت بـ 321000 هكتارا بدون أن تزيد أراضى أملاك الاوروبيين بنفس المقدار ونظرا لجوع الفلاحين للارض فمن غير المتوقع أن تكون هذه المساحات قد عادت بورا • فنستطيع اذاً أن نعـدها قـد تلفت نتيجة للانجراف الذى يذهب فى كل سنة بعشرات الآلاف من الهيكتارات •

فزرع الفلاحين لأرضهم بدون انقطاع ، حـتى حد الانهاك ، واحتلال القمح الصلب والشعـير لصنع الكسكس ، والخبز ما يناسب 87٪ مـن مساحة الاراضى المزروعة للـملاك الصغـار ، وبتعاطى كل الفلاحين تقريبا لزراعة الحبـوب وانحسار القسط المخصص للماشية فى الضيعات الصغار واتساعه الموازى لمساحة الضيعة كـل هذا يدل على أن النشاط الفلاحى ليس له ولايمكن أن يكون له هدف سوى الارضاء المباشر للحاجيات القريبة ، واستغلال الارض بشدة يجب أن ينسب الى ضغط الحاجة لا الى الرغبة فى مضاعفـة الانتاج ، وأكثر من هذا فان الجمع بين الحبـوب والماشية الذى يبقى (ثبت) مهما كانت مساحـة الضيعة • (الملاحظ أن ملاك الضيعات التى تتجاوز ال 100 هكتار يباشرون التسميد مرة كل سنتين، ولا يهتمون اهتماما شديدا بالمواشى • وتعـدد الزراعات POLYCULTURE الطاغى فى المزارع التى لا تتجاوز الهكتار الواحد والفلح المباشـر الذى يقل بارتفاع الضيعة ، واشغال الفـلاحة الجزائرية التى تملك مساحة تفوق ثلاث مـرات مساحة الفلاحة الاوروبية لعدد من العمال أقـل

بكثير من هذه الاخيرة ، أقل 2،4 بالنسبة للعمال القارين و بـ (1،2) بالنسبة لغير القارين ولجوئها الى الخماسة الذى هو نوع من الشركة يتميـــز بطابعه القبل رأس مالى ، يدل على أن النشـــاط الاقتصادى بقى الى الآن متجها نحو الضرورى من المعاش • لا الى تقوية الانتاج • والتجـديـدات اليست فى أغلب الاحيان الا مخالفات للعادة التى يفرضها البؤس ، وفى تخوفه الذى يفـوق كل ما مضى ، من المستقبل ، «يخلق» الفلاح أكثـــر فأكثر فى تصرفات يمليها عليه بحثه عن أكبـــر ضمان ممكن •

فبمقدار ما يفلت منه الحاضر بمقدار مــــا يتشبث هو به مضحيا بكل نوع من النشـــــاط يتعلق بالمستقبل البعيد ومتتبعا ارضاء الحاجات المباشرة القريبة فقد تخلى -أكثر الفلاحين فقرا عن التفكير فى الغد الذى كان من مقتضيات العادة • فالتوازنـات التقليـدية التى انفصمت (انقطعت) أخذت معها ايضا السعى (المحاوله) لاتقاء المستقبل اذ ذهب الحد الادنى من الضمانات التى صيرها ممكنة•واذ تيقن الفلاح من انه لن يتمكن مهما فعل من السيطرة على (الزمن) فقد أصبح يعيش على يومه ملتجأ الى القروض القروض،مضيفا الى مدخول أرض الاجرة التى يتقاضاها،من عمله فى ضيعة المعمر فى بعض الايام0فاليأس الضرورى من التفكير فى الغد هو تعبير عن الرفض الكلى للمستقبل الذى يقرر (يجبر) عن تسليم اتكـالى • DEFIANCE

تقليـدية اليـأس :

وهذه التقليدية المريضة تتعارض مع تأمين الغد السائد فى المجتمع الريفى التقليدى الـتى كانت بوسائله التقليدية يضمن أقصى ما يمكن من التشوف PREVISIBILITEفى الحـدود التى تسطرها وسائل الانتاج الضعيفة
وعدم استقرار الاحوال الطبيعية ، وعلاوة على هذا فان هذا التقليد المريض ، كان يقرن دائـمـــا ، وخاصة فى الجهات التى يسيطر فيها المعمـرون سيطرة كبيرة،بالمعرفة والاعتراف لتفوق وسائل الاشتغال العقلانية التى يستعملهـــا المعمـــر • فاذا واصل الفلاحون استعمال المحراث القديم عوض الآلات الحديثة ، واوذا انتجوا للاستهلاك العائلى عوض التسويق واذا استثمروا (صـــرفوا) أقل ما يمكن وقنعوا بنتاج تافه،واذا لم يستعملوا الاسمدة ولم يغيروا طرق الفلح فليس ذلك دائما باسم التقاليد القديمة التى شرع البؤس فى محوها فاذا رفضوا التحسينات الطويلة المدى ، فلم يعد ذلك راجع دائما لعدم قدرتهم على معرفة التضحية بمستقبل ملموس فى سبيل مستقبل خيالى،ان ذلك يرجع خاصة لفقدانهم وسائل الانتظار•وعلى الرغم من أنهم يعترفون VOLONTIERS على الصعيد المجرد المثالى بفعالية التقنية المستعملة من طرف المعمر والمدخول المتفوق للفلاحة المخصصـة للسوق (لفلاحة السوق) هم مضطرين للابقـــاء على تصرفـاتهم التقليـدية لان ذلـك النوع من الاستثمار يتطلب ، وهم يعرفون ذلك ، وسائل تقنية ونقدية ضخمة ، ولانهم لم يضمنوا العيش الضرورى حتى يبحثوا عن الفائدة (الربح) ، ولان الانتاج المنذور للسوق يبدو لهم وكأنه رهـان غير مضمون ما دامت حاجيات الجماعة لم توفر •

ان «الكولون» يقول فلاح من CARNOT يستطيعون الانتـــأج للتسويق لانهم ضمنـــوا اللاستهلاك ، فيستطيعون من أجل ذلك أن يهتموا بالزائد لانهم ضمنوا الاساسى او لانهم متيقنـون من أن هذا الذى ينقصهم » •

وهكذا عوض الاسلوب التقليدى العتيق الذى يوافق مجتمعا شديد الالتحام بأسلوب تقليدى يائس متصل باقتصاد متهر وبمجتمع متفكك ، وخاص، بطبقة تحت بروليتارية (شغيلة) موثوقة الى ماض تعلم أنه قد مات ودفن •

وبعد اندثار كل امل الا جمع ما يسد الرمق ، بقى لافقر الفلاحين الاختيار بين الاتكال اليائس الذى لا علاقـــة لـه بالاسلام ، او الهجرة الضرورية الى المدينة او فرنسا

وعوضا ان تكون هذه الهجرة نتيجة لارادة ورغبة حقيقيـة، فى حياة المدن ، كانت فى اغلب الاحيان عبارة عن نهـــاية المطاف المحتوم لسلسلة من التخليات والهزائم ، فسنـــة غير صائبة تكفى لبيع الحمار والثيران ، وتقع القروض سربح عجيب لسد الدورة الفلاحية او لشراء الزريعة ، وفى الاخـير عند ما تكون كل الوسائل قد استنفذت لا تقع مغادرة المكان ، بل التخلص منه ، ابعد التعب والجهد الكـ.ر لتيسير العيش الطفيف ، يقع الاتجاه للمغامرة وتترك الارض للخماس ، وفى كل الحالات يكون الالتحاق بالمدينة ضرب من الفرار الى الامام يمليه البـــؤس

ان أغنى القوم ، الذين يملكون مقدارا من النقود ، فينوون الاقامة كثيرا بالمدن الصغيرة المجاورة التى تعودوا مخالطتها من أجل الاسواق (أو عند الذهاب الى الاسواق) فالتجارة مع الاعمال اليدوية التقليدية يكونان فى الحقيقة نمط النشاط الوحيد المناسب لملاك الارض ، الذين يرغبون فى عدم المروق عن العادة ،خاصة عند ما يبقون فى ناحية هم معروفون فيها ٠ والملاك الصغار السابقون الذين فقدوا أرضهم والخماسة القدماء أو العمال الزراعيين الذين ليس لهم ما يؤهلهم لحياة المدينة ، والذين لا يملكون لا المرافق ، ولا الصلاحيات اللازمة للتعود عليها لا يطمحون الا (الى حالة) الاجير اليومى أو البائع الصغير المتنقل أو البطال الذى ينتظر « جنة » العمل الدائم ٠

ولم تزد الحرب وخاصة التجميعات الا فى بؤس الجماهير الريفية ٠ فالغير مأجورين الذين يعدون بـ 560 000 تقريبا فى سنة 1954 من ملاكين ، وخماس (وشريك) أصبحوا فى سنة 1960 الا 373 000 أى وقع نقصان بنسبة 33٪ وفى خط موازى نزل عدد المأجورين من عمال قارين وغير قارين الى 421 000 أى وقع نقصان بنسبة ٪ 28 وليس هناك شك من أن قسم من الفوارق يرجع الى أن عددا من الفلاحين او العمال الزراعيين قد سجلوا أنفسهم عاطلين عن العمل فى سنة 1960 سواء لانهم فقدوا جزئيا أو كليا عملهم أو لانهم اتخذوا ازاء أشغالهم موقفا جديدا ، وعلاوة على هذا فانهاء تحطيم التوازن الاقتصادى بتحطيم الاتزان الزمانى والمكانى اللذان يكونان هيكل كل الوجود الاجتماعى ، وبتفتيت الوحدات التقليدية ، تكون التجميعات قد قوت الهجرة الى المدن ، فراد لايملكون شيئا تمكن خسارته ٠ فبين سنة 195-1960 ازداد عدد سكان المدن والقرى بـ67٪ فى عمالة الجزائر بـ 63،1 بعمالة قسنطينة و بـ48٪ بعمالة وهران، وأهمية التزايد الملاحظ مرتبطة بوجود المدن المتمتعة، تقليديا، بجاذبية شديدة ،كالجزائر، ومرتبطة خاصة بأهمية حركة التجميع فى الناحية المذكورة وهكذا تكون هذه قد أدت الى تغييرات لارجعة فيها فى النظرة الاقتصادية، فى نفس الوقت الذى سرت فيه عدوى الحاجيات ، فالاحتكاك بالمدينة قد طور الوعى بالفوارق (التى هى فى ازدياد) الموجودة بين مستوى العيش فى المدينة والريف حيث يسود التخوف من قلة التغذية ، والفقر فى الوسائل الطبية والاجهزة المدرسية ٠

فكان اريفيون الذين أقاموا فى المدينة أحسوا بصورة ملموسة ما أثبتته الاحصائيات موضوعيا من أن المدن وخاصة الكبيرة منها تسمح بفرص أكثر في التشغيل ، أى بعمل حقيقى بالنسبة للفلاحة التى لا تأتى تماما (او الا قليلا) بالنقود، وهكذا يبدو العمل بها وكأنه شغل للوقت لا عمل وبأنها تضمن أجورا منتظمة وأكثر ارتفاعا وخاصة الكبيرة منها ، حيث توجد المنشآت العصرية ، وأخيرا بأنها تسمح بحياة أكثر رفاهية اذ أن الاستهلاك فى المدينة يفوق الاستهلاك فى الريف فالتاجر مثلا فى المناطق المدنية يستهلك ما قدره 96،5 للشخص الواحد فى الشهر بينما يستهلك التاجر الريفى 65،97 فقط ٠ وهكذا سواء كان بطريق مباشر أو غير مباشر يعنى سوله .بزيادة الهجرة الى المدن وبمعاونة انتشار النمط المدنى أو بطريقة مباشرة ، بنزع الفلاحين عن قروض وجودهم العادية وباحداث فجوة حاسمة مع الروتين التقليدى ، قد أسرعت التجميعات من (لا تريفة) التى كانت قدم ابتدأت بعد ٠

الاهانة و الاستهانة :

لقد أتمت الحرب والقمع ما بدأته السياسة الاستعمارية وانتشار التعامل النقدى٠والنواحى التى أصيبت أكثر من غيرها فى هذه المرة هى النواحى التى نجت نسبيا حتى الآن ، لانها بقت فى مأمن من أعمال الاستعمار،فقد استطاعت فى الحقيقة المجموعات الريفية الصغيرة الموجودة فى المناطق الجبلية ، والمنكمشة على نفسها والمخلصة باصرار لتقاليدها ، أن تحافظ على الخطوط الاساسية لثقافة لا نستطيع اليوم الكلام عنها الا بصفة الماضى ، كما هو الشأن «بالقبائل والاوراس والنمانش والببون والهدنة والاطلس المتيجى وسلسلة التيترى والورسنيس» أين بقيت الثقافة التقليدية نسبيا غير متغيرة على الرغم من حجز الاراضى الذى وقع مع الثورات وعلى الرغم من الاكثار من الوحدات الادارية

الجديدة وغيرها من الاجراءات وعلى الرغم من التغييرات الناتجة عن العدوى الثقافية ، وفى سنة 1960 كانت المناطق الجبلية أين استطاع جيش التحرير الوطنى أن يتمركز بسرعة وبقوة قد أجلى منها كل سكانها ، وجمعوا فى السهول القريبة من الجبل أو ذهبوا للمدينة ، وكذلك مناطق الحدود ، وكأن الحرب أعطت الفرصة لتنفيذ النية الكامنة للسياسة الاستعمارية وهى نية عميقة التناقظ .

لقد ترددت السياسة الاستعمارية دائما بين هذه الاقطاب المتعارضة ، تشتيت (الفلاحة التقليدية) أو دمجها . تشتيتها لدمجها أم دمجها لتشتيتها ، بدون أن يقع الاختيار بوضوح ودون أن يتم تطبيقه بصورة منتظمة ، مما جعل المسؤولين المختلفين يحملون نوايا متناقضة فى نفس الوقت ، أو نفس المسؤول يحمل نوايا مختلفة فى أوقات مختلفة ، ان ارادة تحطيم بنيات المجتمع الجزائرى قد استطاعت فى الواقع أن تستلهم من اديلجيات متعارضة : احداها تسيطر عليها المراعات البالغة لمصلحة المعمر ، والاغراض الاستراتيجية والتكتيكية أو التبشيرية قد عبرت عن نفسها فى كثير من الاحيان بكل وقاحة ، والاخرى ادماجية أو تذويبية لست أكثر سخاء الا فى الظاهر .

وبالنسبة لبعض المسؤولين الذين يحدوهم اهتملم مسيطر ، «كسب الاهالى» يحدد دور الجيش بهذا «الثالوث : يحمى ، يلزم ، ويراقب» «ويكتب الآن جاكوب» : الحماية هى قبل كل شىء ، التجميع وفى كل تجميع «خلية عسكرية» عسكرى لكل ثلاثين أو أربعين شخصا ليضمن الحماية القريبة ، ويحصى السكان ، ويقيم المذكرات ، والقيام بالاستنطاقات المستمرة ، أما الالزام فهو يتبع «بنية» الاهالى ، مما يفترض مسؤولين قد تكونوا فى مراكز خاصة (....) وفى الاخير فان المراقبة الشاملة والمستمرة وحدها هى التى تسمح لهذه الطرق بأن تعطى ثمارها» . وبعض «النظار» فى العمل النفسى ذهبوا الى أبعد من هذا اذ يرون فى التحطيم المنظم وسيلة لتكسير المقاومة .

وتتعارض مع هذه الاديولوجية التى تسيطر عليها الاعتبارات الاستراتيجية والتكتيكية ، ذات النزعة الانسانية المتمثل فى ضابط « SAS » كما يعرف رسميا ، فهو فى نفس الوقت بناء، ومعلم بالمدرسة ، وشيخ بلدية وفى بعض الاحيان طبيب : فاحلال السكان الذين كانوا متفرقين أو فى مواقع نائية حيث كان فى قرى مجهزة بمرافق خاصة جماعية موجودة حول محاور المواصلات كان المقصود من كل هذا «احداث تغيير مريح» .

وباختصار ان كانت التجميعات قد استعملت فى الاصل «للقبض» على الاهالى ومراقبتهم وذلك بوضعهم بمقربة من مركز عسكرى ، فقد اعتبرت شيئا فشيئا من طرف البعض كـ «عامل تحررى» كان يسمح به ، وفى الواقع مهما تكن نية الافراد،فان «العمل الانسانى» يبقى موضوعيا سلاح حربى موجه الى مراقبة الاهالى .

ولم يجد الاستعمار ملجاه الاخير الاديولوجى فى التصريحات الادماجية ، بمحظ الصدفة ففى الحقيقة لا تتعارض التفرقة العنصرية المحافظة على الادماج الا ظاهريا .. ففى حالة يستظهر بالفروق الموجودة فى الواقع لرفض التساوى فى الحقوق ، وفى الحالة الاخرى ترفض الفروق الموجودة فى الواقع باسم التساوى فى الحقوق ... فاما أن تمنح مرتبة الرجل ، ولكن للمتفرنس فقط ، واما تعطى هذه المرتبة وذلك بأن يستظهر بالطابع الخاص لحضارة المغرب العربى ، ولكنه طابع خاص كله سلبى مسبقا .

والمسؤولون الاداريون أو العسكريون لا يتصورون سخاء أكثر من اعطاء الجزائريين حق أن يكونوا ما يجب أن يكونوا . أى على صورة الاوروبيين وهذا فى النهاية رفض لما هم عليه فى الواقع ، فى طابعهم الخاص ، كأناس خاصين مشاركين فى ثقافة خاصة ــ وذلك لانهم سجناء المصالح الاستعمارية أو «العالمية المكثفة للحضارة الغربية»كما تسمى ذلك «روث‌بندكتت»

ويستطاع من هنا أن يتخلى عن مساعدتهم لجعلهم تابعين ، أو أن يعطى لهم كيانا على شرط أن يكفوا عن صيغة وجودهم الحالية .

ان رفض ـ عن وعى أو غير وعى ـ الاعتراف بأن للجزائر ثقافة خاصة ووطنا ، وبأنها أمة استعمل دائما كأساس لسياسة متضاربة جاهلة لقوتها وضعفها ، قادرة على تقويض النظام القبلى ، وغير قادرة أن تضع فى مكانه نظاما أحسن ٠

فهذه السياسة التى تجمع بين الوقاحة وعدم الوعى ، تسببت فى تخريب الاقتصاد الريفى وانهيار المجتمع التقليدى وجدت ذروتها فى تجميع السكان ٠

وعلى الرغم من أن المبادرة الواسعة قد تركت فى أغلب الاحيان لسلطات ثانوية ، فان قرى التجمع تتشابه كلها فى الخطوط العامة ، لانها ناشئة عن تطبيق أنماط لا شعورية ، تلك التى كانت طاغية منذ قرن مضى ٠ فرق الاستعمار أكثر من نشوئها عن نظرية صريحة أو ضمنية٠ لقد كانت الجزائر ميدان تجارب : ان اطارات الجيش التى كانت تتمتع فى أغلب الاحيان بسلطة مطلقة ، قد قررت كل شىء : موضع القرية ، وهندستها ، واتساع شوارعها والهيأة الداخلية للمنازل ٠ متجاهلين أو يريدون تجاهل القوانين والانماط التقليدية غير راغبين فى استشارة الاهالى المعنيين الذين وضعوا فى ظرف كانوا فيه يرفضون ضمنيا أى استشارة على فرض وقوعها ٠

فكل شىء قد وضع تحت شعار الزى ، والاصطفاف : فهذه المنازل المبنية حسب قواعد ومواقع مفروضة ولها طرق طويلة وعريضة ومستقيمة ، أتحكى المخطط الرومانى ؟ أم قرى الاستعمار ؟ ففى الوسط توجد الساحة ، مع الثالوث المميز للقرية الفرنسية ، المدرسة ودار البلدية ، والنصب التذكارى للموتى ، نستطيع أن نقول ان ضباط (الصاص) المغرمين بالهندسة لم يكن ينقصهم الوقت ولا الوسائل لاستعمال محل التجارب ٠

ان الضباط الذين يخامرهم شعور بانهم يطبقون أمرا عظيما وهو «تطوير الجماهير»وتهزهم عاطفة التنظيم والخلق مستعملين فى بعض الاحيان كل حماسهم ووسائلهم فىهذه العملية، يعبرون فى الواقع وبدون استثناء عن أحلام لا شعورية للتنظيم هى وليدة لجنون الهيمنة الشاملة والمنظمة ٠

والكل يمر ، وكأن المستعمر اكتشف بغريزته القانون الاتلوجى الذى يعتبر اعادة تنظيم السكنى ، يؤدى الى تغيير شامل للمنظومة الثقافية ٠ والسيد «لفى ستراوس» يلاحظ مثلا أن تغيير السكن الذى أجبرت عليه قبائل البرور كان الوسيلة الاكثر فعالية لتغيير معتقداتهم ٠

فاعادة تنظيم أماكن السكن قد فهمت بغموض على انها الطريقة الفاصلة لمحو الماضى وذلك بفرض اطار جديد وطبعه على التربية اشارة ورمزا لملكيتها ٠

فان كانت سياسة «الحشد» قد لاقت عند العسكريين قبولا حماسيا واسعا ، فذلك لانها تحقق حلما قديما قدم الاستعمار ألا وهو «تغيير (كما يقول   واعادة بناء (كما يقول الكولونات) مجتمع باسره ٠

ويستشهد مصطفى الاشرف بالنقيب ريشار الذى نادى منذ عام 1945 بالحشد المكثف للاهالى الجزائريين : **«ان اول شىء يجب أن نقوم به لننزع للمشوشين سلاحهم هو تجميع أجزاء الشعب المفرقة ، وتنظيم كل القبائل القابعة فى الزمالات ، وان نفصل بين الدواوير المختلفة بحاجز من شجر الشوك (السدرة) أو أى نبات آخر ٠ وان نحيط كل زمالة بخندق مملوء بالاشواك» ، ثم يزيد : «ان الاساس هو حشد هذا الشعب الموجود فى كل مكان والذى لايعثر على مقر له ، ان الاساسى هو أن نجعله فىقبضتنا وعند ما نمسكه سوف نستطيع حينئذ القيام بعدة أشياء مستحيلة علينا اليوم ، قد تسمح لنا بالاستيلاء عليه معنويا بعد أن استولينا عليه ماديا»** ٠

ان الامور الثابتة فى السياسة الاستعمارية ليس فيها ما يدهش : فالظروف المتماثلة تفرز نفس الطرق رغم فارق قرن من الزمن ٠

ان سياسة الحشد تمثل النتيجة المرضية للازمة الخانقة للجهاز الاستعمارى ، كما انها تعبر فى جلاء عن الرغبة المرضية المستولية على هذا الجهاز ٠

من مشاكل الشعوب النامية :

الهجرة الخطرة

موسى بن عمار

مشاكل الشعوب النامية كثيرة كما هو معلوم ، وقد اخذت الدول النامية تتحسس هذه المشاكل وتبعثها كلما ازداد الوعى فيها واليقظة لدى افرادها وشعوبها . وان الحديث عن مشاكل الدول النامية لا يكاد ينتهى لكثرة هذه المشاكل وتنوعها وحاجتها الى الحلول السريعة وطابع الالحاح الذى تكتسيه ؛ وقد كثر الحديث فى الفترة الاخيرة عن واحدة من اهم المشاكل التى تتعرض لها الدول النامية فى هذه المرحلة الصعبة من حياتها ، الا وهى مشكلة « هجرة العقول » او الكفاءات كما يسمونها من هذه الدول الى الدول المتقدمة صناعيا حتى كاد ذلك أن يكون موضوع الساعة الذى لا ينتهى الحديث عنه .

هذه المشكلة من المشاكل الهامة التى تواجه الاقطار النامية وهى لا تقل عن مشاكل التنمية، والتعليم ، والتصنيع ، والصحة ، وغيرها من مشاكل هذه الاقطار ان لم تفقها فى الاهمية . وهى لذلك تستحق كل عناية واهتمام من الباحثين والمهتمين سواء فى هذه الاقطار أو فى غيرها .

ومن المعلوم أن حضارات الشعوب متفاوتة بقدر تفاوت هذه الشعوب فى امتلاك الكفاءات الحسنة والاطارات الصالحة تقريبا ، وهذا يعنى أن التفاوت بين الامم راجع الى الامكانيات البشرية بالدرجة الاولى قبل الامكانيات المادية أو غيرها من الامكانيات ، وقد يظن الناس ان القوة المادية هى الفارق بين الشعوب فى القوة والضعف والتقدم أو التخلف ولكنهم ينسون أن الانسان هو الاساس فى كل ذلك ، فهو البذرة التى ان صلحت صلحت الامة كلها حتى ولو كانت الظروف الطبيعية غير صالحة وان فسدت فسدت الامة كلها حتى ولو كانت الظروف الطبيعية صالحة ومواتية . ولذلك كانت الشعوب النامية أحوج الى الانسان الصالح والمثقف الممتاز ، وكانت

هجرة العلماء والمثقفين منها الى الدول المتقدمة يكبدها خسائر فادحة ويعتبر من أهم المشاكل التى تعانيها هذه الشعوب وأكثرها حساسية وأشدها ضررا .

يقول قسطنطين زريق فى كتابه **«فى معركة الحضارة»** : «اذا أردت أن تقيس القدرة الحقيقية لاى مجتمع من المجتمعات فاسأل عما يضمه من أيد وسواعد مدربة ومن عقول مجهزة منظمة . اسأل عن عدد الفنيين فى الزراعة والصناعة والتجارة والمهندسين ورجال الميكانيك والكهرباء والنقل والمواصلات والاطباء والصيادلة والمعلمين وأمثالهم من المختصين فى شتى حقول التطبيق. فبارتفاع مستوى هؤلاء ووفرة عددهم تقوم قوة الشعوب المتقدمة اليوم قبل أن تقوم بمظاهر التقدم المادية . ان هذه الثروة البشرية المكتسبة هى من أبلغ الادلة على تقدم المجتمع ومن أهم المقاييس لتقدير تحضره» .

ويجدر بنا أن نلاحظ هنا أن مشكلة هجرة العقول فى الحقيقة غير مقتصرة على الدول النامية وحدها بل انها مشكلة عامة وظاهرة عالمية ؛ فاذا كانت الشعوب النامية تشكو من هجرة أبنائها المتعلمين الى اوروبا وأمريكا فان الدول الاوروبية نفسها تشكو من هجرة أبنائها الى أمريكا شكوى لا تقل عن شكوى الدول النامية ، ولكن لاشك ان الذى يتضرر من هذه الهجرات أكثر هى الشعوب النامية لشدة حاجتها الى رجالها المختصين ولشدة الخسائر التى تتكبدها فى تخريجهم من المدارس واعدادهم للحياة المثمرة ، ولتخلفها عن الدول المتقدمة بمراحل كثيرة .

ملامح من هذه الهجرة

ان البلدان المتقدمة صناعيا تملك أنواعا شتى من الاغراءات تجعلها منطقة جذب للعلماء والمختصين وذوى المواهب على اختلاف أنواعهم بينما الظروف الخاصة بالدول النامية تجعل هذه البلدان منطقة دفع لهؤلاء العلماء . وسبب ذلك أن الانفجار الصناعى والتقدم التقنى فى الدول الصناعية قد خلق حاجة متزايدة الى الفنيين والعلماء المختصين مما جعل هذه الدول تجذبهم بمختلف أنواع المغريات وأساليب الدعايات حتى ان بعض الشركات والمؤسسات فى الولايات المتحدة تبعث بسماسرة خصوصا لاقتناص الفنيين والعلماء من البلدان النامية أو من أروبا واغرائهم بالذهاب الى أمريكا والتعاقد على العمل لصالح تلك الشركة أو المؤسسة بعروض مغرية وشروط حسنة،وكثيرا ما تنجح فى ذلك . هذا بينما التخلف الصناعى والتجارى الموجود فى البلدان النامية لا يتيح الفرص الملائمة لنشاط العلماء فى بلدانهم الاصلية ولا يشجعهم على إستغلال مواهبهم بطريقة مرضية بل كثيرا ما تكون الظروف فى بلدانهم الاصلية عاملا مثبطا لهم ومعاكسا لنشاطهم بحيث لا يصبر على هذه الظروف المعاكسة الا من قويت فيه الروح الوطنية وتغلبت على الانانية فاختار التضحية بمصالحه الشخصية فى سبيل الوطن ، وهؤلاء أقلية قليلة بطبيعة الحال .

واذا كانت أروبا متقدمة بالنسبة الى دول العالم الثالث فان الولايات المتحدة ــ بالمقابل ــ متقدمة بالنسبة الى أروبا فى مجال الصناعة ، وأروبا نفسها تعانى من أجل هجرة العلماء والفنيين منها الى أمريكا بنفس الدرجة تقريبا .

فقد دلت الاحصائيات على أن أمريكا هى أول دولة تجتذب الكفاءات من سائر أنحاء العالم ، ثم تأتى بعدها بريطانيا ثم بقية الدول الاروبية. ودلت الاحصائيات أيضا على أن هجرة الفنيين من أروبا الى أمريكا قد زادت عما كانت عليه ست مرات فى العشر سنوات الاخيرة وان المشكلة آخذة فى التفاقم والازدياد يوما بعد يوم . ومن الحقائق المدهشة التى أظهرتها الاحصاءات أنه يوجد فى مدينة نيويورك وحدها من الاطباء الايرانيين مثلا ــ المتخرجين من جامعات أمريكية أكثر مما يوجد منهم فى ايران كلها . وان عدد المهندسين الموجودين فى أمريكا من ايران وفورموزا وكوريا الجنوبية يفوق عدد العاملين منهم فى بلدانهم . ودلت الاحصائيات على حقيقة رهيبة أيضا وهى أن الاطباء العاملين فى الولايات المتحدة وبريطانيا وكندا هم أكثر من الاطباء العاملين فى جميع الدول الاخرى فى العالم كله

أما فيما يتعلق بالعالم العربى فقد دلــت الاحصاءات والــدراسات على أن هجرة الكفاءات منه فى تزايد مستمر بشكل يهدد مستقبلـه تهديدا حقيقيا ويؤثر على حركة التطور فيه بشكل ظاهر·فان 70٪ من العلماء العرب الذين يدرسون أو يتدربون فى أروبا وأمريكا لا يعودون أساسا الى بلدانهم وان 80٪ من الطلاب الاردنيين الذين يتعلمون فى الغرب لا يعودون الى بلادهم ، وان جميع الطلبة اللبنانيين فى أمريكا قد قرروا عدم العودة الى بلادهم بعد التخرج ، وان من بـين 120 طالبا يخرجون من المملكة السعودية كـل عام للدراسة فى الخارج لا يعـود الا حوالى 30 منهم ، وان نسبة العلماء المصريين الذين فضلوا الحياة فى الخارج تبلغ 58٪ من مجموع المصريين الذين يعيشون خارج بلادهم ·

فهذه الحقائق المدعومة بالارقام تبين كيـف أن الدول النامية تخسر خير أبنائها الـذين جعلتهم عدة للمستقبل وأساسا للبناء وتبـقى صفر اليدين فى الوقت الذى تتمتع بخـيراتهم دول وبلدان أخرى لم تنفق على تعليمهم ولم تتعب فى تخريجهم واعدادهم · وفى هذه المشكلـة الخطرة يقول قسطنطين زريق فى كتابه المتقدم : «انه لمن المؤسف حقا أن جزءا غير قليل مـن المواهب التى ننميها لا يبقى لنا بل يجد سبيله الى مواطن اخرى مع جسامة ما يكون قد كلفنـا اعداده وشدة حاجتنا اليه · ذلك أن فريقا من شبابنا الذين يذهبون الى مـواطن الاختصـاص ويقضون فيها سنوات للتهيىء والتجهز ، امـا انهم يبقون فيها،أو اذا عادوا الى بلادهم لايجدون مجالات وافيـــة لنشاطاتهم أو اجـواء تقـدير وتشجيع فلا يلبثون ان يتسربوا الى الخــارج وتحرم بلدانهم فى الحالين امكان الافادة مـن القدرات التى حصلوها» ·

أسبــاب الهجـرة :

بعد أن عرضنا الظاهرة وألقينا ضوءا كافيـا على طبيعتها وظروفها نود الآن أن نعرف الاسباب الكامنة وراءها أو على الاقل بعض هذه الاسباب وان كنا قد أشرنا الى بعضها عرضا فى السطور الســابقة ·

1 ــ ان أهم عمل يأتى فى المقــدمة هو أن **الفنيين والعلماء فى بلدان العالم الثالث لا يجدون اعمالا تناسب اختصاصاتهم فى بلدانهم الاصلية** فكم من مهندس أو عالم فى الذرة أو غيرها مـن فروع الهندسة لا يجد العمل فى مجال اختصاصه فيضطر الى الهجرة الى البلد الذى يقدر مواهبـه ويفتح له المجـال واسعا ليمارس اختصاصــه ويشبع رغباته الطبيعية وميوله·وهذا فى الحقيقة سبب أو عامل مزدوج تشارك فيه البلــدان المتقدمة والبلدان النامية على الســواء · فـفى البلدان المتقدمة نجد طلبا كبيرا على العلمــاء والفنيين لان الثورة الصنــاعية تطلبهـم بالحـاح نظرا لاحتياجاتها الكثـيرة الى أمثالهم فتصبـح هذه البلدان منطقة جذب لهؤلاء العلماء كما قلنا سابقا · بينما نجد العكس تقريبا فى البلـدان النامية حيث لا يجد الكثير من العلماء والفنيين أعمالا تناسب اختصاصاتهم فتصبح هذه البلدان منطقة دفع لهـؤلاء العلماء تحملهم على الهجـرة وتدفعهم اليها ، ولهذا قلنا ان هذا السبب مزدوج تتوزع المسؤولية فيه بين الدول النامية والدول الصناعية على السواء · ومن المتناقضات العجيبة أن يصبح خريجو الجامعات فى كثير من البلدان النامية يمثلون نسبة كبيرة من البطالين والعاطلين عن العمل حتى انه فى الهند وحدها قد بلـغ عدد العاطلين من خريجى الجامعات مليونا ونصف مليون وهى نسبة هائلة تدعو الى العجب ، وما ذلك الا لان المرحلة الصناعية التى تمر بهــا بلادهم تجعلهـا غير قـادرة على استيعـابهم فى تخصصاتهم العلمية ولا على اتاحة الفـرصة لهم ليجدوا أعمالا تنـاسبهم ·

2 ــ السبب الثانى الذى يشبه الاول بعض الشبه هو أن العلماء لا تتوفر لهم وسائل البحث العلمى فى بلدانهم الاصلية فيصيبهم ذلك بالجمود والبطالة وقد يؤدى الى القضاء على مواهبهم فيفضلــون الهجرة الى البلدان الصناعية حيث المجال رحبا والوسائل متوفرة هروبا من الموت العلمى ان صح هذا التعبـــير ·

3 ــ وهناك العامل المادى بلا شك وهو من أهم العوامل أيضا حيث يجد العلماء اغراء متزايـدا من طرف الـدول المصنعة يدفعهم الى تـــرك

اوطانهم والتخلي عن واجباتهم أحيانا • وقد بينت الدراسات أن المهاجرين الى أمريكا من الفنيين والعلماء تبلغ مرتباتهم فيها ستة أضعاف مرتباتهم في بلدانهم الاصلية وان المهاجرين من العلماء الى أوروبا تبلغ مرتباتهم فيها ثلاثة أضعاف مرتباتهم في بلدانهم الاصلية ، وهكذا يظهر الفارق في المرتبات كبيرا جدا ويشكل اغراء لا يقهر •

4 ـ ولا ننس ان من أهم الاسباب المشجعة لهذا النوع من الهجرة هو ما يسمى ، **بالارتباط الثقافي** ، وهو يمثل احدى الاسباب المساعدة على الهجرة خصوصا الى الدول الاستعمارية القديمة مثل فرنسا وانجلترا والمانيا وهولندا وغيرها • فالمثقفون في مستعمرات فرنسية قديمة هم مرتبطون بفرنسا بحكم الرباط الثقافي ولذلك يهاجرون اليها ، بينما المثقفون في مستعمرات انجليزية او امريكية يهاجرون الى الى أمريكا وبريطانيا بحكم الحنين وسهولة التفاهم والتأثر الثقافي •

5 ـ ومن الاسباب الهامة لهذه الظاهرة ، **عدم الاستقرار السياسي وتوالي الثورات والانقلابات وكثرة القلاقل في البلدان النامية بحكم المرحلة الانتقالية التي تعيش فيها هذه البلدان ،** مما يخلق جوا من عدم الاستقرار وكثيرا ما يفقد الثقة بالمستقبل والاطمئنان على المصير ويحمل بعض الناس على الهجرة الى البلدان الاكثر استقرارا وهدوءا •

6 ـ ولا ننس أيضا أن **الرجعية في التفكير والعمل والسلوك في النظم الاجتماعية والسياسية ومختلف المؤسسات لا تزال تسود في أغلبية البلدان النامية** ، مما يخلق جوا من عدم الانسجام بين المثقف وبيئته المتخلفة التي تسيء الظن به وبأفكاره دائما وحتى بسلوكه ونظريته الجامعية في البلدان وعدم توافر أسباب البحث العلمي ووسائله ، والروح البيروقراطية السائدة فيها ، وتحكم الروتين الاداري ، ونظم الترقية والتوظيف المبنية على المحسوبية وعدم مراعاة الكفاءات واحترام المواهب •

هذه بعض أسباب هجرة العلماء من البلدان النامية الى البلدان الصناعية أوردناها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر والتقصي ، وأعتقد أن في ذلك ما يكفي لالقاء الضوء على هذه الظاهرة وانارة جوانبها • أما الآن فسنحاول أن نبين آثار هذه الهجرة على الدول النامية •

الآثار المترتبة على هذه الهجرة :

تترتب على هذه الهجرة آثار كثيرة ومختلفة وكلها ليست في مصلحة الدول النامية وسنحاول أن نوجزها فيما يلي :

1 ـ هناك اولا خسائر مالية كبيرة تتحملها الدول النامية من جراء هجرة الكفاءات منها ، وقد أشرنا الى ذلك سابقا •

وهذه الاموال تربحها بالمقابل الدول الصناعية مما يؤدي الى زيادة الغني غنى والفقير فقرا ويزيد في توسيع المسافة التي تفصل بين الشعوب المتقدمة والشعوب المتخلفة التي ترغب في اللحاق ، حتى ان الخبراء ورجال الاحصاء قد قدروا أن الولايات المتحدة تربح سنويا 2000 مليون دولار بسبب الاطباء الوافدين عليها من الخارج ، اذ كان تخريج كل طبيب يكلفها 20 مليون دولار فأصبح هذا الطبيب يأتيها جاهزا لا تتكلف في تخريجه أية نفقة ؛ وفي مقابل ذلك تخسر أمريكا اللاتينية والهند والدول النامية بصفة عامة هذا المبلغ الذي تربحه الولايات المتحدة نتيجة لهجرة هؤلاء الاطباء • وهذا المبلغ تربحه من الاطباء وحدهم فما بالك بالمهندسين والعلماء في شتى فروع المعرفة ؟

2 ـ ان هذه الهجرة تجعل التنمية تتخلف وتسير ببطء كبير في البلدان النامية التي هي في أشد الحاجة الى الاسراع وحرق المراحل بينما تزداد سرعة في الدول المصنعة المتقدمة وبذلك يزداد الفارق بين الشعوب وتقل فرص المساواة وتنعدم العدالة •

3 ـ ان هذه الهجرة تساعد على جعل التنمية في البلدان المتخلفة تعتمد دائما على المعونة الفنية التي تتلقاها من الدول الصناعية هذا في الوقت الذي تدل التجارب ويقرر الخبراء أن التنمية الحقيقية الناجعة لا بد أن تنبع من داخل البلد نفسه سواء في الكفاءات البشرية

والفنيين او فى الظروف الملائمة . ولذلك فان بعض المفكرين يرون أن هذه الظاهرة هى نوع من الاستعمار الجديد المقنع ؛ فالاستغلال الذى كانت تمارسه الدول الاستعمارية فى أشكال أخرى مثل سرقة ثروات البلاد وخاماتها وامكانياتها المختلفة أصبحت تمارسه الآن فى شكل جديد هو سرقة العقول والادمغة واقتناص الكفاءات البشرية من دول العالم الثالث مما يتركها عزلاء امام متطلبات الحياة الحديثة تعانى التخلف والسير البطىء . الا أن هذه التهمة تنطوى على شىء من المبالغة التى أملتها العاطفة بلا شك ، فمن الانصاف أن نعترف ـ كما تشهد بذلك الوقائع ـ بأن المتسبب فى هذا النوع من هجرة الكفاءات والعقول ليست هى الدول الصناعية تماما بل هو فى الحقيقة راجع الى ظروف كثيرة وأسباب مختلفة أكثرها نابع من داخل البلدان النامية نفسها كما رأينا ذلك بوضوح عند ما تحدثنا عن أسباب هذه الهجرة .

اقتـــراحات للعـــلاج :

لكل داء دواء ينبع من طبيعة الداء نفسه وان لم يكن ناجحا فى بعض الاحيان ؛ ولذلك فان اقتراحات العلاج يمكن أن نستقيها من أسباب الهجرة نفسها كما عرضناها آنفاً ، لانه بالقضاء على هذه الاسباب والعوامل يمكن أن يقضى على الهجرة نفسها بحكم ارتباط الظاهرة بسببها وجودا وعدما كما هو معروف ، وبذلك تنتهى هذه الظاهرة الجديدة التى تمثل شكلا من أشكال الاستغلال المسلط على الدول النامية ، أو على الاقل تخف شيئا فشيئا ان لم يقدر لها أن تزول تماما خصوصا فى الظروف الراهنة . ويمكن أن نورد فيما يلى عددا من الاقتراحات والحلول التى اتفقت على أغلبها معظم وجهات النظر بالنسبة للمعنيين بهذه القضية :

1 ـ ان النقطة الاولى التى يتفقون عليها والتى يمكن أن تشكل حلا جديا وناجعا هى قضية اعادة النظر فى سياسة التعليم والتربية فى المدارس والجامعات من جهتين :

أ ـ فمن جهة ينبغى أن يقع التوفيق بين احتياجات البلاد النامية وبين الميول الفردية فى الدراسة فيوجه الطلاب الى الفروع التى تكون حاجة البلاد اليها أكثر وأشد الحاحا . وقد تنبه المفكرون الى هذه القضية منذ وقت مبكر حتى قال توفيق الحكيم فى مقال نشره سنة 1938 بصدد هذه القضية ، وهو موجود فى كتابه «تحت شمس الفكر» : لقد قيل ان فتح أبواب التعليم على مصاريعها فى بعض الكليات لا يؤدى فى مصر الى خير ، لماذا ؟ .. لان النشاط التجارى أو الصناعى الذى يستوعب فى أوربا أكثر الخريجين متخلف فى بلادنا عن النشاط العلمى النظرى ، لا بد اذن من ايجاد نوع من التنسيق بين نشاطنا التعليمى ونشاطنا الاقتصادى» .

ب ـ ومن جهة أخرى ينبغى تغيير سياسة التربية فى المدارس منذ المرحلة الإبتدائية فلا يكتفى بالتعليم وحده بل لا بد من ادخال التوجيه الوطنى والتوعية القومية فيدبى التلميذ على حب الوطن وفهم وضعيته المتخلفة ومشاكله الكثيرة ومرحلته الحضارية التى تتطلب العمل المخلص لتخطى الواقع المتردى والنهوض من التخلف المزمن بحيث تتحول هذه الافكار الى سلوك وأخلاق ولا تبقى فى حيز النظريات . وليس هذا من قبيل الاحلام التى لا تتحقق ولا تنجح فى الواقع العلمى ، فقد سبق لبعض الامم الحديثة مثل اليابان وألمانيا وايطاليا أن نجحت فى مثل هذا التوجيه فى فترات معينة من حياتها، ومع أنها استغلت ذلك فى أغراض حربية غير انسانية الا أن التجربة مع ذلك تبقى دليلا على امكانية النجاح فى مثل هذا التوجيه الذى أشرنا اليه ووجدت الوسائل الكفيلة بانجاحه . ولكن هذا طبعا متوقف على أن تكون الحكومة ثورية شعبية تقدمية تفهم مشاكل الوطن وتدرك أبعادها وتعمل على حلها والا لم يمكن تطبيق مثل هذه السياسة فى التعليم .

2 ـ يمكن أن تعطى الوظائف المناسبة والاجور المغرية لكل الاخصائيين العائدين الى بلادهم أو المتخرجين منها وخلق الفرص امامهم للبحث المثمر والعمل الجدى حتى يتخلصوا من الضياع المادى والمعنوى الذى يجدون أنفسهم فيه فى كثير من الاحيان مع محاولة خلق الجو المناسب لهم فى أعمالهم وظروف حياتهم ٠

3 ـ ينبغى أن تكون الدولة التى ترسل طلبتها للدراسة فى الخارج على اتصال مستمر بهؤلاء الطلبة للعمل الدائم على توعيتهم وربط عواطفهم وأفكارهم بوطنهم وتوجيههم باستمرار نحو قضايا الوطن فى مرحلته التاريخية الصعبة التى تجتازها البلاد وتحاول فيها اللحاق بركب المدنية الزاحف الى الامام والمتصارع دوما من أجل اثبات الوجود الفعال المجدى ٠

* * *

هذه بعض وجوه المشكلة واسبابها وبعض اقتراحات لعلاجها ، وان كنت اعتقد ـ كما توحى بذلك الظروف ـ ان المشكلة لن تحل حلا جذريا الا بالتقدم العام الذى ستحصل عليه المجتمعات النامية فى المستقبل حين تصبح الصناعة والتجارة والخدمات العامة ـ كما قال توفيق الحكيم ـ قادرة على أن تستوعب الفنيين والاخصاصيين ، وعند ذلك فقط ستضعف هذه الظاهرة وربما تختفى نهائيا ، وحتى ذلك الحين ستبقى سياسة اقامة التوازن فى التعليم بين الميول الفردية فى الدراسة والتخصص وبين احتياجات البلاد هى احسن حل لهذه المشكلة ٠

جورج لوكاتش

الفيلسوف الانسانى المتحرر



□ جورج لوكاتش □

نبيهة تربش

توفى فى الشهر الماضى جورج لوكاتش عن عمر يناهز السابعة والثمانين • وهذه نبذة عن حياته وبعض أفكاره أخذناها بتصرف عن مقدمة الترجمة الفرنسية لكتابه : «التاريخ والوعى الطبقى» لكوستاش اكسلوس •

ولد جورج لوكاتش فى الثالث عشر من شهر أبريل1885 ببودابست من أبوين ينتميان الى الطبقة النبيلة المجرية ، فتمكن من متابعة دراسته دون انقطاع ، وأسس وهو لا يزال طالبا ، مسرحا حرا ببودابست ، بمساعدة اصدقائه استعرض فيه انتاج كتاب واقعيين وطبيعيين ، وفى سنة 1908 نشر «**تطور الدراما الحديث**» باللغة المجرية وهذا هو كتابه الاول ، ثم بدأ يتردد على جامعات برلين ، وجنوب غرب ألمانيا فتعرف على زملاء وأساتذة كبار من بينهم الفلاسفة : هسرل ، وياسبرس ، وهيدغر ، وعلماء الاجتماع ماكس فيبروموونهايم ، والكتاب : غندولف وتوماس مانه ووطد علاقته ببعضهم ، فكان هذا بمثابة اتصال مباشر مع الكانتية المحدثة ، والفينومنولوجيا والهلجية الماركسية وعلم الاجتماع ، واستطيقا الاشكال والمحتويات •

وفى سنة 1911 نشر باللغة الالمانية «**الروح والاشكال**» جمع فيها باكورة مؤلفاته ·

وبينما رحى الحرب العالمية الاولى دائرة بدأ يتقرب من الحركة العمالية ، وبعدها عاد الى المجر وانخرط فى الحزب الاشتراكى وشارك فى الجمهورية السوفياتية الاولى واسند اليه منصب محافظ الثقافة الشعبية فى حكومة بلاكون ، ثم غادر المجر بعد الهزيمة وعاش حيث الف كتاب « **التاريخ والوعى الطبقى** » وكتبا أخرى ·

كما مكث بألمانيا الا أنه اضطر لمغادرتها نهائيا بعد انتصار الاشتراكية الوطنية الجأ الى موسكو التى كان قد قضى بها سنتين،وراح يشتغل فى المعهد الفلسفى بأكاديمية العلوم ، وأخذ فى نشر عدد من المقالات ، وفى اعداد بعض الكتب التى تم طبعها بعد الحرب ، وعاد الى المجر سنة 1945 حيث عمل كأستاذ للاستيطقا بجامعة بودابست وبدأ ينشر مؤلفاته من بينها «**بالزال**» – «**استندال**» – «**زولا**» – «**نيتش والفاشية** – «**هيجل**» – «**ماركس وانجلز كمؤرخى الادب**» – «الواقعية الروسية فى الادب العالمى» – وجودية أم ماركسية» – نظرة سريعة حول تاريخ الادب الالمانى» – «غوتة وعصره» – تدمير العقل : وهو ينقسم الى : «بداية اللاعقلية الحديثة : من شلنج الى نيتشة» – و «اللاعقلية المحدثة : من دلتى الى توينبى» وغيرهم ·· وفى سنة 1949 بدأ لوكاتش يتعرض لهجوم الايديولوجيين ذوى النزعة الستالينية الذين يأخذون عليه التأثير البرجوازى البادى فى انتاجه ، وكان من أشد مهاجميه «روفية» تلميذه القديم وأحد مؤيديه المتطرفين فى السابق والذى أصبح فيما بعد وزيرا للثقافة، فلم يلبث لوكاتش أن رضخ واعترف بما وجه اليه وقام بنقده الذاتى واعترف بأخطائه ولم ينكر انه تجاهل قليلا الواقعية الاشتراكية والواقعية السوفياتية ونشر نقده الذاتى فى المجلة الايديولوجية الرسمية للحزب الشيوعى المجرى ، وعلى اثر هذا نشر كتبه المتعلقة « بالواقعية السوفياتية » – «وتدمير العقل» الذى يعتبر اشادة «فلسفية» لعبقرية ستالين ، ثم أصبح لوكاتش سنة 1956 من محركى الثورة المجرية ، فشارك فى حكومة ناجى الاولى بشغله منصب وزير الثقافة ثم كون مع «ناجى» و «كدار» و «دونات» وغيرهم لجنة تنظيم حزب شيوعى جديد مناهض لستالين تولى كدار مهمة تقديمه للشعب ·

ولكن بعد ان انتصرت الفرق الروسية لجأ كل من تاجى ولوكاتش ودونات الى سفارة يوغسلافيا بعد أن تحول عنهم كدار ، وفشلت جميع محاولات هذا الاخير الساعية الى استجلاب لوكاتش اذ ان لوكاتش البالغ الواحدة والسبعين رفض أن يذعن هذه المرة وأبى أن يقوم بنقده الذاتى والخضوع الى السلطة البيروقراطية التى تدعى الاشتراكية ، مما أدى الى نفيه الى رومانيا ، ولم يسمح له بالعودة الى المجر الا سنة 1957 ·

ان كتاب «**التاريخ والوعى الطبقى**» عبارة عن مجموعة دراسات حول الجدلية الماركسية وقد ظهر فى برلين 1923 ، وتعرض لهجوم عنيف من طرف بوخارين وزنونياف اثناء انعقاد المؤتمر الخامس للعالمية الاشتراكية سنة 1924 ·

وأصبح هذا الكتاب فيما بعد يدخل فى عداد الكتب الرجعية الاصلاحية الميثالية ، ولم يرفض لوكاتش هذا الحكم بل قبله بدون معارضة ، والاخطر من هذا انه أخذ فى الانتقاد ، ولم يتلق هذا الكتاب ضربات الماركسية اللينينية الارثودكسية فحسب بل هوجم كذلك من طرف الاشتراكية الديمقراطية ·

وتجدر الاشارة هنا الى أنه ظهر فى سنة 1923 كتاب «الماركسية والفلسفة» لكال تورش والذى يعد مع كتاب «التاريخ والوعى الطبقى» **المحاولتين الوحيدتين لتاسيس الاشتراكية بطريقة فلسفية فكان لاخفاقهما مغزى عميق ·**

وفى سنة 1924 هاجمت صحيفة **«البرافدا»** كلا من لوكاتش وثورش واستعرضت مبادىء الفلسفة الماركسية وهى التعريف الواقعى للحقيقة بكونها اتفاق الصور مع الاشياء التى توجد فى العالم الخارجى ، وقد انتقل كورش الى المعارضة اليسارية المتطرفة وقام سنة 1930 بطبعة ثانية منقحة لكتابه «الماركسية والفلسفة» ·

ان كتاب «التاريخ والوعى الطبقى» الذى يعد مؤلفا جوهريا حول التفكير الماركسى فى القرن العشرين قد اقصى عن التاريخ بدون أن يفرض أية سلطة على اليقظة البروليتارية ·

ان التيارات المختلفة قد قضت على هذا الكتاب بما فى ذلك الماركسية اللينينية الستالينية ، والاشتراكية الديمقراطية ، والتفكير اللينينى المتطرف ، والتفكير البرجوازى ، الا أن «التاريخ والوعى الطبقى» الذى لم يتبوأ مكانا فى سجل التاريخ الرسمى كان له أعمق التأثير فقد صبغ تيارات كثيرة وحركات البحث الفلسفى والاجتماعى والنفسى وحركات علم النفس المرضى·

ان لوكاتش قد غدا اخصائيا فى النقد الذاتى برفضه التضحية متبعا فى ذلك مسار العقلية الدكارتية والغاليلية ، وان تاريخ الفكر والايمان حافل بامثلة اولئك الذين ابوا ان يتراجعوا عن مواقفهم ولوكان ذلك على حساب حياتهم،فسقراط والمسيح وغيرهما قدموا حياتهم فداء لمبادئهم·

أفلا نجد «برتول برشت» يصرح على لسان بطله «غاليليه» ان رجلا مثلى لا يمكنه أن يحافظ على كرامته الا بالركوع» ·

ولكن أيمكننا أن نموت من أجل الحقيقة العلمية ، وأين تكمل الفعالية ؟ وهل ينبغى على الفكر النظرى أن يقدم أثمن التضحيات !

فمنذ بدأ الفكر يغزو العالم ، جلب المفكر لنفسه جميع الوان الهوان ، فهذه الضغوط الاجتماعية من جهة والاحزاب السياسية من جهة اخرى تحاول – كل فى مجاله وميدانه – ان تسيره وفقا لمصالحها وطبقا لمعتقداتها ·

ان المفكر بحاجة ان يصرح عاليا بآرائه،ولكن أيحتم عليه هذا ان يطاطىء راسه الذى يكون لصدى دويه اكبر الاثر فى حالة ما اذا عبر عن رايه ومات منتصبا ؟ غير انه يبدو ان عصرنا الحاضر والعصر المقبل عاجزان عن الاجابة عن هذا السؤال ، خاصة وان التقنية والانتاج والاستهلاك الماديين قد تركوا بصماتهم على كل ما هو كائن وسيكون ·

ان الهدف الذى يرمى اليه لوكاتش من وراء مؤلفاته هى الكلية ، والكلية التى يريدها ليست كلية العالم الخاضع للصيرورة وانما هى كيفية سير وتطور التجربة الاجتماعية والتاريخية التى تتكون وتكشف عن نفسها فى العمل الاجتماعى وفى كفاح الطبقات ·

فالكلية عنده بمثابة جمع لكل الاحداث المعروفة والتى هى من انتاجنا والفكرة المتغلبة عليه هى كونه يريد ابراز فكرة تاريخية جدلية مادية ونظرية للعمل الاجتماعى تعتمد بل تنبع من ضمير الطبقة البروليتارية ·

ان القضية الرئيسية عند ماركس وهى تجاوز الفلسفة كفلسفة عن طريق تحقيقها فى الواقع ، لا نجدها عند لوكاتش ، رغم أن ماركس قد وضع هذه المشكلة الجوهرية فى عدة مؤلفات كـان لوكاتش نفسه قد أشار اليها .

وهكذا أليس من الاجدر أن نبحث عند لوكاتش عن مشكل مصير الفلسفة ومستقبل الفكر اللذين لا يذوبان تماما فى التطبيق الواقعى،فان هذه القضية الخطيرة التى عرف هيدجر على الاقل كيف يطرحها لم تخطر أبدا ببال لوكاتش ، نجد أن المقولة الرئيسية التى يعتمد عليها لوكاتش هى مقولة الوساطة التى تكون الرابطة بين المباشرة المصطنعة والكلية الصائرة ، اذ أن الصورة التى يتخذها وعى الطبقة البروليتارية ، والقوة التى تنقل من المباشرة الى الكلية ، والعامل الموحد بين النظر والعمل هو الحزب بنظامه وقانونه «وبارادته الكلية الواعية» .

وبهذه الطريقة يجتمع فى الحزب التاريخ والتطور الاجتماعى ، ووعى الطبقة البروليتارية والتنظيم الثورى ويتحدون فيه . ان هم لوكاتش الاكبر هو جعل الكائنات والاشياء خالية من كل جوهر ومن كل معنى حى ، فهو يحول كل شىء الى بضاعة ، ان ما يسميه هيجل صيرورة الاستلاب ، وما يحلله ماركس الى مظاهر الاستلاب أو فيتيشية البضاعة ، يصبح عند لوكاتش خال من كل جوهر حى .

ان هذه الظاهرة التى أصبحت تغزو تماما العالم البرجوازى والرأسمالى ، من واجب الطبقة البرولتارية أن تضع لها حدا باستخدامها أداة قوية ألا وهى الحزب .

هذا ما يعتقده لوكاتش وما نجده خاصة فى كتابه «التاريخ والوعى الطبقى» .

كان لوكاتش فى المجال السياسى يعارض ديكتادورية الطبقة الكادحة بالديمقراطية الثورية ويستعيض عن صراع الرأسمالية والشيوعية بصراع القوى الديموقراطية ضد القوى اللاديموقراطية .

ان من أبرز مزايا جورج لوكاتش بالاضافة الى نزعته الانسانية الثابتة المتقدمة هذه المرونة الذهنية الرائعة التى تجعله يذود عن التراث الكلاسيكى لشعبه ولغيره من الشعوب فى وجه من ينعتونه بالتخلف والانحطاط والرجوع الى الوراء ، فى الوقت الذى يظهر للعالم الرأسمالى غنى الفكر الاشتراكى وخصوبته .

فهو محافظ بالمعنى الافضل لهذه الكلمة ، وثورى متفتح فى آن واحد .

• نــدوة فلسـفيـة •

الفكر الفلسفي الإسلامي

نظم قسم الفلسفة ندوة فلسفية في شهر ماى الماضى كان موضوعها « الفكر الفلسفى وتحديات الفكر المعاصر » أشرف عليها الاساتذة د · عبد الحليم محمود وكيل الازهر ، و د · محمود قاسم عميد كلية العلوم بجامعة القاهرة ، و د · يحيى هويدى عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة ·

وحضر هذه الندوة عدد من الاساتذة والطلبة · وتولى الاستاذ بوعمران رئيس قسم الفلسفة ادارتها ·

ونحن ننشر هذه الندوة كنموذج لوجهة نظر فى موضوع يمس صميم حياتنا الاجتماعية والثقافية ، وفى اطار تشجيع الحوار الفكرى الذى يهدف فيما يهدف اليه ، تطوير ثقافتنا وتعميق نظرتنا الى الحياة والكون وترقية مجتمعاتنا الى مصاف المجتمعات الانسانية التى بلغت اليوم درجة كبيرة فى مجال التقدم الفكرى والعلمى والحضارى ·

ونحن نؤمن اعمق الايمان بجدوى أسلوب الحوار الهادىء الموضوعى فى تحليل المشاكل والبحث عن الحقيقة ·

وباب النقاش مفتوح لكافة المثقفين ، وسننشر كل رأى موضوعى يأتينا فى هذا الموضوع ·

د. عبد الحليم محمود

الفلسفة لا رأى لها ولا تتحدى ، ولا يتأتى مطلقا أن تتحدى ·

اريد أن أبدأ بهذا السؤال ما هى قيمة تحديات الفكر الفلسفى المعاصر ، وبتعبير آخر ، ما هى قيمة الفكر الفلسفى ، وأريد أن أبدأ فأحدد معنى الفلسفة ، التعريف الذى أسير على منهجه وأسير على ضوئه هو :

الفلسفة هى البحث العقلى فى أمور ما وراء الطبيعة وفى الاخلاق ، والواقع ان كل فيلسوف تجد فلسفته تنشطر الى شطرين : شطر هى

وتحديات الفكر المعاصر

البحث فى ما وراء الطبيعة وشطر هو الاخلاق ·

وفى هذا المجال نبدأ بقصة لها مغزاها العميق:

اثنان من فلاسفة المدرسة الفيثاغورية أحدهما شخصية من كبار فلاسفة المدرسة الفيثاغورية ، اسمها سمياس · هناك سقراط أبو الفلسفة ، وهناك سيمياس ، وهناك شخصية ثالثة من كبار فلاسفة الفيثاغوريين ، وكانوا يتحدثون فى موضوع محدد : هل النفس باقية خالدة بعد الموت أم أنها فانية مع الجسم ، ويحاولون هم الثلاثة وهم من كبار الفلاسفة ، واحدهم يسمى أبو الفلسفة وأبو الفلاسفة مجتمعين ، يحاولون ما استطاعوا الى ذلك سبيلا : جهدا فى الفكر واعمالا فى الادلة يحاولون أن يبرهنوا على أن النفس باقية بعد الموت وبرهنوا وبذلوا كل ما يستطيعون من جهد فى البرهنة ، ثم سكتوا ومكثوا هنيهة صامتين ثم قال أحدهم بعد هذا الجهد الكبير : ولكن المسألة مازالت بعد فى حاجة الى يقين أكثر وقال سقراط ردا على هذا : نعم ولكن هذا نهاية شوط العقل، نهاية شوط العقل ألا يصل الى اليقين فى موضوع محدد ، وهو الذى نتحدث فيه ، أعنى ما وراء الطبيعة والاخلاق وتتضمن الاخلاق السلوك فيما يتعلق بالمجتمع وتتضمن النظريات الاجتماعية ، ثم قال : ان المسألة فيما يتعلق بما وراء الطبيعة مثلها كمثل البحر المحيط ، ما وراء الطبيعة يشبهه ببحر محيط ، ووسيلة العبور فى ما وراء الطبيعة هى الدين والعقل · وسيلة العبور فيما يتعلق بالبحر المادى المحسوس :

هى السفينة أو لوح من خشب ، السفينة الآمنة فى ما رأى سقراط وفى ما رأى الفيثاغوريون السفينة الآمنة المتينة هى الوحى،أما لوح الخشب فهو العقل ، مثل العقل فى خوض ما وراء الطبيعة وفى خوض الاخلاق مثله كمثل لوح من خشب فى عبور البحر المادى المحسوس ، ومثل الوحى فيما يتعلق بما وراء الطبيعة ، وفيما يتعلق بالاخلاق كمثل السفينة الآمنة المتينة فى عبور البحر المادى ، اذا لم تكن هناك سفينة آمنة متينة فلا مناص اذن من أن يركب الانسان لوح الخشب ليعبر به محيط ما وراء الطبيعة او محيط الاخلاق · ولوح الخشب لا أمان له ولا ينتهى مطلقا الى عبور البحر المحيط : يغرق الانسان بعد فترة طويلة أو قصيرة من الخوض فى محيط ما وراء الطبيعة ، لوح الخشب هذا حينما بدأت به الانسانية منفصلة عن الدين ، أو منفصلة عن السفينة الآمنة المتينة ، ماذا أنتج ؟ ماذا أصبح العقل فيما يتعلق بعالم الفلسفة ؟ لا شىء نظريات متضاربة ، متعارضة ، ونتساءل أليس هناك من فيصل بين الحق والباطل فى محيط ما وراء الطبيعة ، فى محيط الفلسفة فى محيط الاخلاق ، أليس هناك مقياسا نقيس به الحق من الباطل فنفصل الحق عن الباطل ، ونعرف الحق ونهتدى اليه وننبذ الباطل ونرفضه ؟ وأقول بكل بساطة ليس هناك هذا المقياس ·

لقد حاول أرسطو أن يخترع هذا المقيـــاس فاخترع المنطق ، المنطق الارســطى المنطـــق الصورى ، اخترعه كفيصل بين الحق والباطل فى محيط ما وراء الطبيعة ، وفى محيط الاخــلاق • ولكن هذا المقياس أو هذا الفيصل لم ينتج شيئا وهى دعوى عريضة طويلة مستفيضة التى تقول ان المنطق مقياس للحــق والبــاطل ، انه ليس مقياسا للحق والباطل ، والمسألة بسيطة • ان نتيجة القياس حينما نحب أن تكونَ يقينية لا بد أن يشترط فى المقدمــات ولم يشتــرط منطقى مطلقا اليقين فى المقدمات لم يشترطه أرسطـو ولم يشترطه ابن سينا ولم يشترطه الفارابى ولم يشترطه ابن رشد ، لم يشترط فيلسوف مــن الفلاسفة اليقين فى المقدمات وبقيت الآراء فى الفلسفة والآراء فى الاخلاق ظنية لا أكثر ولا أقل لم يخترع أحد المقياس الذى مثله فى عالـــم العقليات كمثل التجربة فى عالم المحسوسات وحاول ديكارت ، أن يخترع هذا المقياس الذى يفصل بين الحق والباطل وأثار ديكارت العالم بمزاعمه وقالوا انه يعتمد فيما يتعلق بالموضوع على قضية يقينية وينطلق منها ، وبدأ يعبر عن الشك • ووضع الشك فى صورة جميلة وقوية ثم قال : اذا وجدنا يقينا نرتكز عليه يمكننا أن نصل الى اليقين فى كل أمر من الامور ، ووجد هذا اليقين الذى اعتبره عقليا ، أنا أفكر اذاً أنا موجود ، وأخطأ ديكارت فى ان هذه القضية قضية عقلية ، انها ليست عقلية ، اليقين لم يأتها مــن ناحية كونها عقلية لان اليقين أتاها من ناحيـــة كونها شعورية يشعر بها الانسان ولو لم يكـــن هذا لما كانت يقينية من قبل زال اليقين الــذى أضفاه على أنا أفكر اذن أنا موجود لم يــأت من ناحية العقل وانما أتاها من ناحية كونهـــــا شعورية ولو كانت عقلية بحتة ولم تكن شعورية لما كان فيها هذا اليقين ، وحاول ديكارت مـــا استطاع الى ذلك سبيلا أن ينطلق من هذا اليقين الى يقين آخــر ، فلم يوفق مطلقا ، والــواقع أن ديكارت يعتبر هو ومدرسته فى الشك الى الآن لم يخرجوا من الشك الى الآن لانهم لم يستطيعوا أن يأتوا بعد هذه القضية الشعورية التى يشعر بها كل انسان والتى أتاها اليقين من انهـــــا شعورية لم يصل ديكارت مطلقا ان يصل فـــى عالم ما وراء الطبيعة ، أو فى عالم الاخــلاق الى اليقـــين •

اذن نحن فى مجال الفلسفة فى عالم الظن ، الظن المطلق نحن فى مجال ما وراء الطبيعـــة وفى مجال الاخلاق فلسفيا فى عالم الظن ولا أمل أن يكون هناك مقياس أو يكون هناك يقين واذاً هناك فى كل قضية من القضايا منذ أن بــدأت الفلسفة من العصر اليونانى الى الآن هناك فى كل قضية من القضايا الانكار والاثبات ، الرأى وضده ، هناك ابيقور ، الانكار المطلق وهناك أفلاطون ، الانكار المطلق والايمان المطلق ، أو الانكار المطلق والاثبات المطلق وكــلاهما ظنى هناك من يثبت واثباته ظن وهناك من ينــفى ونفيه ظــن •

اذا كان الامر كذلك فيمكننا ان نقول بكــل بساطة : ان الفلسفة لا رأى لها فى أى موضوع من الموضوعات ، لا رأى لها لانه مادام ان هناك الاثبات وهناك النفى فى كل قضيه من القضايا فلا يمكنك أن تقول ان هذا الرأى الفلسفى سواء كان اثباتا أوكان نفيا ان الرأى فى الفلسفة لا وجود له فى أية قضية من القضايا لا نفيا ولا اثباتا • لان كل قضية من القضايا فيها النفى وفيها الاثبات كل قضية من القضايا فيها الرأى المثبت وفيها الرأى النــافى واذا لا يتــأتى مطلقا أن نقـــول ان الفلسفة لها رأى واذا بالتالى لا يتأتى مطلقا أن نقول ان الفلسفة تتحدى••• تتحدى الاسلام كلا انه لا رأى لها فلا يمكن مطلقا أن تتحـــدى الاسلام وأظن أنه يمكن أن نقول مثلا فى مجال السخرية ان فلاسفة العصر الحاضر لا يزالــون يتخبطون فيما أعلنه زينون من سخريات بالفلاسفة لقد أعلن زينون عدة قضايا سخر بها من الفلاسفة وهو فيلسوف ، من هذه القضايا مثلا ، أنا أقول حبة المسبحة هذه اما ان تكون أكبر من العالم واما أن تكون لا شىء ، وعقليا لايتأتى الامر انه يكون غير ذلك اما انها أكبر من العالم واما انها لا شىء •

اذا سألنا فى البرهان وأرجو الانتباه قليلا الى هذا البرهان• نقول اننا سنجزىء حبة المسبحة

سنجزئها الى أجزاء ، اما ان تنتهي هذه التجزئة الى حد أو لا تنتهي الى حد ، اذا كانت هـــذه التجزئة تنتهي الى حد فمعنى ذلك انها تنتـهي الى أجزاء لا حجم لها ، لان ما له حجم يقسـم ، واذا انتهت الى أجزاء لا حجم لها فمجموع ما لا حجم له لا حجم له فحبة المسبحة لا شيء ، لكن اذا لم تنته التجزئة الى حد معنى هذا اننا نأخـــذ في التجزئة اليوم وغـدا وهذا الاسبوع والاسبـوع المقبل ، وهذا الشهر والشهر الذي يليه ، وهذا العام وهذا القرن والقرن الذي يليه الى ما لا نهاية ما لا نهاية له من أجزاء مهما كانت صغيرة ما دامت لا نهاية لها فانها تتكدس شيئا فشيئا ، فتملأ الكف وتملأ الغرفة وتملأ الشارع وتملأ ما بـين السماء والارض وتفيض عن كل ذلك لانها لانهاية لها فهي اذاً أكبر من العالم • لا يزال برغسون وغيره من فلاسفة العصر الحاضر يحاولون حل المسائل التي عرضها زينون على الفلاسفة متحديا لهم ولم يستطيعوا الى الآن حلها ، لقد برهن لهم ان السهـم اذا انطلق لا يتحـرك في الانطلاق • وضع لهم مسألة ان السلحفاة اذا سبقها الارنب بمتر فلا يتأتى مطلقا عقليا أن يدركها الارنب ، وهكذا أمور كثيرة من المسائل التي تحـداهـم عقليا في أن يصلوا فيها الى حل ولا يزالون منذ 25 قرنا يتحدثون فيها فلا يستطيعون حلهـا •

الفلسفة اذن لا رأي لها واذا لا تتحـدى ولا يتأتى لها مطلقا أن تتحدى ومحيط عالم الفلسفة من أوله الى آخره انما هو محيط الظن •

د . محمود قاسم

أشكر جامعة الجزائر ان اتاحت لنا فرصـــة لقاء مع أبنائنا من دارسي الفلسفة ومن طـلائع الحضارة العربية والاسلامية فيهذا القطر الشقيق

ان الاخ الشيخ بوعمران قد حدد لي ما يريد ولكنني سبقته عند ما حددت لنفسي ما أريــد وأنا أحب الاستقلال ولذلك فأنا أختار الاحتمال الثاني لا الاحتمال الاول وهو أن أعرض رأيـي مستقلا دون أن أعرض لرأي صديقي وزميـــلي

أيها الاخوة : اني في هذا كنت أنتقد نفـسي انني درست الفلسفة وأدرسها منذ ثلاثين قرنا ولا أزال أدرسهـا الى الآن في كل عـام وكنت أدرسها في هذا العام الحالي واذا أطال الله في العمر فسأدرسها في العام المقبل ان شاء الله، ومع ذلك انها كلمة القيها ، للتفكير فيها واذا أثارت التفكير فيكفيني هذا نجاحا •

الاستاذ بوعمران :

قبل ان نحيل الكلمة الى الدكتور محمـــود قاسم اريد أن اعلق تعليقا ، القصد منه الربط ما بين الموضوعات فقط •

سمعتم راي د • عبد الحليم ، وله موقف من تعريف الفلسفة ووظيفة الفلسفة ، وفي خلاصة اذن فيما ذهب الله هناك مذهب او موقف مـــن الفلسفة وهو : ان الفلسفة ليست بشيء أمـــام الايمان وهي نوع من نوع الظن،والآن أحيل الكلمة الى د • محمود قاسم وارجو أن يبين لنا رايا آخر غير رأي د • عبد الحليم محمود حتى يفسح لنـا مجال المناقشة ، وأنا أعرف د•محمود قاسم صاحب فلسفة عقلية ، ونحن في مناهجنا نعتمد على هذا المنهج النقدي كل له رأي وله أن يدلل عليه•اذن ستشاهدون هذه الحريةالفكرية فيالفلسفة والفلاسفة والمتفلسفة ولكن ينبغي في نهاية المطـاف أن تكون هذه الفلسفة ملتـزمة •

القول بان الفكر الفلسفي المعاصر لا يستطيـع أن يعوق مسيرة الاسلام هو تبسيط للمشاكل أكثر مما ينبغي

الدكتور عبد الحليم محمود الذي قرر انـــني صاح باتجاه عقـلي فصدقه الناس جميعا ، اذا اتجهت الى هذا الموضوع الذي طرحناه للمناقشة وهو في الفكر الاسلامي وتحديات الفكر الفلسفي بالواقع ولذلك سوف أقدم لرأيي ببعض الاحداث التاريخية التي تتصـــل بتاريخ الفكر الفلسفي الاسلامي والفـكر الاوروبي ، وفي آخـر الامـر سوف أشير باختصـار الى نموذجـين من تحديات الفكر المعاصر للاسلام •

من الواضح فى ذهنى وفى أذهانكم ان هناك تخطيطا مسيحيا من عصور طويلة وان هنـــاك صراعا بين دينين مختلفين : دين الاسلام ودين المسيحية ، وهذا فى ظنى صراع طبيـعى بين دينين مختلفين يمثلان حضارتين مختلفتين لا أريد أن اعترف من التاريخ فاشير الى الحروب الصليبيـة والى بدء حركة الاستعمار الاوروبى للاقطار الاسلامية منذ أن أخرجوا المسلمين من الاندلس فذلك شيء نعرفه جميعا • انما أود ان أشير الى نوع آخر من الصراع الفكرى بين الحضارة الاسلامية والحضارة المسيحية ابتداء من القرن الثانى عشر ، وهـو الصراع الذى نشب بين ممثلى الفكر الكاثوليكى توماس الاكوينى وابن رشد ، وهذا موضــوع أشرت اليه فى كثير من مؤلفاتى عند ما بينت أن توماس الاكوينى يعتبر مجدد الدين المسيـحى الكاثوليكى ولكنه جـدده على أسس اسلاميـة لانهم أرادوا أن يستخدموا أسلحة الاســلام فى نقد الاسلام ، من الغريب أن بعض المفـكرين الاحرار باوروبا فى القرن الثالث عشر أطلقــوا على أنفسهم اسم الرشيديين اللاتينيين وقد خيل للكنيسة انها انتصرت على الفكر الاسلامى لكنها لم تنتصر ، ذلك أن الفكر الرشدى وان لم يـكن رشديا خالصا استطاع أن يشق طريقه وتمـكن من أن يفتح الباب على مصراعيه للتفكير العلمى والفلسفى الاسلامى وأنا لا أغلو فى شيء اذا قلت ان حركة النهضة الحديثة ترجع الى عناصـــر اسلامية ، اما معتدلة واما متطرفة فالعلـــوم والدراســات التجريبيــة دخلت أروبا بمجهـود المترجمين للعلم العربى كما أن بعض المـذاهب الباطنية قد توغلت فى أروبا ابتداء من القـــرن الثالث عشر فى بلاط فيريدريك الثانى امبراطور صقلية ، وانها أدت فيما بعد الى ما نسميــه بحركة النهضة وظهور الماسونية الاروبية الحديثة

هذا التأثير كان متنوعا وأنا الآن بصدد بيان أثر الفكر الاسلامى فى الفكر المسيحى الحديث وأحدد طريقة واضحة اننا نستطيع أن نعــرف فلسفة ليبيتز على ضوء ما انتهى اليه محى الدين ابن عربى • معروف ان محى الدين بن عربـى متصوف ، واعتقد أن محى الدين بن عربى كان فيلسوفا من طراز ممتاز ، وان آراءه قد تسربت الى الفكر الاروبى ، لكن نلاحظ ان الحضــارة الاسلامية بلغت الى مرحلة سيئة فى القــرن التاسع عشر فأدى ذلك الى الاستعمار الاروبى لشمال الافريقى ولمصر ولكثير من أقطـارنـا العربية ، والصراع الحربى والسياسى ما زال مستمرا ، ونحن نحيا فى هذه الفترة العصيبة مأساة العرب ومأساة الاسلام فى فلسطـين •

الى جانب هذا الصراع السياسى والحـــربى والاقتصادى فى عصـرنا الراهن نجد صـــراعا فكريا مستمرا ويتخذ ثوب الفلسفة o فى ســـنة 1955 قرأت فى احدى نشرات الكاثوليك انهـم يدعون المسيحيـين الى أن يبشروا بالـــدين المسيحى فى أروبا ،وكل ما يخافونه هـــو امتداد الاسلام بخطى العملاق فى قلب قـــارة افريقيـا ؛ وهم يريدون أن يقف هذا الـزحف ويرون ان يعتمدوا على بعض المذاهب الالحادية يعنى من العجيب أن صاحب المقال فى النشـرة الكاثوليكية كان يتمنى أن تقف الشيـوعية فى وجه دخول الاســلام الى قلب افريقيا • هـــذا موقف عجيب جدا يبين لنا الصراع بين دينـين مختلفين: دين يدعى انه دين المحبة ولكنه يتمنى أن يقف الالحاد فى وجه الاسلام • هناك نماذج معاصرة حاولت ضرب الاسلام من الـداخل فى بلادنا الاسلامية وهى تلبس ثوبا فلسفيا ومـن العجيب أن نجـد أن هذا الاتجـــاه منقسم الى فرعين : فرع يتخذ ثوبا صوفيا ودينيا ونوعـــا آخر يتخذ اتجـاها الحاديا ، ولكن يبـــدو أن التخطيط ان لم يكن شعوريا فهو غير شعـورى لكنه موجود •

فمثلا أمضى ماسينون حياته لكى يدرس الحلاج ولكى يبين أن هناك وسيلة للربط بين المسيحية وبين الاسلام السنى عن طريق الحلاج • وكتابات ماسينون كما تعلمون بعد المرجع الكبير الذى يعتمد عليه كثيرون ممن يريدون ان يأخـــذوا عن المستشرقين لكن اذا نحن حللنا كتب ماسينون تحليلا دقيقا نجد أنه يهدف الى تفتيت العالـــم الاسلامى المعاصر والى بث الفرقة بين المسلمين وبين الفرق الاسلامية لا يريد أن يتنبه المسلمون الى أن زمن الفرقة قد انتهى وانه ينبغى التقارب

لكي يقفوا فى وجه الغزو الاروبى ولكنه يبعث النزعات الفردية والعصبية وأظنكم تعرفون كثيرا عن محاولات ماسينون فى الشمال الافريقى ، فربما كنتم أكثر معرفة بذلك من اخوانكم فى المشرق • لقد ذهب ماسينون ولكن ارلاندوز أيضا يتابع حركة ماسينون فى اتجاه صوفى ، وه ويصدر كتابا له باسم الحلاج أو دين الصليب وهذا هو عنوان الكتاب ، وهو عنوان مثير هذا اتجاه صوفى ، وهناك اتجاه مدرسى يسمونه التومية الجديدة وله ممثلون كثيرون منهمجلسمون ومنهم الاب قنواتى عندنا وبعض الدينكان ومنهم لوى غاردى الذى يبدو أنه ليس من القسس ، ولكنه له روحه • هذه التومية الجديدة خطيرة جدا وسبب ذلك انهم يسعون الى ما يسمونه اللقاء الفكرى بين الاسلام والمسيحية وهم يعتمدون على أسس اسلامية وهذا هو وجه الخطر انهم اتخذوا اسلحتنا لكى يناقشوا الاتجاه الآخر أنا لا أريد أن أطيل فى الحديث حتى أدع الفرصة لأخى وصديقى الاستاذ الدكتور يحي هويدى ولكم ، حتى تناقشوا الاتجاه الآخر وما نلاحظه عند بعض اليساريين ولا أستعرضهم جميعا وانما أشير الى روجى غارودى ، يعنى هو جاء الى مصر لكى يرشدنا الى العناصر العلمية التى يجب أن نتخذها حتى نصل الى الاشتراكية العلمية •

وهو يعتمد على عناصر جمعها لا أدرى كيف، هو يتكلم عن القرامطة ويقول انهم اشتراكيون ثم يخلط بينهم وبين ابن رشد ويقول ان ابن رشد ذو اتجاه اشتراكى ثم يتكلم عن ابن خلدون ، نحن اذا رجعنا الى التاريخ وحللنا هذه الحركات المختلفة سواء كانت سياسية أو عقلية نجد أن روجى غارودى يجمع بين عناصر لا سبيل للربط بينها ، فالقرامطة ليست الا نزعة طائفية وابن رشد كان يفضل دين الاسلام على أى دين آخر وابن خلدون وضع لنا أسس المنهج العلمى فى الدراسات الانسانية ، أنا انصح غارودى ولا أريد أن أفصح عن كل شيء أن يشغل نفسه بالبحث عن الاصول الفلسفية لفلسفة هيجل لانه اذا بدأ بمعرفة هذا ربما وجد سلاحا، لكن لحسن الحظ هو لا يعرف ما هى الاصول الفلسفية لفلسفة هيجل فله اذن أن يشغل نفسه بحضارته الاروبية بدلا من أن يصنع لنا نموذجا أو يحدد لنا قوالب نصب فيها تفكيرنا ، اننا فى الواقع لا نهون مطلقا من شأن الفلسفة وهنا يعذرنى صديقى وزميلى الدكتور عبد الحليم محمود مخالفتى اياه فى الرأى ، ان هذه المذاهب الفلسفية البراقة ممكن أن تؤثر تأثيرا سيئا جدا ويجب أن لا نعتقد أن المشكلة قد حلت ، وان الفكر الفلسفى المعاصر لا يمكن أبدا أن يكون له وجود أو انه لا يستطيع أن يعوق مسيرة الاسلام'، أعتقد ويغفر لى الزميل الاستاذ الدكتور مرة أخرى ان هذا تبسيط للمشاكل أكثر مما ينبغى ، هناك صراع فكرى وهناك نظام مخطط ومدروس وهناك محاولة لاستجلاب كثير من مفكرى المسلمين الى أن يقعوا فى هذا الشباك الذى ينصبه بعض المفكرين فى أروبا •

اخيرا شكرا لكم •

د . يحيى هويدى

الصراع الفكرى والحرية الفكرية لا بد أن تنتهى الى خير ولا يمكن ان تنتهى الى شر •

*** الفلسفة موجودة من اجل خير الانسان والمجتمع وتعميق الواقع •**

*** ربط الفكر بالواقع فى كل فكر متفتح لا يعنى ابدا الابتعاد عن الدين •**

هذه فرصة طيبة لكى نسمع قطرا عربيا شقيقا عزيزا علينا نغمات متنوعة تتردد عندنا فى مصر ولعلكم قد لاحظتم من الكلمتين اللتين تفضل بهما الزميلان ، ان هناك اختلافا ، فى

الاتجاهات الفكرية فى مصر وهذا شىء طبيعى ، ونحن فى مصر نخلق كلهذهالاتجاهات ونترك كل الزهور تتفتح واللقاء والصراع الفكرى لابد فى آخر الامر ان ينتهى الى خير ولايمكن ان ينتهى الى شر ابدا ، فالحرية الفكرية لا يمكن ان تؤدى الى شر · الفلسفة عندما تســــمع يفهم منها غير المتخصص انها علم عقلى بحت لا صلة له بالايمان، والدين أيضا · عندما تسمع كلمة الدين توحى عند غير المتخصص بانه يعتمد على مجال النقل والايمان فقط ، دون ان يكون للعقل فيه مجال · واعتقد ، ان تصورناللامور على هذا النحو سيؤدى حتما الى عداء مسبق يشنه كل فريق ضد الفريق الآخر · هذا العداء للعقل من جانب رجل الدين ليس له ما يبرره فى تصورى وديننا والحمد لله دين العقل وبالتالى فليس لنا ان نقره فى تصوره على الفلسفة باعتبارها محاولة عقلية من جانب الانسان وهذا شىء مشروع كلفنا به وطالبنـــا به الشرع ، محاولة عقلية من جانب الانسان لتعميق واقعنا لا للجرى وراء ما بعد الطبيعة ، فما بعـــد الطبيعة فى اعتقادى أيضا يجب ان لا نفهم منها الغيبيات وانما هو الجـــزء الخفى من الواقع الذى علينا ان نغوص فيهونغوص فيه بعقولنا وبالافعال التى تقربنا من هذا الواقع · ومن أجل هذا فانـــا أعتقد ان الفلسفة والدين أو الحكمة والشريعة كما قال ابن رشد : اختان رضيعتان و لايمكن أبدا ان يختلفا ، ولا يمكن أن نشـــــــن العداء على الفلاسفة لمجرد انهم احتــــــكموا الى العقل ، فديكارت احتكم الى العقل لكنه مؤمن ومؤمن بالله وقد قدم لنا الاها هو الاه الاسلام بالرغم من انه

استأذن الدكتور عبد الحليم فى هـــذه الكلمة تعقيبا على كلمته : **ولا يمكن ان نقول انالفلسفة او الاتجاهات الفلسفية لا تتحدى الاســـــلام الفلسفة لها اتجاهاتها هناك تحـــديات فعلا من جانب الفكر الفلسفى المعاصر للاسلام كما تحدت الفلســـفة والاتجــاهات الفلســـفية المعاصرة الكاثوليكية نشـــــاهدها اليوم فى كثـــير من الكاثوليكية · هناك مرونة من جانب الكنيســة الاتجاهات الكاثوليكية نحو العقل والتحــديات العصرية · ليس لنا اذا بعد هذا ان ندفن رؤسنا فى الرمال ونقول ان الفلســـفة لا رأى لها وان الفلسفة ظنية وانه لا وجود لها 0 الفلســــفة موجودةوهى موجودةمنأجل خير الانسان ومن أجل خير المجتمع ومن أجل تعميق الواقع وكل هـــذا مشروع وطالبنا به ديننا لحسن الحظ ·**

ان موضوع النّدوة الفكر الفلســـفى المعاصر وتحدياته فى مواجهة الفكر الاسلامى الفلســـفى المعاصر · لى تعليق بسيط على هذا العنوان ، ليس هناك فكر موحد فى الحقيقة وانما نحـــن بصدد عدة افكار وعدة اتجاهات ، وعدة تيارات فلسفية معاصرة لكن نستطيع أيضا أن نقول ان هناك فكرا موحدا لان هناك عنصرا مشتركا بين هذه التيارت المعاصرة **وهذا العنصر المشترك هو الفكر المتفتح على مشاكل المجتمع ومشـــــاكل الشعوب وعلاقات الانسان بالاغيار أو بالآخرين وكل هذا موجود فى تقاسم مشــــترك اعظم بين الاتجاهات الفلسفية المعاصرة ·**

فالفكر الفلسفى المعاصر اذا نتفق ، هو هـــذا العنصر المشترك بين التيارات المعاصرة الفلسفية سواء كانت ماركسية أو بوذية او فينومولوجية أو كاثوليكية أو شخصانية أو شخصية الى آخر التيارات المعاصرة ، هناك محاولات مشروعة من جانب الانسان لدراسة الواقع لدراسة المجتمع وتعميق الواقع وتعميق المجتمع وهذا الربط بين الفكر والواقع هو العنصر المشترك بين التيارات الفلسفية المعاصرة وهذا العنصر المشترك يلقى فى وجه الاديان تحديات معينة لانه قد فهم أو قـــد فهم بعض السذج ان ربط الفكر بالواقع قد يعنى الابتعاد عن الايمان وقد يعنى أيضا الالحاد فى بعض وجهات النظر ومن اجل هذا على المؤمن الحق أن يواجه هذا التحدى ، وهذا موضوع الندوة أى يواجه هذا التحـــدى ويبين للناس ان ربط الفكر بالواقع فىكل فكر متفتح لا يعنى أبـــدا الابتعاد عن الدين وان لدى ديننا الاســـلامى عناصر كثيرة الحمد لله تقربنا من هـــذا العنصر المشترك بعقل متفتح · وهو خدمة الواقع خـــدمة المجتمعات ·

الفكر الاســـلامى الجزء الثانى من موضـــوع الندوة · الفكر الاســـلامى كما نعلم عقيدة وشريعة ،فهذا موضوعطويل لا نستطيع ان نغطى حتى العشر فى ندوتنا هذه ، لكن انا سأتناول

نقطة بسيطة من موضوع العقيدة الاسلامية كنموذج لان الاسلام به من العناصر الفلسفية والاسس الفلسفية الذى تستطيع ان تتمشى مع التيارات الواقعية فىالفكر الفلسفى المعاصر وهذا هو الجزء المشترك بين الفلسفة وتيارات الفلسفة المعاصرة ، الحقيقة ان تصورنا او تصور الاسلام لله بصفة خاصة تصور اطنولوجى ، هذا شيء جدير بالعناية • حقيقة ولابد ان يحس الله فى الاسلام اله دائم عن الخلق ، وهو بهذا يترك الفرصة للعبد لكى يمارس حريته كاملة فىمحيط العمل نقارن فى هذا بين الاسلام والمسيحية ، فاعتقد ان التصور المسيحى لله الباطن المتجسم باعتباره الاله الحال ، هذا التصور يؤدى وقد ادى بالفعل فى انظار بعض الكاثوليك انفسهم وهذا هو سر عداء الفلسفات الواقعية للدين لان الفلسفات الواقعية المعاصرة تصورت ان كل دين لابد ان يقدم هذا التصور لله ،الله باعتباره باطنا محايثا حالا فى كل جزء من اجزاء الكون ومن اجل هذا شعروا بان وجود هذا الاله الباطن فىالكون وفى الانسان سيؤدى حتما الى عرقلة الفعل وانه نوع من الاحباط للفعل والناس • ومن اجل هذا كان العداء بينهم وبين الدين • لكن الاسلام يقدم لنا صورة اخرى للدين صورة اخرى لله فكلما قلت الصورة التى يقدمها الاسلام هو هذه الصورة الفريدة وهى صورة ديكارت الاله الذى قدمه ديكارت هو أيضا هو هذا الاله وليس الاله الكاثوليكية علىكل حال هو خالق الحقائق الابدية الازلية البعيد عن الحلول والمباطنة ، ولكن هذا التصور لله فى نظر البعض قد يؤدى او قد يفهم على انه سيؤدى حتما الىنوع من الجبرية والحتمية، ونوع من المكتوب ، نوع من القدر ، المكتوب سطره الله البعيد عن الكون البائن على البشر ولا يملكون بازائه أى تحول ، كما هو الشأن فى اسبينوزا لكن الواقع هذا التصور لا يمكن ان يكون فى الاسلام لان هناك صلة بينالعبد والرب بين الانسان والله فى الاسلام ، لكن هذه الصلة هى اقرب الى العبد من الحبل الوريد اقرب الينا وهذه الصلةلا يمكن ان تكون صلة قائمة على أسس اطنولوجية كما هو الحال فى الفلسفة المسيحية ، فهناك صلة اذن وعلاقة قوية بين الانسان والله وباب الايمان مفتوح امام العبد المؤمن الذى يتجه الى الله فى خشوع وايمان صادق ، وهذا ما قصده الاسلام فى علاقة العبد بالرب ومن أجل هذا فانا اعتقد اننا اذا اتجهنا الى العقيدة الاسلامية سنجد هذا التصور الفلسفى سيساعدنا فعلا على ان نتحدى ما يقال ضد الدين من انه دين بعيد عن الواقع وما يقال من ان الفلسفة هى بالضرورة الحاد ، فهذا شيء لا نعرفه فى الاسلام والاسلام يفاخر الاديان كلها بهذا التصور الذى قدمه وهو تصور فريد يستحق الدراسة وقد طلبت فى بعض كتبى بدراسة الفلسفة القرآنية الحقة فهى ملاذنا وهى منقذنا من كل هذه التخبطات : تخبطات تقال باسم الدين ولكنها ضد الدين وتخبطات تقال باسم العقل ولكنها ضد العقل ، اذا سرنا فى هذا الاتجاه فلابد حتما اننا سنبتعد عن الصوفية المتطرفة ، سنبتعد عن التوماسية الجديدة ، وسنقوم فعلا بدراسة القرآن وما قدمه القرآن من فلسفة ، فهذا مطلوب منا كمسلمين فى هذه الايام لنتحدى الفكر الفلسفى المعاصر لان هناك تحديا حقا واكتفى بهذا ولكن أوصى بالاتجاه الآن الى هذا الاسلام النقى الصافى الذى عرفناه هنا فى الشمال الافريقى وعرفته مصر أيضا

الشيخ بوعمران

نشكر الحاضرين ونفتح باب المناقشة

عبد المجيد مزيان

موقف المسلمين من التحديات المختلفة كان دائما موقف الانطواء على النفس لا المصارعة الحقيقية •

اولا ، أريد ان نبدأ بتدقيق كلمة تحدى ، وما معنى التحدى ؟ نحن الآن بصدد عراك حضارى بين حضارة تسمى الحضارة الغربية وحضارات أخرى من جملتها الحضارة الاسلامية

وقبل ان نشرع في المناقشة الفلسفيه اريد فقط ان ابدأ بنكتة للنكت ، اذا كانت هناك تحديات فنحن نلمسها في أنفسنا ، لان المظاهر الحضاريه هي ليست مظاهر فكريه فقط ولكن هناك مظاهر ماديه ووجودنا في هذه الجامعة ببدلة اوروبيه ورؤوسنا عارية ، وكل أساليب معاشـــنا في الشارع وفي بيوتنا تبين اننا غلبنا وقهرنا حقا في مظاهر حياتنا المادية باستثناء واحـد منا فقط (ضحك وتصـــفيق) لا يزال محافظا على زيه المربوط بحضارته المادية الاسلامية (يقصــد الاستاذ الدكتور عبد الحليم محمود) هذا دليل على انه وقع تحدى وكان المنتصر في هذا التحدى هو عالم الغرب ٠

والآن يمكنني ان أرجع الى بعض المظاهر العلمية لهذا التحدى ، قلنا ان هناك انماطا حضاريه تتصارع والنمط الغربي لا زال هو المنتصر منـذ اوائل القـــرن العشرين اعنى ماديا وعلميا وتيكنولوجيا ، وفكريا في كثير من المظاهر ، حينما نتكلم عن الاسلام بصفته عقيدة وشريعه اريد ان اعرف اين بقيت الشريعة الاسـلامية الحية المعمول بها ، فحينما آخذ الاجهزة القانونية الموجودة في جميع البلاد العربية الاســلامية التي تنتسب الى الاسلام فانني اجد بقايا او ما يسميه علماء الاجتماع بـ

فقط ، من هذه الشريعة الاسلامية بينما قوانيننا الاخرى بما فيها القوانين السياســية والقوانين الادارية والقوانين المالية والقوانين الاقتصــادية كلها قوانين منشقة عن قوانين غربية وهــذه القوانين الغربية هي الاخرى ، لها اصــول مختلفة منها اصول رومانيا واصــول يونانية واصول فلسفية واصول علمية واصول مسيحية واخذناها في بعض الاحيان بدون ان نفرق بين هذه العناصر بل اخذناها برمتــها وطبقناها على مجتمعاتنا ، لماذا ، لاننا كنا عاجزين على ان نقابل التحدى الذى اتانا من هذه الحضرة التي كنــا نعتقد سواء عن وعي او عن عدم وعي ، بانهـــا حضارة متفوقة بالنسبة الينا ، وحينما نأخذ كذلك الجانب الآخر الذى هو الجانب العقائدى نعتقد بان ليس هناك اسلام واحد بل هناك اسلام مشتت متعدد ان هناك اسلامات سوسيولوجية كمـــا سميناها ٠ وشتان ما بين الاســـلام الاول او الاسلام الحى اسلام المبادىء ، والاسلامات المختلفة التي نعيشها الآن وهي الاسلامات السوسيولوجية في نظرى ، والدليل على ذلك تعدد الفرق والانظمة السياسية ، ونحن كنا دائما نعتقد بان الاسلام مر وخصوصا في هذا المظهر الاقتصــــادى والسياسى مر على المسلمين الكرام ، اى انه اتاهم محدقا فوق رؤسهم ولم يتــوغل في عقائدهم واعماق حياتهم والدليل على ذلك اننا الآن اصبحنا في كثير من صراعتنا وفي اجوبتنا عن التحديات التي تأتينا من الخارج في كثير من الاحيان ، نقف بجانب الرأسمالية سواء عن شعور او عن غـير شعور ، وندعى بان الاسلام يدعو الى الحـرية الاقتصادية والى الطبقية والى تفوق بعض الناس عن الآخرين بدعوى ان الله فضــــل بعضنا على بعض في الرزق ، هذه مشكلة ، حينما نطرحها من هذا الجانب العقائدى المتخصص في ميادين سياسية واقتصادية واجتماعية نجد بأنها غـير مقنعة بالنسبة لشبابنا ، مثلا حينما آخذ الشباب الجزائرى او الشباب المغربي او الشباب السورى او الشباب المصرى ايضا فاننا نجد بان هــذا الشباب غير مقتنع بهذا الاسلام السوسيولوجي الذى كان اســلاما عمليا مخالفا لاســلام المبادىء ، هذه نقطة ايضا وحينما وقعت مناقشات او صراعات او تحديات قولوا كما شئتم ، بـين هذا الاسلام السوسيولوجي وبين ما نسميه في عصرنا الحاضر بالمذاهب الاقتصادية والسياســة المعاصرة فاننا سنجد ان كثيرا من الشـــبان يقولون : « نحن نفضل هذه الفلسفة السياسـية المعاصرة التي اتتنا من الغرب وخصــــوصا من الماركسية لانها تدعو الى المساواة ولا تدعو الى الطبقية » ، وهنا هذه الجامعة وخارج هذه الجامعة وفي تونس وفي المغرب وفي مصر وفي سوريا كذلك عندنا شباب غير مقتنع الآن بهذه العقيدة المنبثقة عن الاسلام السوســـيولوجي والتي هي فيما اعتقد غير الاسلام الحقيقي

هذه جملة تحديات موجــودة فعلا ٠ أما في الميدان الفلسفي فلا يمكننا ان نتجاهل التحدى ، اذ نعرف اننا نعيش في عصر العــلم وفي عصر التكنولوجيا ونقول بان الفلسفة سايرت هــذه

الروح العلمية وهذه الروح التيكنولوجيـــة وهى الفلسفة التى لها تأثير على الشباب فهل يمكن ان نقول بأنشبابنا غير مقتنع بهذه الروح العلميةوهذه الروح التيكنولوجيةوهو يعيشهايوميا ؟ فماذا كان موقف المسلمين من هذه التحديات ! كان دائما الانطواء على النفس لا المصارعة الحقيقيه اذا ـ وهى تحديات حيـــة بمعنى الكلمة بينما كانت مواقفنا نحن دائما هى مواقف يمكنني ان اسميها نقوم باحصاء للتحديات التى اتتنا من الخارج نرى بانها تحديات واقعية مربوطة بالحياة الاجتماعية انهزامية ومعنى هذا اننا : ســــــواء فى المظهر المادى او المظهر الفلسفى كنا دائما نخضع لهذه التحديات الآتية من الخارج وهذه الهجومات الآتية من الخارج واعتقد شـــــــخصيا اننا لا زلنا فى هذا الموقف الضعيف الى الآن .

الاستاذ بوعمران :

اظن اننا الآن دخلنا فى صميم الموضوع لان المقدمات التى سمعناها بسطت للموضـــــوع تبسيطات عامة ودقيقة ولكننا نحن فى الجزائر نعيش تجربة خاصة مادمنا نحن معشر الفلاسفة فى الجزائر قد اتفقنا مع زملائنا فى المشرق ومع الغربين والشرقيين فى أوربا على ان الفلســـــفة مرتبطة بالواقع ينبغى ان نتباحث فى مشاكل الساعة وفى طرق الرد على التحديات ان دورنا فى الجامعة هو ان ندرس هذه المشاكل ونجابه هذه التحديات

د . محمد عزيز الحبابى

أنا متفق مع الاخ عبد المجيد مزيان لانه حدد النقطة الاساسية فى الموضوع ، وهى التحدى ، لقد اشار الى مظاهر هذا التحدى الذى نحيـــاه يوميا ، هنا كمظاهر أخرى لهذا التحدى ، مثلا : السرعة التى اكتسبناها حديثا فغيرت ذهنيتنا ، فلولا السرعة ما كانت هذه الآلة المسجلة ولمـــا اجتمع معنا هؤلاء الاساتذة ، هناك مكتســـبات اخرى هى نظرتنا الى الزمان والى المـــــكان ، انها جديدة اذ نحن اليوم لا نحيا بمقـولات ارسطو ، لذلك يجب ان لا نعرف الفلســــــفة بمقولات أرسطو ، اليوم ، النظرة الى الزمان والمكان ، منذ (انشتاين) نظرة جديدة ، هناك مفاهيم اخرى اضيفت الى فكرة الزمان مثلا الديمومة وما اعطته التحليلات النفسانية لفكرة الزمن . فكيف نفكر بذهنية المنطق الصورى ، المنطق الارســـطى ؟ هذا غير ممكن ، اوروبا التى ذكرناها ســـابقا كنموذج ، هى ايضا تتحداها أمريكا ، وقد صدر كتاب احدث ضجة صاخبة ، وهو كتاب جـــان جاك شريبر ، « التحدى الامريكى » وأعنى هنـــا أمريكا الشمالية طبعا) ، وبالخصوص الولايات المتحدة التى دخلت عصر التبذير ، أى ان الانتاج يتعدى بكثير الاستهلاك فصار الامريكانيون يبذرون

لمـاذا لا يوجـد عندنا فى المشـرق او فى المغـرب متخصصون فى اللاهوت المسيحى .

فى حين اننا نحن ننتمى الى عالم التخلف المادى والفكرى : نحن فى حاجة الى المعونات للتغذية الى ما هو ضرورى للحياة فى حين ان الآخـــرين قد وصلوا الى مرحلة التبذير . وللمقارنة نقول : هم وصلوا الى « البوينق » أو الى « الكونكورد » التى تتعدى بكثير سرعة الصوت ، ونحن ما زلنا فى طور الجمل والحمار . فمثلا ، الاغلبيـــة من مواطنى فى المغرب يستعملون ، لحد الساعة ، الحمار ، يتنقلون به من قبيلة الى اخرى فى حين ان الآخرين يزرعون بالطائرة ويتنقلون من مكان الى مكان بالبوينق .

هذا قوس او أقواس فتحتها قبل ان أقول انى متفق كامل الاتفاق مع صاحب الفضيلة الشيخ عبد الحليم محمود على التعريف بان « الفلسفة هى البحث العقلى فى ما وراء الطبيعة والاخـــلاق) لكنى أضيف : شريطة ان نتقبل ما قلته سابقا : ان لا نستعمل فى هذا التعريف المنطق الصورى الارسطى ، اى المقولات المعهودة سابقا والتى لا يؤمن بها العلم الحديث ، فان أى عالم اذا دخـل المخبر واستعمل المنطق الصـــورى ، وقف عن التفكير وعن الاختراع والاكتشاف كلكم تعرفون، منذ فرانسوا بيكون ،الاتهامات الموجهة الى ارسطو

ان منطق ارسطو ومقولات ارسطو افقرت التفكير الانسانى وعرقلته عن التقدم . لماذا ؟ لانه يدور حول نفسه ، نجد فى النتيجة ما هو موجود فى المقدمتين الكبرى والصغرى . لذلك فمنطق ارسطو ومقولاته اظهر العلم واظهر التفكير الحديثان انها غير مقبولة اليوم ، لان من سقراط الى اليوم تغيرت الارض والسموات . اليوم الفلسفة تشتغل بأى شىء ؟ الفلسفة تشتغل بعلم اللسانيات وهو علم جديد ، وان كان الخفاجى والسيوطى وغيرهم اشاروا الى مثل هذا وتفلسفوا فى اللغة ، ولكن لا بالطريقة العلمية المعروفة اليوم . هذا شىء جديد . والفمينولوجيا الحديثة هى أيضا جديدة وتشتغل الفلسفة بالتحليل النفسانى لمعالجة كثير من الحالات المرضية

وهناك علم معالجة الامراض العقلية ، هناك الانتربولوجيا الحديثة التى اعطتنا فكرة عن الانسان غير الفكرة التى كانت فى العصر الوسيط . فانظروا مثلا الى خادمة هنا فى الجزائر ، أية خادمة لنشاهد كيف نما شعورها بكرامتها وبمساواتها للآخرين . هذا مكتسب ، مكتسب المساواة الفردية وان كانت اصول هذا فى الاسلام ، لكن كنا دائما نعيش فى جو الاقطاعية والبيه والباشا واحتقار الضعيف . هذه الانتربولوجيا الجديدة اى الفلسفة الجديدة اعطتنا مفهوما آخر وابعاد آخر للانسان .

قلت ان المنطق تجدد ، منذ انشتاين والفزياء الحديثة ، فلا يمكننا ان نقول ان الثورة الفزيائية الجديدة التى قام بها غاليلى كانت ممكنة لا ولا (روجى بيكور) ولولا (ديكارت) فى المنهج الجديد . ان الفلسفة دائما توازى فى التقدم ، مدا وجزرا العلم ، والعلم كذلك ، فنحن لا نخترع ولا نكتشف أى شىء اليوم ، لانه ليست لنا فلسفة . فاليوم الذى نستطيع فيه ان نتفلسف فى الواقع ونتعمق ، كما قال الاستاذ هويدى ، اذ ذاك يمكننا ان ندخل الى المخابر لنكتشف ونخترع .

جاءت جملة أخرى عن الفلسفة للشيخ عبد الحليم . « الفلسفة أشكر الله الذى لا يشكر على مكروه سواه ، انى متهم من كثير من اصدقائى الذين درسوا معى فى اوروبا وبعض طلابى باننى رجعى وبدائى ، لاننى اؤمن ، وهذه فى نظرهم خرافة قديمة لم استطع بعد ان اتعالى عنها فاحرم نفسى من الشامبان ذات اللون الذهبى الرائع وأحرم نفسى من كذا وكذا . اذن أنا رجعى . أتصل بهؤلاء وأريد أن أدافع ، لذلك ابحث عن وسائل للدفاع أنا دائما متهم ، فماذا سأجد اذا قولت لهم « الفلسفة بدون الدين لا شىء » ؟ يجيبوننى « والدين بلا فلسفة لا شىء » ، وسنبقى ندور حول انفسنا ، هم يستعملون الجملة بالسلب وانا استعملها بايجاب ، ونخرج عن الموضوع . حقا المنطق ليس مقياسا للحق وللباطل ، هناك الوجدان ، فينا اشياء لا تتمنطق . أحب الشعر ، والشعر لا يخضع للقوانين المنطقية ، والشعر فى نظرى معبر أصدق تعبير عن الوجدان الانسانى اكثر من المنطق . ان اتيت وقلت لى « أنا أحب ، وحبى لابنائى كذا وكذا » لن أفهم بدقة ولكن حينما تعبر بصور شعرية فنية يقع تجاوب داخلى . والفلاسفة أشاروا الى هذا ، ومنهم (برغسون) الذى يقول ان العقل غير كاف للتفاهم .

ولا بالعقل . هناك عالم خاص ، ولكن هذا العالم العميق ، الداخلى ، الحقيقى الذى لا يمكن ان يعبر عنه بلغة العامة (اللغة المكتوبة واللغة المقروءة)

العقل مستعمل للتفاهم عن طريق الكلمات ، والكلمات خلقت للمحسوس . لكن عالم الانا لا ينفى عالم العقل ، عالم العقل له مكانته وعالم الوجدان له مكانه ، لانه اذا قلنا ان « المنطق ليس مقياسا للحق والباطل » يمكننا ان نعدم ، ولكن بدون منطق ، امكانه لتنظيم الحياة . انى واياكم نتعامل لاننا متفقون على مبادىء منطقية . والسلوك الشخصى والمعاملات العامة تفترض تلك المبادىء .

وهناك افتراضات نفترضها لتوجيه تصرفاتنا ، بنظمها المنطق . ان اليقين الدينى هو ايضا لا يبلغ الشمول . فهل الشعور معيار لليقين ؟ لا ! الشعور ضرورى ولكن ليس هو كل شىء . لذلك لا فائدة فى معارضة الفلسفة بالدين أو العكس . فابن رشد ، رضى الله عنه ، وغيره من الفلاسفة ، كانوا يكتبون : « فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من اتصال » . ذهبت الى الصين ، ذهبت الى الهند ، ذهبت الى أمريكا ، ذهبت الى كثير

من بقاع الدنيا ، فلم اجد حـرجا فى ان اكون متفلسفا عاشقا للفلسـفة ، وفى نفس الوقت مسلما ، لا حرج اطلاقا • نحن المؤمنين ، اصبحنا، ويا للاسف ، سخرية للملاحدة • اننا فى حاجة الى اعادة النظر فى بنيات تفكـيرنا الدينى ، ان العالم يتحدانا ، بمعنوياته ومادياته (اقصد المادية فى معناها الفلسفى) • ويتحدانا بالاديولوجيات او الفكرلوجيات • (فاين هو الفكر الاسـلامى المعاصر ؟ هذه هى النقطة الاساسـية • هناك تفكير قبيح او جميل ، هناك الوجودية ، هنـاك الماركسية وهناك وهناك •• اذن ، فأين الفكر الاسلامى المعاصر الذى يمكن انا يواجه هـذه التيارات ؟

الاحصائيات تظهر على ان العالم لا يذهب الى الايمان بل يبتعد عن الايمان ، ويا للاسف • وهذا ما لوحظ فى احصائيات المعامل وفى البـوادى الاروبية • المسيحية كانت مسيطرة مهيمنة على كل القطاعات فى اوروبا ، ومنذ القرن العشرين أصبحت اقلية • اصدر الفاتيكان ، منذ قليـل كتابا فى أربعة اجزاء ، بكل اللغات الكبرى ، حول الالحاد فى العالم •هذا الكتاب صدر كاشارات خطر لان المسيحية تعانى الآن من الالحاد ما لم تعانيه قط ، فلم تعد الآن هى المهاجمـة ، بل اصبحت مهاجمة فى عقر دارها • اذن الاسـلام فى صراع مع المسيحية ، ولكنـه فى صراعات اخرى • فنحن لا نخاف من المسيحية ، المسيحية نفسها تستغيث بنا ، تريد ان نقيم وحدة دينيـة ابراهيمية ضد الخطر الذى يهدد الجميع ، وهـو الالحاد ، تاريخ حضارتنا كان فى مد وجزر يماشى الفلسفة • ان المعتزلة هم احب طائفة او مدرسـة اسلامية عند طلبتى • لان « الكلام » لديهـم ملحم بالفلسفة • ان الصراع الآن ، فى نظرى ، مع الماركسية ، مع الوجودية ، مع غيرها من المذاهب الفلسفية المعاصرة •• ولكن هناك الوجـودية المسيحية والموجـودية لا المتدينة ، وهناك الشخصانية المسيحية والشخصانية اللا متدينة الى غير ذلك ، كل تلك المذاهب تضع هذا السؤال: ما ومن الانسان ؟

هذا هو السؤال الذى تضعه الفلسفة الآن ، ولم تعد تبحث عن ما وراء الطبيعة بل عن هـذا الانسان التاريخى المؤطر مكانيا وزمانيا • ما هو وضع هذا الانسان فى الكون ؟ الفلسفة هى تأمل لتعميق الواقع •

وهنا اضع سؤالا : ما هو الفكر الاسلامى المعاصر ؟ اجاب محمد اقبال على هذا السـؤال ، وركز جوابه على الفلسفة ومعطيات العلم المعاصر فهو يذكر بريكسا كما يقول برغسـون وابن العربى وغيرهم ، عندنا الآن ليستوريستى هذه مقولة جديدة أيضا فى التفكير لفهم الانسان مصير الانسان التريخية وعنـدنا البناوية فى علاقتها بالبيولوجيا ولكن ما هو مقدار الاصالة فيما جاء به اقبال ؟ ومن وفاة اقبال رحمه الله الى اليوم يجهل العلوم ومعطياتها الحديثـة لا يمكن ان يقوم بالتفلسف ، لابد ان نعرف ما وصـلت اليـه البيولوجيا والرياضيات • وفى فرنسا عندما يريد الانسان ان يهىء للتبريز ، يطالب بان يهىء شهادة علمية لماذا ، لان الانسان لا يمكن ان يعرف المنطق الجديد الا اذا عرف العلم الجديد
علم جديد يضع امامنا تساؤلات هناك
تنبؤات بالغد •

وقعت فى اكتـوبر عام 1969 فى بيريجيا بايطاليا ندوة حول عالم الغد واستدعيت أنا كممثل للعالم الثالث فسخرت منهم وقلت لهم لقد اتيتم بى ، أنا الذى لم ادخل عالم اليوم ما زلت فيما قبل التاريخ تقريبا أو فى العصر الوسيط على الاقل ، لاحدثكم عن المستقبل ، مسـتقبلكم انتم الذين تجاوزتم الحاضر ، كيف يمكننى انا ان اشاركم فى الحكم على الحاضر بأنه غـير صالح وترمى بأبصارنا الى ما بعد ! اذا تحدثوا ما شـئتم عن المستقبل وعن الحاضر اما انا فما زلت فى مجتمع، المتقدم فيه هو الذى انتقل من مرحلة الحمار أو الجمل الى مرحلة الدراجة •

نعود الى الموضوع فنقول ان المسيحية وخبراءها فى جميع ميـادين المعرفة المعاصرة يجتمعون لفلسفة اسسها من جديد ولتتخـذ مواقف أمام تحديات الفلسفة المعاصرة والفكر المعاصر ،والعلوم المعاصرة ، فما موقفنا نحن ؟

اعطى تعريفا للفلسفة وأخاطر بهذا التعريف ،

الفلسفة في نظري نسق يتركز على نقطة استفهام . ان المقولة الفكرية قد تغيرت . اذا ، المفاهيم قد تغيرت أيضا فاياناا اذا وفلسفة النعامة ، أو سياسة النعامة . النعامة أيضا تتفلسف يعني انها حين ترى الخطر ماذا تفعل ، تغرس رأسها في الرمل حتى يأتي الخطر اليها عوض ان تتجنبه . اذا نحن سنبقى في مكاننا حتى يحدق بنا الخطر اكثر مما هو محيط بنا ، وتكون النتيجة لا قدر الله هي اننا نصبح من الحيوانات المعروضة في المتاحف في القرن الواحد والعشرين ، يقولون هذا نموذج من العالم العربي في القرن العشرين في حين اننا لنا امكانيات . الامة التي انجبت ابن خلدون وامثاله يمكنها ان تعطي ايضا مثله واكثر فمن الواجب ان نواجه هذه التحديات . وحذار من مغادرة الميدان .

قبل ان أودع هذه المنصة اسأل زملائي الافاضل ان يدلوني على كتاب انصحه للشباب ليستطيع به ان يقف من التحديات الاجنبية . اظن ان هذا الكتاب هو كتاب الله . ولكن من منا يعرف اللغة بالقدر الوافي ليفهمه ؟ هناك التفاسير القرآنية ولكن حينما قام احد المجددين المعاصرين وهو صديقنا الدكتور مصطفى محمود بتفسير جديد قامت القيامة ضده في حين ان قراءه وصلوا سبعين ألف حينما كان ينشر مقالاته في احدى الاسبوعيات ولكن القراء للتفاسير الاخرى قليلون لماذا ؟ لان الطريقة لم تتبدل ، ولاننا نمنطق تفسيراتنا بمنطق ارسط وارسطو يجب ان نقضي عليه ونصلي عليه صلاة الجنازة بالفاتحة والتكبير .

الاستاذ بشير الصادق :

ورد على لسان الاخ مدير الندوة الشيخ ابو عمران ان هذه التجربة التي نعالجها خاصة . وأنا استطيع ان اقول انها ليست خاصة . بدليل انني من سوريا واشعر انها مرت بنا ، وهذا هو الشيء الذي وددت فقط ان الفت اليه النظر ، مرت بنا منذ نحو ثلاثين سنة وقطعت مرحلة ليست بقصيرة وتكاد تكون هذه المرحلة في نهايتها وان هذه التجرة التي اسماها الاخ الشيخ ابو عمران تجربة خاصة بالقطر الجزائري ،ربما يكون القطر الجزائري يعانيها الآن فتسمى بهذا المعنى خاصة ولكنها في الواقع ليست خاصة ، واذا كنا قد بدأنا معاناتها منذ ما يقرب من ثلاثين سنة فاننا نعاود الآن ايضا معاناة مثلها تماما .

السيد حجار (طالب) :

السؤال الاول حول مفهوم التحدي ولقد اشار الاستاذ الحبابي والاستاذ مزيان الى تحديده نوعا ما ولكن هذا التحديد يبدو ظاهريا وارجو من الاساتذة توضيحا او تعليقا حول مفهوم التحدي الآن ، التحدي الذي سمعناه الآن يبدو كأنه تحدي مادي لا بالمفهوم الفلسفي ولكن بالمعنى المادي المحسوس ، ثم اقول للاستاذ الحبابي ان تعريفه للفلسفة يحتاج ايضا بدوره الى تعريفات كثيرة او ربما يواجه تحديات كثيرة .

ثم اشار الاستاذ مزيان الى هذ التحدي الذي نتج عن الحاد في وسط الشباب ولكن هل انا ملحدون فعلا أم هناك متلاحدون ان صح هذا التعبير اي يتظاهرون بالالحاد وليس هناك الحاد حقيقي وهو في رأيي ناتج عن الفراغ الذي لم يعتن به الشباب فبحث الشباب بدوره عن سراب او اشياء براقة ليضع نقطا توضح نوعه او معالمه ليكون له مدلول ، واضرب مثلا على ان هذا التحدي ليس قويا ، من اساليب الاستعمار في الجزائر واخص بتجربة الجزائر فقط ، استسمح الاخ السوري انه بقي مائة وثلاثين سنة واستعمل وسائل كثيرة للتحدي والقصد من هذه التحديات هو طمس معالم الشخصية الجزائرية التي تعتمد اساسا على العقيدة الدينية ولكن عندما انطلقت الثورة اول شيء ركزنا عليه دون فهم له وبدون تحديد لفلسفاته هو مفهوم الدين والذين قاموا بالثورة كثيرا منهم اميون بل اغلبهم .

اذا ، في رأيي المشكلة لا تبقى في التحديات الفلسفية وانما تتجه الى الامكانيات الموجودة في شبابنا وفي شعبنا لابرازها واعطائها قيمة ومفهوما جديدا ليساير العصر .

انا كطالب ارى ان الجدال دار كثيرا حول الحاد الشباب وانا كشاب لا امس في هذا زملائي الشباب لان للشباب حقا في ان يلحد الآن ، والشباب اليوم بعيد عن الدين ، الدين شيء غريب

عنه . واذا عرفه عرفه ملوثا فماذا قدمه لنا اخواننا المتمسكون بالدين ؟ قدموا لنا لا شيء وماذا قدمه لنا الغير قدموا لنا الكثير ، قـــدموا لنا افكارا رضعناها في الحليب افكارا اخذناها من المدرسة وناخذها ولا زلنا نأخذها ، اذا الذنب ليس ذنبنا الذنب يقع على المجتمع والمدرسة والثانوية والجامعة فالشاب غريب عن نفسه بعيد عن شخصيته فهو يتخبط في بحر لا يجد فيه اى شيء يرتبط به ولا يجد فيه اى شيء يتمسك به فهو يتمسك باى شيء وجده في طريقه فقد وجد الاتجاهات الحديثـــة الفكرية التى عرفتموها لذا أنا أطلب من السادة الدكاترة والسادةالاساتذة ان يعطونا أشياء وأفكارا مدعمة يمكن لنا ان نتمسك بها وان تهـــدينا الى الطريق القويم لا ان نفكر فى أشياء ممكن ان نقول انها بزنطية .

الشيخ بوعمران

الاصالة ليست فقط المحافظة على الماضى ، بل لا بـد من غربلة هذا الماضى عن طريق العقل ، وعلى ضوء متطلبات العصـــر .

الآن يمكنني ان اقول كلمتى كشخص ثم اطلب من الاساتذة المحاضرين ان يجيبوا كما سبق لى ان قلت على أهم الاسئلة .

عندما طرحنا هذا الموضوع كموضوع للنـدوة كنا نشعر بان هذا موضوع الساعة ، لاننا نعيش بين القديم والحاضر والمستقبل على الابواب ، وورثنا من العهد القديم سواء كان من العهد الاستعمارى القريب أو من عصور لانحطاط أشياء كثيرة لا زلنا نعانى منها ونريد ان نتخلص منها فى اقرب وقت ممكن لندخل القرن العشرين ونســـاير الركب الحضارى ونعيش فى حضارة 1971 لا فى حضـارة 1940 ، ولا طبعا فى حضارة الصدر الاول للاسلام لان من طبيعتنا ان نعيش مع الظروف ، وعندنا فى الفكر الاسلامى مجددون كثيرون حاولوا ان يطبقوا مفهوم الاسلام والحضارة الاسلامية عـلى مشاكل الساعة ، ونرى من وظيفتنا نحن كمفكرين مسلمين او غير مسلمين وانما نعيش فى مجتمع اسلامى نرى من واجبنا ان نجيب على تحـديات الفكر الفلسفى المعاصر . والتحديات قد ذكرها اكثر من واحد فى هذه الندوة واكبر التحديات فى رأيى تتلخص فى عداوة المســيحيين للثقافة الاسلامية ومقاومة الماديين لكل ثقافة دينية بقطع النظر على الثقافة الاسلامية ، وهناك تحدى آخر فى رأيى لم يذكره احد الا باشارات خفيفة وهـو تحدى الحضارة المعاصرة لنا واشار اليه فى كلمته زميلى الاستاذ عبد المجيد مزيان ، اود ان اقـــول انه من واجب المفكرين عندنا فى الجزائر وفى مصر وفى سوريا وفى غير هذه الاقطار العربيـــة لان الفكر الاسلامى لا يقتصر على الاقطار العربية وانما يتسع الى جميع الشعوب الاسلامية ، فى افريقيا وآسيا وأمريكا ، لانى سمعت منذ قليـل أو منذ ايام بان فيه 12 مليون من العرب فى أمريكا الشمالية ، ولم نسمع بهم وسمعنا باربعة ملايين من الصهاينة اقاموا الارض والسـموات اما 12 مليون من العرب الذين يقيمون فى أمريكا اندمجوا فيها وذابوا ولم نسمع عنهم شيئا .

هذه التحديات الثلاثة : تحدى المسيحية لنا قد أشار اليه الدكتور محمود قاســـم منذ العصر الوسيط ولا يزال هذا التحدى مســتمرا فى اشكال كثيرة واستغرب من موقف الدكتورالحبابى وهو صديقنا وزميلنا لانه يرى بانه يمكن ان نتفق مع الفاتيكان فى مسألة من المسائل .

الاستاذ الحبابى يتدخل محتجا :

لا لم أقل هذا .

الاستاذ بوعمران :

نعم سمعتكواسمح لى ان اوضح فكرتى ، **سمعت** منك عبارات غريبة ، وانا استغرب هذا ، البابا لا يمكن ان نتفاهم معه فى شيء و لايمكن فى رأيى - هذا رأى خاص - لا يمكن ان اقدم مقالة للبابا والبابوات منذ خلقوا على هذه الارض لان الكنيسة اختارت موقفا حضاريا لا يمكن ان نوافق عليه ، فهى اختارت النظام الرأسمالى وكلكم تعرفون بان

الكنيسة لها ثروات هائلة لا يمكن تقديرها ولهذا قاومتها في ايطاليا في عقر دارها العناصر التقدمية اليسارية مهما كان نوعها ، وحاربها في فرنسا التقدميون وفي غير هذين البلدين ولا يمكن ان نتحالف نحن في بلاد اشتراكي واتكلم الآن كجزائري ختار لنفسه نوعا من التنمية وهي التنمية الاشتراكية حتى تشمل العدالة الاجتماعية جميع أعضاء هذا الشعب هذه الاشتراكية التي ليست بغريبة عن الاسلام وعن الفكر الاسلامي وبان الفكر الاسلامي لا يتنافى مع الاختيار الاشتراكي الذي نريده لاقطارنا ، طبعا هناك اختلاف هناك من يقول باشتراكية علمية مادية وهناك من يقول باشتراكية مؤمنة ولكنها مرتبطة بحل مشاكل العصر ونحن لا نريد ان نتفلسف كثيرا كما فعلنا اليوم ان لم يكن هدفنا حل مشاكل الساعة وان نقضي على الفقر وعن الجهل وعن التخلف في جميع اشكاله وجميع انواعه · والآن اريد ان اتوجه الى الاخ السوري واستسمح له في هذا ، انا لم اقل بان هذه الندوة خاصة بالجزائريين وانما قلت بانها خاصة بطبقة من المفكرين والاساتذة والطلبة ثم ستكون محاضرة اخرى لعامة المثقفين في عاصمة الجزائر · هذا ما كنت اقصد ، أما تجربة سوريا فقد سمعنا بانه وقعت تجربة في مصر وتجربة في اليمن ولكن ماذا استخلصنا من هذه التجارب ؟ لم نستخلص شيئا ولم نستفد ، لان التحديات قائمة فينبغي ان نرد على الماركسيين بأدلة تقنعهم ولا نتفلسف عليهم من زوايانا الخاصة، ونقول لهم انتم كفار ملحدون فهذه اللغة غير مقنعة · ينبغي ان نتحاور معهم ونتحراهم كما تحدونا ونأخذ منهم ما اصابوا فيه ونترك ما اخطأوا فيه ونحتفظ باصالتنا · **ومفهوم الاصالة هنا ليس فقط المحافظة على الماضي فينبغي ان نغربل هذا الماضي عن طريق العقل ومشاكل الساعة ونبعد ونلغي المقامات الحريرية والسجع والتصوف المتطرف كما اشار الى هذا الدكتور هويدى** ونحتفظ بالتصوف السني اذا كان حقيقة اسلاميا وينبغي ان نبحث في هذا كمفكرين · وقد سبقنا الدكتور محمود قاسم في هذا باشارات خفيفة وانا أعلم بان الدكتور عبد الحليم محمود رئيس التصوف السني وقد وضع في رسالته في السوربون موضوع بحثه المحاسبي ، وهو عقلي ، والغريب اني اكتشفت انه تأثر بالمعتزلة · واخذت من كلمة الدكتور الحبابي اشياء كثيرة ولكن وجدت تناقضات كثيرة ، وانا أدرس المنطق في هذه الجامعة والمناطقة لا يرضون بالتناقضات · عرفوا الفلسفة تعريفات مختلفة متضاربة فلا ادرى لو كنت طالبا كيف افعل مع هذا ، الاستاذ الذي يعرف الفلسفة تعريفات متضاربة فقال مرة تهتم بالغيبيات وبالاخلاق وقال الدكتور الحبابي انه يوافق الدكتور عبد الحليم محمود في تعريفه لها في هذين الجانبين ثم قال لنا الاستاذ الحبابي فيما بعد ، انها تهتم باللسانيات والانتربولوجيا وبالعلوم ، أنا اعرف الفلسفة بدوري بانها معالجة مشاكل العصر الذي نعيشه ،وليست معالجة مشاكل عصر ارسطو فنحن نعيش القرن العشرين ، فلنا ان نحل مشاكل القرن العشرين وان نفكر عمليا في بناء مجتمع يوفر المعاش لجميع الناس ، وهذه الفلسفة التي لا تريد السعادة الا للفلاسفة ليست بفلسفة ففلسفتنا فكر وعمل ، وفي عصورنا الاسلامية المزدهرة فعلنا هذا · جمعنا ما بين الفكر والعمل ، وجمعنا ما بين الايمان والعمل ، والآن نتخبط في رواسب عصور الانحطاط ، وقد طالت عندنا اكثر مما طالت عند غيرنا ، اظن ان الزملاء يوافقون على انها طالت عندنا لا أقل من ستة قرون · كنا نشع الحضارة على اوروبا في العصر الوسيط. لانه عصر ازدهار بالنسبة لينا وعصر ظلمات بالنسبة الى اوروبا · ثم نمنا نومة عميقة واخذنا نؤلف الموشحات ونحلم بذكريات غرناطة ، وبغداد ، ودمشق ، والغوطة الخضراء ، فدخلنا من باب الشعر الى الانحطاط وانغمسنا فيه وبقينا فيه ستة قرون ، وهذا من اغرب ما يمكن ما نلاحظ في تاريخ فكرنا ·

أريد أن أقول كلمة اخيرة : مادام موضوع الندوة ، التحديات بالجمع، ما هو موقفهم من المستشرقين المجددين مثل **جاك بيرك وماكسيم رودنسون وروجي غارودى** وان كان قد اشار الدكتور محمود قاسم الى الجدال الذي جرى بينه وبين غارودى وعلمت كما علمتم بان النقاش نشر في مجلة الهلال ولكن أقول لهؤلاء الاساتذة بان الشاب الاخير الذي تكلم والذي قال اذا كنا ملحدين ، فالذنب ليس ذنبنا واذا كنا متطرفين فالذنب ليس ذنبنا ، واذا كان الشباب عندنا في العالم العربي

الاسلامي من نوع الهيبي ، فهذا كله ذنبنا نحن لان الشاب تحدانا ، قال : الذنب ليس ذنبنه اذن ذنب من ؟ ذنبنا نحن ، فاليوم نحن في حاجة الى مفكرين في العالم العربي الاسلامي الى اعادة النظر في تراثنا وفي حاضرنا لنبني مستقبلا يوفر المعاش لجميع طبقات الامة ولتتخلص من الصراع الموجود ما بين الغني والفقير ، وما بين المشعوذ والمفكر ، وما بين المحافظ والتقدمي . وفي الختام اسال زملاءنا ماذا فعلوا وما يمكن ان نفعل معهم لنرد على هذه التحديات ولنتغلب عليها اتمنى ان نكون عمليين مفكرين او مفكرين عمليين في نفس الوقت .

وللدكتور الحبابي حق الرد على ما تحديته فيه وهذا من واجبي .

الاستاذ الحبابي :

اخذ الكلمة مرة اخرى لاعيد الاشياء الى نصابها . نحن في الفلسفة نعلم الطلبة الوضوح في الكلام حتى لا يحصل سوء التفاهم ، اذن اعيد توضيحا لما قلته : أعطيت مثالا على ما يقوم به غيرنا ، وهم المسيحيون الذين هم في تطور دائم . ان الخطر اليوم ليس في الاسلام بل في المادية والالحاد فقاموا بدراسة لهذا الوضع ليتغلبوا عليه وانا كتبت في الكتاب الذى اشرت اليه كما كتب فيه آخرون ، واحد يمثل التفكير في الهند ، وواحد في الصين ، وانا طلبوا مني ان اصف ما يعانيه العالم الاسلامي الآن في موقفه من الالحاد وغير ذلك .

واريد ان اتساءل : لماذا لا يوجد عندنا لا في المشرق ولا في المغرب متخصصون في اللاهوت المسيحي مثلا ، لاننا حينما نريد ان نصارع يجب ان نعرف ما هي اسلحة الخصم . هذا نقص في تكويننا .

اما التناقض في التعريف، فاظن ان السي بوعمران لم يأت بتعريف وان منشأ التناقض عنده هو انه لم يفهم ما قلته ، وساعيده عليه ، ان المثاليات ليست هي الفلسفة ، وان العلوم الجديدة ليست هي الفلسفة ! ولكنها المواد التي يتفلسف فيها الفيلسوف ، فاذا حذفنا الفيمنولوجيا والمنطق والسيكولوجيا والى غير غير ذلك فأي شيء تريد ان يتفلسف فيها المتفلسف ، في الميتافيزيقا ؟ نريد ان يعود الى ما انت تنهاه عنه اى الى ارسطو ؟ اني اعتقد انه يجب ان نكون مع عصرنا وان ندخل القرن العشرين ، ولكن القرن العشرين يروج عدة مفاهم جديدة وعلوما جديدة ، اذن على الفيلسوف ، اذا أراد أن يكون فيلسوفا حقا ، لا محسوبا على الفلسفة ، ان يهتم بتلك المواضيع ، وهذا لا ينفي المحاولة في التعريف الذى اقترحته بالمناسبة ، وهو « ان الفلسفة نسق تأملي يتركز على نقط استفهام » . أى ما هي السوسيولوجيا ؟ ما هو النقد ؟ .. فاذا انمحت نقط الاستفهام انتهى التفكير ، فنقطة الاستفهام هي محاولة في التفكير ويجب ان تركز هذه النقط على المعطيات الحالية للعلوم والفنون والصنائع والتقنيات .

هذا ما أردت ان أقوله .

ان الفيلسوف يتساءل دائما ليفهم وعندما يحصل الادراك تبدأ عمليات التغيير . وأؤكد ان التعريف السابق لا يفيد الحصر ، وانما هو تعريف تقريبي قابل للمناقشة . الفلسفة دائما في تساؤل:

يحى هويدى : تعليقا على التعريف الذى قدمه الدكتور الحبابي للفلسفة باعتبار انها نسق تأملي يضم مجموعة من علامات الاستفهام

الفلسفة بهذا تلعب دورا نظريا بحتا ، وتضع من مهمتها مجرد تصورات . التيارات الفلسفية المعاصرة مهمتها تغيير وجه الواقع فهي ملتحمة بهذا الواقع .

فالدين ايضا وخاصة دين الاسلام ليس فكرة . الدين الاسلامي وظيفة مرتبطة بالمشاكل الواقعية للناس .

انا اقابل بكثير من الحذر التعريفات التي قدمها الغربيون . ونكون في كثير من الاوقات مخدوعين. فالفلسفة ليست فقط علامة استفهام فقط ، انما هي وظيفة .

ملاحظة : بقيت فقرات قليلة من تعليق الدكتور هويدى وتعليق الدكتور عبد الحليم محمود لم نتمكن من نشرها بسبب تعطل جهاز التسجيل فمعذرة للاستاذين وللسادة القراء .

المحرر :

استفتاء الأصالة

كيف نكتب ..



د٠ عبد القادر زبادية
استاذ التاريخ الحديث ـ جامعة الجزائر

ما هي في نظركم المصادر الحقيقية لتاريخ الجزائر في عهد الاستعمار الفرنسي ، وكيف تتصورون المحتوى الذي يجب ان تشمله الكتابة التاريخية عن الجزائر في تلك الحقبة ؟

ج ـ السؤال ذو شقين ، ولذا فان الجواب عليه يتجزأ تبعا لذلك :

1 ـ المصادر الحقيقية لتاريخ الجزائر خلال العهد الاستعماري :

الواقع أني أجد في هذه المناسبة الفرصة الطيبة للتعبير عن الواقع الذي كنت ولا ازال اعيشه مع هذه القضية بالذات ٠ اذ يلاحظ ان الكثيرين يهمهم الاكثار من ذكر المصادر في الابحاث التي يتصدون لها ، وهذا ليثبتوا سعة الاطلاع ، أو لكي يبرهنوا على انهم اجهدوا انفسهم لكتابة تاريخ الجزائر خلال فترة ما ، أو قد يكون هذا وذاك معا ٠ ولكن المسالة ظلت كما هي ، ولم يطلع علينا أحد بجديد حتى الآن ، وهذا بالرغم من الرغبة الاكيدة التي تراود الجميع في اعادة

تاريخنا

في نطاق الرغبة التي تراودنا جميعا لاعادة تقييم تاريخ الجزائر وكتابته باسلوب يتناسب ومحتواه الحقيقي ،رات مجلة « الاصالة » ان تقوم باستجواب بين بعض الاوساط الجامعية التي تعتني بالابحاث التاريخية وهذا في شكل استفتاء ،والفرض هو توجيه الجهود للسبل الكفيلة بارشاد الباحثين في هذا المجال وخاصة الشبان منهم، وتطهير تاريخنامن كل التشويهات الحقت به

تقييم تاريخ شعبنا خلال الفترة الفرنسية بالذات، والراجح ان تحقيق مثل هذا الطموح لم يحصل منه شيء حتى الآن ، **لان قضية المصادر الاساسية** لم يقع تبينها بالشكل المطلوب ، فضلا عن **الوصول الى معرفتها بدقة . واذا كان من الثابت اننا لم نهتد لكيفية العثور عن تلك المصادر الحقيقية الى اليوم ، فان كل ما يبعث على الامل في الوصول الى تصور كنة تلك المصادر في وقت ما ، هو الارادة الجارفة لدى معظم باحثينا في التصدى للكتابة في تاريخ الجزائر ، وخاصة خلال الحقبة الاستعمارية الاخيرة ، وهذا لاقتناعهم بان استجلاء معالمها لم يتم بعد وفق الصورة الواقعية المطلوبة .**

لقد كتب الباحثون الفرنسيون الكثير عن تاريخ الجزائر خلال هذه الحقبة ، ولكنهم ظلوا يعتمدون على المصدر الفرنسية وحدها ، أى الارشيفات الاداريةاو المذكرات الشخصية ،وكذلك الصحف والمجلات ، ولكن كل هذا ، لا يبين ، في نظرنا ، الا على جانب واحد ، لانه لا يغطي الا وقائع المظهر الخارجي للجزائريين ، ومن هنا فان التوقف عنده غير كاف بالمرة لكتابة تاريخ الشعب الجزائرى خلال هذه الفترة . نقول هذا ، **لاننا نعتقد بان الجزائريين كانوا قد انكمشوا على انفسهم امام ارادة الفرنسيين في مسخهم ، وان ذلك الانكماش هو الذى جعلهم يتخذون نوعا من الباطنية ، فهم لا يظهرون للادارة الفرنسية الا الجانب المصطنع ، والى جانب ذلك بقي لهم وضع اجتماعي خاص هو وضعهم الحقيقي ، الذى ظلوا يحافظون عليه ويتشبثون به في شكل عادات جماعية وتقاليد عائلية ومفاهيم خاصة بهم كذلك .**

ومهما تنوعت تلك العادات والتقاليد بين القرية والمدينة والجبل والسهل ، فان المفهوم الذى كان يكيف السلوك العام ، هو الذى ظلت تتجسم فيه فكرة جميع الجزائريين عن الوجود الفرنسي بالجزائر ، ولقد ظل موحدا وتمثل فيه القدر المشترك بين اغلبيتهم الساحقة وان هذا الجانب الخفي عن الادارة الفرنسية والكتاب الفرنسيين ، هو الذى يمكن ان يفسر — من الناحية التاريخية —

بالعزلة التى التجأ اليها الجزائريون ، أمام محاولات الفرنسيين لسلبهم قيمهم الذاتية ومعالم شخصيتهم الوطنية ، وهذا لكى يسهل مزجهم فى الامة الفرنسية الى الابد ، هو الجانب الذى لا تزال مصادره غير متوفرة امام الباحثين ، ولا نعتقد ان الوصول الى تلك المصادر من الصعوبة بمكان ، ولكنه يتطلب تظافر الجهود والاتفاق الواعى المسبق ، حول المبدأ الذى يمكن الانطلاق منه لتحقيق هذه الغاية •

2 ـ المحتوى الموضوعي للكتابة التاريخية عن الجزائر خلال العهد الفرنسي :

الحقيقة ان الكتابة التاريخية فى شكلها الموضوعى ، انما تحدد نوعيتها المصادر التى تتوفر أمام الباحثين قبل اى شىء آخر ، ومن هنا ، فان للمصادر علاقة كبيرة بالمحتوى الذى ينتهى اليه ويسجله المؤرخ الموضوعى فى أبحاثه •

واذا كان ما كتب حتى الآن عن تاريخ الجزائر خلال العهد الاستعمارى ، لا يرضينا ، فذلك لانه لم يعتمد الا على المصادر التى تغطى جزء ضئيلا أو سطحيا من واقع الحياة لدى الجزائريين فى تلك الحقبة ، وهو ذلك الجانب الذى اتخذ عن اضطرار شكلا من الاصطناع اللاواقعى •

اما الكتابة التى تتعمق الى الواقع الخفى عن الادارة الفرنسية ، وتبرز المطامح والاهداف التى كان الجزائريون يضعونها نصب اعينهم ، كما تلقى الاضواء على واقع الحياة اليومية وتجسم لنا معنى الصلابة واسلوبها الذين يتمثلان فى اختيار الاهالى لحياة الحرمان والانعزال ، كى لا يجرفهم تيار الانسلاخ عن شخصيتهم الوطنية ، فان هذا كله لا يزال لحد الآن لم يكتب ، وهو مما نرى انه من ابرز عناصر المحتوى الموضوعى فى الكتابة

التاريخية عن جزائر العهد الاستعمارى الاخير ، خاصة وان الاهالى حافظوا رغم معارضة الفرنسيين على بعض مؤسساتهم القديمة ، مثل مجالس الجماعات والمدارس القرآنية والزوايا وغيرها ٥ وكان للتمسك بتلك المؤسسات ـ رغم جمودها فى كثير من الحالات ، دلالته الهامة التى تنير طريق المؤرخ وتسمح له بالتعمق فى خفايا التقاليد الاهلية ليضع فى النهاية يده على الحقائق كما هى •

ان المحتوى الذى من هذا النوع ، يمكن ان يكون أقرب شىء الى البحث الاجتماعى ، ورغم ذلك ،فانه التاريخ الصحيح ، اذا تصورنا ان الاهالى مارسوا فى البداية المجابهة مع المحتلين ، ولكن هؤلاء الاخيرين ما لبثوا بعد منتصف القرن التاسع عشر ان تفوقوا فى العدة والتنظيم ، ومنذ ذلك الحين اختار الاهالى حياة الانعزال والتمسك بها الى ابعد الحدود ، وكان هذا من اكثر مظاهر المقاومة ايجابية ، وذلك حينما تحول هدف المحتلين الى التعلق بفكرة تمزيق المجتمع الجزائرى ، والى سلبه معالم شخصيته بمختلف الاساليب ، لكى يسهل اندماجه فى الفرنسيين نهائيا والى الابد •

ان الجزائريين فى طور الانعزال تحملوا مصاعب كبيرة وجمة : (اغتصاب الاراضى ـ الانحصار فى الجبال والبوادى الفقيرة ـ الفاقة والجهالة والحرمان كنتيجة لكل ذلك) ، ومع ذلك فانهم اختاروا هذه الوضعية على وضعية اخرى يمكن ان تكون افضل منها بعض الشىء ، ولكنها لم تكن لتؤدى بهم فى النهاية الا الى المسخ •

أما تلك الانتفاضات التى رآها النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، فقد غلب عليها عدم الانتظام ، ومع ذلك ، فهى تعبر عن ذلك الفوران الكامن فى النفوس ، وهو الذى ظل يتفجر كلما

وجد الى الثورة سبيلا ، كما تعبر ايضا عن محتوى العزلة فى وجدان الاهالى ، وانه التربص المستمر بغية تغيير الوضع وتحين الفرص لطرد المحتلين ، وليس مجرد الانعزال للاستكانة الابدية لما كان مفروضا بالقوة والغطرسة ٠

وبالرغم من ان تلك الثورات كانت تخمد لما كان يغلب عليها من نص فى التنسيق ، الا انها كانت تجد دائما الاستجابة العامة والسريعة بين الاهالى فى جميع الجهات ، وهذه الثورات معروفة جميعها ، وربما كانت – لحد الآن – هى المظهر الوحيد فى حياة الاهالى الذى نال م' يستحقه من عناية الباحثين ، ولكن مكابدة الاهالى لصعوبات العزلة وصمودهم ضد رغبات الادارة الفرنسية ومضايقاتها لهم ، والتزامهم التلقائى تجاهها بموقفهم الخاص الذى كانوا قد حددوه مسبقا ، كل ذلك لا يزال يشكل المحتوى القويم للكتابة التاريخية عن الجزائر فى عهد الاستعمار الفرنسى ، ومن هنا فان الحديث عن الفاقة وعن الحياة الاجتماعية البئيسة ، وكذا عن الخلجات النفسية التى كانت تراود الاهالى وعن دور هيئات اللجان الشعبية فى مجتمع اولئك الاهالى ، هى ايضا من معالم الكتابة التاريخية الموضوعية بدون شك

كما ان تفسيرا تاريخيا رزينا لظاهرة تغلب اس'وبى المجابهة او الانعزال لدى الجزائريين ، عن الاس'وب السياسى فى شكله المعروف ، وهذا طيلة القرن الماضى على الاقل ، مما نرى انه يكون ايضا احد عناصر الكتابة التاريخية الموضوعية فى هذا المجال ٠

أما عن الثلث الاول من القرن العشرين ، فان التوازن بين الفاقة والانعزال ، ء لى الصورة التى اسلفناها ، والالتجاء الى اسلوب المقاومة السياسية أيضا مع عدم اختفاء الاتجاه الى المجابهة وحدته فى الاخير ، لانه اصبح فى أعين الناس الملجأ الوحيد ، كل ذلك مما لا يزال يستلزم جهود الباحثين ٠

وخلاصة القول ، القول ، اننا نريد ان نؤكد مرة اخرى ، اقتناعنا بانه لن يكون هناك تكامل فى محتوى الكتابة التاريخية عنجزائر العهد الفرنسى، اذا هى لم تعتمد على محاولة استقاء السند من وجدان الاهالى ومن حياتهم اليومية ، وكذا من شكل وتطور مؤسساتهم الخاصة مثل الزوايا وغيرها ، قبل الاعتماد على وثائق الادارة الفرنسية وحدها ، كما جرت العادة الى يومنا ، وهذا لان تلك الوثائق لم تكن لتتناول من واقع الجزائريين الا مظهره الخارجى المصطنع ٠

« أليس من الرشد والصواب ان نلغى عبارة العهد التركى من تعابيرنا الخاصة بالتاريخ وان نتكلم على المملكة الجزائرية المستقلة فى العهد العثمانى أى فى عهد الخلافة العثمانية مثلما قلنا العهد العباسى والعهد الاموى فيما يخص عهودا أخرى ومقاطعات اخرى من العالم الاسلامى ؟ » ٠



سؤال :

كيف نستجلى معالم تاريخ الجزائر خلال العهد التركى ؟

الاستاذ محمود بوعياد
مدير المكتبة الوطنية

كلما تأملت تاريخ بلادنا في الفترة التاريخية المسماة بالعهد التركي اتجهت افكاري الى الوجهتين التاليتين :

1 ـ ان هذه الفترة من تاريخ بلادنا تحتاج اكثر من غيرها من الفترات الى التنقيب عن المصادر الخاصة بها .

2 ـ اننا في حاجة الى توضيح موقفنا ازاء هذه الفترة . هل كانت بلادنا في ذلك العهد دولة ذات سيادة أم مستعمرة تركية ؟

فلنتعرض الى النقطتين على التوالي :

1 ـ بعث المصادر :

ان في متناول الباحث في ماضي الجزائر ما عدا العهد العثماني ، مصادر عربية واجنبية كثيرة نسبيا ، وان كانت طبعا بعض الجوانب من تاريخ تلك العهود والجانب الحضري منها على الخصوص تحتاج الى مستندات جديدة . وهذا لا يعني ان تلك العصور قد درست دراسة متقنة كافية فتاريخنا بحذافيره في حاجة الى ابناء هذا الوطن من الباحثين لاعادة النظر فيه واثبات الحقائق التي شوهها غيرنا ، أما فيما يخص العهد العثماني فانه لم يدرس الى يومنا هذا دراسة علمية كاملة ولم تنشر كل المصادر من محفوظات وكتب الخاصة بتلك الحقبة من ماضي بلادنا . وهذه المحفوظات من مراسلات وتقارير وعقود وكتب لا زال غالبها مدفونا بمختلف دور المحفوظات الموجودة في بلدان البحر الابيض المتوسط التي كانت لها علاقات مع الجزائر قبل العدوان الفرنسي سنة 1830 وفي مقدمتها دور المحفوظات باستمبول مقر الخليفة من آل عثمان وعاصمة العالم الاسلامي في تلك الازمنة .

وقد زرت بعض تلك الدور التركية منذ سنوات فبهت من اهمية المحفوظات المذكورة بها والتي تنتظر من يخرجها للناس ويتناولها بالبحث والدراسة وكل ما شهدت من تلك الوثائق مكتوب باللغة التركية بحروف عربية . كما توجد محفوظات باللغة العربية وباللغة التركية وبمختلف اللغات المستعملة آنذاك على ضفاف البحر الابيض المتوسط في موانئ ومدن لبلدان كانت للجزائر معها علاقات دبلوماسية ، وتجارية .

فمتى يتخصص بعض ابنائنا في اللغة التركية اولا ومتى يتوجه آخرون لمختلف تلك البلدان الحافظة لمصادر تاريخ بلادنا فيبعثون تلك المحفوظات من مدافنها اذ لن نتوصل الى معرفة حقيقة التاريخ في ذلك العهد قبل القيام بهذه العملية .

2 ـ موقفنا من العهد العثماني بالجزائر :

2 ـ ان النقطة الثانية وهي نظرتنا لذلك التاريخ متوقفة قبل كل شيء على دراسة تلك الفترة على ضوء المصادر الجديدة غير انه من الممكن ان نلقي سؤالا من الآن على الاختصاصيين وعلى كل من يهمه الامر قبل ان نجد جديدا في المحفوظات . الا نجد بعض التناقض في مواقف الذين كتبوا من المؤرخين والصحافيين وغيرهم من الكتاب ، عن تلك الفترة ؟ فاذا تكلما على العدوان الفرنسي سنة 1830 قلنا ان الجزائر كانت دولة ذات سيادة واذا تكلمنا على الاستعمار الفرنسي قلنا ان الجزائر حصلت سنة 1962 على استقلالها بعد 132 سنة من الاحتلال مشيرين حتما الى ان البلد كان مستقلا قبل العدوان فالاحتلال . وقد وقع في نفس التناقض اختصاصيون اجانب أيضا وانا نلقى على سبيل المثال عند المؤرخ الفرنسي شارل اندري جوليان في كتابه الاخير « **تاريخ الجزائر المعاصرة** » في الصفحة الاولى من الكتاب جملتين متناقضتين فيقول في الاولى « ان الجزائر كانت سنة 1830 ايالة من ايالات الدولة العثمانية وكانت في الواقع مستعمر استغلال تديرها اقلية من الاتراك » ويقول المؤرخ الفرنسي بعد ذلك في نفس الصفحة « ان سلطة الباب العالي رغم شرعيتها لم تكن في الحقيقة الا وهما » . وامثال هذه التناقضات موجودة بكثرة في كل ما كتبه قبل سنة 1830 الرحالة والساسة والدبلوماسيون الاجانب فمنهم من تكلم على مملكة الجزائر وسلطان الجزائر والدولة الجزائرية بدون الاشارة الى السيادة العثمانية ومنهم من تكلم خلافا لذلك على ايالة على رأسها حاكم يعينه الخليفة المقيم باستمبول .

ولاتمام نص السؤال على المعنيين بالامر نزيد قائلين :

التاريخ الاجتماعي ودوره في تاريخ الجزائر



الاستاذ عبد المجيد مزيان
استاذ علم الاجتماع ـ جامعة الجزائر

ليس من السهل ان ينجو الانسان من اخطار الذاتية عندما ينـــزل من سمائه النظرية الى صلب الواقع الحي في التاريخ الاجتماعي ، بكل ما تكلمنا عن الموضوعية التاريخيـــة وحصرنا كلامنا في ميدان منهجي ، كنا مدققين وموفقين ايما توفيق ، ولـــكن تطبيق هذا المنهج بكيفية تضمن اكتشـــاف الواقع ، يتطلب شروطا قلما يفي بها الباحثون ، ذلك ان التاريخ ذو حركية وسيلان عارم من جهة وذو تشـعبات اجتماعية لا حصر لها من جهة اخرى ٠

وليس بوسعنا في هذه النظـــرة الخاطفة التي نحاول من خلالها ابراز أهمية التاريخ الاجتماعي ان نقوم بسرد لكل التشويهات المتســـلطة على الواقع التاريخي ، ولكننا نستطيع ، على الاقل أن نذكر بعض الخرافات الفكرية التي تروج حتى الآن عن مفهومنا للتاريخ :

1 ـ فمن الخرافة ان نتصور التاريخ احـــداثا ليست من صنع المجتمعات :

ان التاريخ كما يقال ذاكرة الشعوب ، ولكنها ذاكرة مسخت مسخا الى حد انتسابها لغير الشعوب، ذلك انها كانت عرضة للصدف والغموض أحيانا ، وللتدليس في أغلب الاحيان ٠ وبحكم هذه الصدف التي هي روايات المؤرخين القـــدماء ، فرض على الشعوب ان تنسى تاريخها الحقيقي ، وتتذكر صورا كالاوثان ، لافراد وضعوا على قمم التاريخ ، لانهم كما يقال لنا ، صنعوا أحداث التاريخ ٠

تقول النظريات الفردانية التي تدافع عن هذه الخرافة ان كتابة التاريخ عمليـــة تركيبية تلخص الاحداث الجزئية في الحادث الممتاز ، وتركب ارادة المجتمعات في ارادة قادتها ، وتصــــهر مجموعة الاوضاع الاجتماعية في المظهر الاكثـــر بروزا ، وليس كمثل الحادث السياسي ، والقائد العسكري ، والمفكر الكبير تشخيصا حيا للاحداث والتطورات٠ وتقول هذه النظريات ايضا ان الشعوب لا تصنع شيئا بل يصنع لها ، ولا تريد بل يراد بها ، وخير دليل على ذلك عدم وعيها للتشعبات السياسية ، وتيه الافراد في تفسير حيـــــاتهم الاجتماعية ، وانفلات الاحداث من ايديهم الى حد اندهاشهم أمام تطورها ٠ نعم ان هذه المشاهدات صحيحة في حـد ذاتها ولكنه من الخطا ان نستنتج عنها الاستنتاجات الفردانية ، بل لابد من تدعيم هذه المشـــاهدات بملاحظات تزيد في تشخيص هذا الاســـتلاب ، ولكنها لا تنفي مصدره الاجتماعي ٠ انه لمن العناد الفلسفي الفارغ ان نقول ان الفرد لا يصنع شيئا في الاحداث الاجتماعية التاريخية ، ولكننا ندعي انه يساهم بقدر مهم أو يسير في هـــذه الاحداث بصفته عضوا في المجتمع وانه لا يفارق هذا المجتمع كالكائن المحلق في العلويات ، انه والآخـــرون

باسم هذا الضمير التاريخي صنفت الامم طبقات منها القادرة على التحضر ومنها المحكوم عليها بالبدائية الابدية ـ وباسم هذا الضمير قسمت الحروب الى حروب عادلة مشروعة واخرى غير عادلة فنسب العدل الى ابناء الامم الغالبة والفتنة والغزو البدائي الى ابناء الامم المغلوبة . وباسم هذا الضمير حكم على بعض المجتمعات بالانحطاط ونفاذ القوى وخصصت لمجتمعات اخرى وسائل النهوض والتقدم . فليس هذا الضمير الا مطية للتدليس والزور التاريخي ، وليس افتراء الفيلسوف الالماني هيجل منا ببعيد حينما عرض تصنيفاته الفكرية والسياسية للامم على ما سماه بالتاريخ كضمير وحينئذ ادعى ان الهمجية كلها في غير اوروبا والحضارة والفكر كله في اوروبا . واقرب الينا من ذلك ما يقوله مؤرخو الاستعمار عنا من اننا في المغرب العربي اعراق متنافرة لا تعرف الا الفتنة والتشتيت ، واننا استنفذنا قوانا الحضارية منذ سبعة قرون بحكم قوانين التاريخ وبحكم الضمير التاريخي الذي حكم بعجزنا ، فيما يزعمون .

ان كل هذه الاضاليل ترجع الى رواج الخرافات الروحانية حول التاريخ .

ثم ان الخرافة الثالثة التي نريد ان نشير اليها خرافة منهجيــة تدعى **ان الموضوعية في كتابة التـاريخ لا يمكن ان تتحقق اذا كان المؤرخ من المجتمع المؤرخ له .**

ان هذا الموقف يطرح مشكلا منهجيا وعقائديا في نفس الوقت . اننا لا ننكر ان كثيرا من الذين ارخوا لمجتمعاتنا من ابناء امتنــا غلبت عليهم عواطفهم ، أو قل وعيهم ، ولكن الذين أرخوا لنا من الاجانب كانوا اكثر عاطفة بأحقادهم ، واقل وعيا لجهلهم بأحوالنا . واذا كان كل من الوطني والاجنبي ينتسب لعقيدة ما ، فمن الاحســن ان تحك العقيدة بالعقيدة وان يقرع المنهج بالمنهج حتى نقترب من الموضوعية في التاريخ . فلا ضمير اذا ان تقف الشعوب مواقف عقائدية احيانا تجاه مواقف عقائدية اخرى مشوهة للواقع . ألم نقل اننا نريد استئصال جرثومة الاستعمار في نظرته لتاريخنا ؟ ان هذا توجيه وموقف عقائدي لا يمكن انكاره ، ولكنه موقف مجتمع بأجمعه نفي بكل ما

يكونون المجتمع ، ولا يجوز ان ننزع من المجتمع ما هو منه واليه . هذه ملاحظة اولى ، والثانية هي ان الشعوب تبني مجتمعاتها بيدها وتصنع احداثها التاريخية متداخلة او متصارعة مع شعوب اخرى ، ولا يهمنا هل تكون هذه الاحداث منضبطة لارادة المجتمعات او معاكسة لهذه الارادة ، انما المهم ان ننفي خرافة المصدر اللامجتمعي للاحداث التاريخية . والملاحظة الثالثة ترجع الى ان الفرد الذي يعيش ظاهرة اجتماعية ، قليلا ما يمكنه ان يعيها وعيا علميا موضوعيا ، ومن هنا يضع مخاوقه الاجتماعي هذا خارجا عنه ، فاما ان ينسبه الى السمـاء والسماء منه بريئة واما ان ينسب الى الاوثان البشرية ، والاوثان البشرية عاجزة عن ان تتحمل وحدها مسؤولية التاريخ ولو في الجزء اليسير والزمن القصير .

هذه خرافة أولى .

2 ـ والخرافة الثانية ان نعطي للتاريخ كينونة تجعل منه كائنا روحيا او ضميرا انسانيا .

وقد تعود كثير من المفكرين ان يقولوا هكذا أراد التاريخ ، و « هذه هي اتجاهات التاريخ » كان التاريخ كائن روحاني يطفو على البشرية فينسج لها الاحداث ويرسم لها التخطيطات وليس الانسان في هذه الحالة الا منجزا لاوامر هذا الكائن الروحاني المتعالي . ان هذا لحقا قلب الواقع رأسا على عقب حتى أصبح مخلوق البشر يقوم مقام خالق لاعمال البشر . ويغالي المغالون من اصحاب هذه النظرية المروائية الى درجة انهم يتخيلون طبيعة تاريخية لها سننها وقوانينها التي يخضع لها الناس مقهورين ، لا يستطيعون الا الانزلاق مع الاحداث الى هدف لا يعلمه احد ، ذلك لان التـاريخ في نظرهم كائن مسير وليس بالمخلوق المتكون من الاحداث المخلوقة .

ثم ان هناك طائفة من المفكرين يتكلمون عن التاريخ كضمير انساني عام موحد ، انتصب فوق الامم ليحكم الامم فتجدهم يعرضون الاحداث والامم على هذا الضمير المزعوم ويدعون انهم ينجزون للتاريخ وانهم يحكمون التاريخ وانهم ماثلون امام التاريخ . وليس في مثل هذه المواقف الا تبريرات لافتراءات المفترين ، وعمادا خرافيا للمزورين .

لديه من عزم ، وضعية تاريخية نسميها الانحطاط والاستعمار ، وقد نفاها في الواقع الحي وصنع بذلك تاريخه بيده ، ثم اصبح عليه ان يسترجع من ماضيه ما هو له حقا وان ينفي ما ينسب اليه زورا وبهتانا ·

3 ــ ولا تكون مراجعة التاريخ الا بالرجوع الى المجتمع :

قد تعودنا اليوم ان نسمي التاريخ شيخ العلوم لاننا اذا أرخنا للبشرية في جميع مظاهر حياتها فقد نكون مؤرخين للمجتمع ونشاطاته وللانسان وعلاقاته بالطبيعة ولكل علم بمفرده ولكل العلوم في تداخلها وتعاونها ، ولكل علم حدث فكري او مادي في انعزاله ولكل الاحداث في شبه نسيج يجمعها ، ان كل ظاهرة انسانية لها بعدها التاريخي او كما نقول اليوم لها تاريخيتها وصيرورتها · ولو فرضنا في المستقبل وجود مادة تلتقي حولها جميع المواد لبدأنا من هذه المادة التي تعتني بالصيرورة والتاريخية · ولا يمكن للتاريخ الجزئي والمجزئي ان يفي بهذا الفرض · ولا يمكن للتاريخ المحلق على أعلى القمم الا ان يعطينا نظرات خاطفة عن الواقع المتشعب · أما التاريخ الاجتماعي الذي يرد الاحداث الى مصادرها الحقيقية فهو اقرب مادة ، فيما يبدو لنا لاسترجاع الواقع الانساني ، ولاعطائنا عنه صورة جد قريبة من الموضوعية الحقة ·

د· أبو القاسم سعد الله
استاذ التاريخ الحديث ـ جامعة الجزائر

ما هو دور النخبة في تاريخ الجزائر المعاصر ؟

قبل الاجابة على هذا السؤال « لابد من تعريف النخبة » يراد بالنخبة عادة فئة قليلة تمتاز بثقافة معينة راقية وتفتح ذهني وحرية فكرية وطموح اجتماعي وسياسي احيانا · وهي في العادة فئة تعيش خارج المجتمع ولها آمالها وبرامجها وافكارها الخاصة ، ويجب الا يختلط معنى « النخبة » بمعنى « الانتيليجنسيا » · ذلك ان هذه تعني فئة متميزة ثقافيا وسياسيا واجتماعيا وليس من الضروري ان تكون عناصرها من المثقفين البارزين·

وقد ساعدنا احد الجزائريين فعرف النخبة بانها جماعة تعيش فوق المجتمع بحكم تكوينها واهدافها· واذا عدنا الى تاريخنا الحديث فاننا نجد ان هذه النخبة كانت موجودة حتى في العهد العثماني · ذلك ان هذا العهد قد شهد تركيبا طبقيا يشبه الى حد كبير التركيب الطبقي الاوروبي في القرن الثامن عشر · وكان بعد النخبة في هذا العهد بعض المفاتي والقضاة وبعض المثقفين الذين كانوا يشعرون بانه لا مكانة لهم في المجتمع ·

والذي يتتبع التطور السياسي للجزائر اثناء الفترة الاولى للاحتلال يلاحظ بدون عناء ، مدى الدور الذي لعبته الجماعة المذكورة · فالمفتي ابن العنابي ، والمثقف حمداني خوجة ، وقضاة قسنطينة وبعض مرابطي معسكر وتلمسان كلهم قاموا بدور نشيط في الفترة المذكورة ·

ولكن هذا الدور الفعال سرعان ما كبحه الفرنسيون خشية من العواقب التي تتهددهم لو تسامحوا مع قادته ، لذلك تشتت اولئك القادة في مختلف البلاد العربية الاسلامية ، بل في فرنسا ايضا ، وحل بعدهم فراغ مخيف في الحياة الروحية والفكرية وبالتالي السياسية في الجزائر ، وظل الامر كذلك الى نهاية القرن الماضي · حقا لقد ظهرت عناصر

روحية يمثلها رجال مؤمنون بقضيتهم امثال الشيخ الحداد والشيخ بوعمامة وغيرهما ، ولكن موجة الاستعمار كانت اقوى فيما يبدو من موجة المقاومة في النهاية •

وبنهاية القرن الماضى ظهرت فئة جديدة وليدة العهد الاستعمارى ، ولا نستغرب ان يكون قادة هذه الفئة من المثقفين بثقافة المحتل والمتأثرين بطرق معيشته • وماداموا كذلك فقد زعموا انهم غرباء فى مجتمعهم بل انهم فوق هذا المجتمع وانهم يريدون تحوله لكى يرقى الى مستواهم الثقافى والاجتماعى •

ولقد دخل هؤلاء فى صراع اجتماعى وسياسى احيانا مع طائفة اخرى من الجزائريين كانت تتمسك بالتقاليد العربية الاسلامية كضمان فى وجه موجة الاندماج والتفسخ وتحويل المجتمع الجزائرى الى مجتمع اوروبى • وقد احتد هذا الصراع اكثر فى فترة ما بين الحربين ، فاصبح لكل فئة حزبها وصحفها ونواديها واتباعها •

وبنهاية الحرب العالمية الثانية نجد ان كفة الصراع قد رجحت لصالح النخبة الوطنية سواء منها من يمثل التيار التقليدى او من يمثل التيار التقدمى المتفتح ، وتبلور هذا الانتصار فى ذوبان هذين التيارين معا فى ثورة 1954 •

وهذا التاريخ يمثل فى الحقيقة نهاية النخبة التى كانت تزعم بانها فوق المجتمع الجزائرى والغريبة عنه •

والخلاصة ان النخبة الجزائرية قد مرت بثلاثة ادوار : دور ايجابى فعال اثناء الفترة الاولى للاحتلال ، ودور متذبذب فى مطلع القرن الحالى ، ودور طلائعى ثورى ، ابتداء من سنة 1954 ، ولكن هذا لا يعنى ابدا ان العناصر المضادة للتيار الوطنى قد انتهت •

والخلاصة ان النخبة الجزائرية قد التاريخ الاجتماعى ودوره فى تاريخ

الجزائر

الجزائر في تاريخ الحضارة

2

مصطفى الأشرف

مستشار بالرئاسة

ترجمة : د. حنفي بن عيسى

(١)

مما لا شك فيه ان بلدان البحر الابيض المتوسط ، باعتمادها على امكانياتها الخاصة فى تقرير المصير والاخذ باسباب التقدم ، ما كانت ليستطيع ان تضرب بسهم فى الحضارة وان تبرهن عن كفاءتها فى ميدان الثقافة ، لو لم يحدث أمر وحيد فى نوعه ،وهو ان هذه المنطقة من العالم ببت فيها حركة ثقافية مبدعة ،اتسع نطاقها حتى امتدت الى اقصى البلاد ، وتواصلت على مر الدهور ، وعادت بالخير على المنطقة باسرها .

(١) راجع الحلقة الاولى من مقال الاستاذ الاشرف فى العدد الثانى من هذه المجلة

ان الدور الذى قام به اليونان فى مضمار الحضارة شبيه بالدور الذى لعبه الفينيقيون فى حضارة البحر الابيض المتوسط ، اى فى اطار عالم كان مغلقا على نفسه ، فاصبح من الضرورى ان يتفتح على الحياة ، وان يساهم كل قطر يطل عليه بنصيب ، وان يشارك فى اثراء التراث المشترك وصيانة الخصائص المميزةلهذه المنطقة ،ولقد قال الفيلسوف اليونانى ديون كريزوستوم Dion Crysostome الذى عاش فى القرن الاول الميلادى بأن : « اهالى قرطاجنة الذين تحولوا الى ليبيين (اى الى بربر) بعد ان كانوا صوريين Tyriens جمعوا اموالا طائلة وانشأوا اسواقا عديدة وموانىء وسفنا حربية وبسطوا نفوذهم برا وبحرا الى مناطق بعيدة ، ومن المعروف ايضا ان مؤرخى العصور الغابرة كانوا يسمون سكان المدن البونيقية الواقعة على الساحل المغربى ، الليبيفينيقيين Libyphéniciens ، وان دل هذا على شىء ، فانما يدل على ان فئة من سكان البحرالابيض المتوسط القادمين من الشرق استطاعوا، بحكم تفوقهم الحضارى ، وبدون حرب ولا ظلم ، استطاعوا ان يصبحوا من العناصر النشيطة النافعة للبلاد ، حتى انهم اندمجوا فى الفئة الاخـــرى من سكان البحر الابيض المتوسط ، وربطوا مصيرهم بالمصير الافريقى ، ونقلوا الى الشواطىء التالية من البحر المشترك ، بعض الجوانب الحضارية المجهـــولة او الصنائع التى برعوا فيها

واذا نظرنا الى المراكز التجــــارية والمدن المنشأة على الســـاحل الجزائرى وهى يومنيوم Iomnium (تيجزيرت) واكوسيم Icosium (الجـــزائر) ويول (شرشال) وروسيكاد Rusicade (سكيكدة) وروسوكورو Rusuccuru (دلس) وروسجونا Rusgunac (ماتيفو) (2) وغيرها من المدن الاخرى، فاننا نلاحظ ان التاثير كان متبـــادلا ومتنوعا بين الطــرفين ، من حيث البيع والشراء مع البربر ، ومن حيث الاقبال على الســلع المعروضة ، وطرق التعامل ، بل ومن حيث اللغة التى هى قريبة من الليبية القديمة ، مما جعل الاهـــالى يتقبلونها بنفوس راضـــية ، وهكذا ازدهرت الحضارة نتيجة الامتــــزاج والاشتراك على مدى التاريخ فى الآلام والآمال

انها حضارة ممتزجة فى غيرها ، لان الفينيقيين كانت لديهم قابلية خاصـــة لتعلم لغات الاهالى ، والتـــزاوج مع البربر ، ولان سياستهم تتميز بالتعقل والحكمة ، وقد استطاعت قرطاجنـــه ، بهذه السياسة الحكيمة ، وبنشـــاطها الاقتصـــادى الناجح ، ان تعلم الاهالى كيف يستخدمون المعادن وكيف يزرعون القمح وكيف يغرسون الكروم واشجار الزيتون ، وهى لم تحاول ان تخضع ملوك البربر وزعماءهم ، وان تفرض عليهم امرا ما ، بل استدرجتهم بالرضى لعقد احلاف ومعاهدات كان لها تاثير كبير بالنسبة الى ميزان القوى فى حوض البحر الابيض المتوسط Etrusques

ولقد اخـــذت ثقة ملوك البربر وزعماءهم بمســـتقبل الامبراطورية البونيقية تضعف فيما بعد ، بسبب المناورات السياسية وتســـلط بعض الفئات من الوجهاء والاعيـــان ، ولان قرطاجنة حاولت ، بعد ما تخلى عنهـــا حلفاؤها الاتروسك ، ان تصد الخطر الذى يهددها من طرف الرومان ، ولكن ضعف ثقتهم ربما كان راجعا بالدرجـــة الاولى الى ان الممالك الكبرى التى اسسها البربر آنذاكبلغت مرحلة لا باس بها من حيث النضـــج الوطنى ، فاخذ ملوك البربر وزعماؤهم يفكرون فى امكانية التخلص من التبعية البونيقيه وتقرير مصـــير بلادهم تبعا للوضع السياسى والاقتصادى الســـائد فى حوض البحر الابيض المتوسط ، الا ان الممالك البربرية فى الجزائر كانت آنذاك لا تزال دولا تعتمد على القـــوى البرية ، فى حين ان صفحات التاريخ كانت تسجل فى البحار ، وفى الاراضى المطلة على البحار ، لا فى الســـهول والقفار ، وهذا الامر لم تدركه روما ، فدارت عليها الدائرة خلال الحـــرب البونيقية الاولى

على ان روما كانت فى تلك المرحلة الانتقالية المتقلبة ، تجرب سياســـة جديدة فى التعامل ، وطرائق تدل على المهارة ، وتسلك مع بعض ملوك البربر سلوكا جعلهم يميلون اليها ، وبما ان روما بعيدة من حيث المكان عن شمال افريقيا ، فلا مجالللتخوف منها ،ولذلك اخذ ملوك البربر يعملون من اجـــل التخلص من كل تبعية ومن كل تدخـــل فى شؤونهم ، حتى ولو كان خالصا من الاغراض الاستعمارية ، وبدات مدينة « سيرتا "Cirta" » (قسنطينة اليوم) تحتل مكانتها فوق الصخرة التىشيدت عليها ، كعاصمة كبرى ، وكان الملك آنذاك هو مسينيسا ، وهو رجل حازم، عمل كل ما فى مقدوره لتمدين بنىقومه وتثقيفهم ، وهو الذى اشذ على عاتقه مهمه توطينهم بعـــد ان كانوا رحلا ، واسكانهم فى الاراضى المســـتصلحة وتعويدهم على الحياة المثمرة الهادئة فى الحقول والبساتين ، مع تجنيدهم عنـــد اللزوم لشن الغارات النوميدية الظافرة على اسبانيا وايطاليا ، وادرك مسينيسا ان « سيرتا » هى اجدر مدينة للاشراف على هذا العمل الجبار ، وعلى نوميديا باسرها ، ولعل امة البربر كانت قـــد اخذت تسلم امرها الى ملوكها من اجل قيادتها واحلالها المحل اللائق بها بين الامم

---

(2) وتعرف باسم رأس تامانتفوست (المترجم)

وتخاصم مسينيسا مع سيفاكس Syphax (ملك نوميديا الغربية) ، فاخذ يفكر فى استبدال حلفائه القدامى بغيرهم

واقنعه سيبيون اميليان Scipion Emilien بالانضمام الى صفه ، فساهم مسينيسا بذلك مساهمة قوية فى هزيمة حنه بعل (القائد القرطاجنى الشهير)

فى زامه Zama عام 202 ق م ، وتعتبر هذه المعركة نقطة تحول بالنسبة الى نوميديا وشمال افريقيا باسرها : فافريقيا ، بعد ان كانت منطلقا للفتوحات البحرية القرطاجنيه ، اصبحت ، لعدة قرون ، حليفة روما فى مشاريعها الاستعمارية، مما قضى على جميع المساعى والجهود التى بذلك من اجل النهوض بامة البربر من شعب متخلف ، الى امة متمدنة ،تلك المساعى والجهود التى كانت تنجح فى تكوين دولة كبرى موحدة منظمة وذات سيادة

ولئن كانت شمال افريقيا ،بالنسبة الى الفينيقيين ،مركزا من مراكز الحضارة ومحطة للتجارة والاستكشاف فى سيرهم نحو الاقطار المجهولة ، وحلقة وسطى بين البحر الابيض المتوسط المعروف لديهم ، وبين المناطق المجهولة التى يريدون الوصوه اليها من وراء فيافى الصحراء ، اى الى القارة السوداء ، لئن كان الامر كذلك بالنسبة الى الفينيقيين، فان شمال افريقيا ـ وهى البلد الكبير المجاور لصقليه واروبا ، الغنى بعوارده الطبيعية وامكانياته البشرية ـ ما لبثت ان صارت بالنسبة الى الرومان الذين اطاحوا بالحكم القرطاجنى ، ارضا للاستيطان ، ومسرحا للمناورات والحروب ، حيث كانت طوابير روما تعيث فيها فسادا

ونحن لا ندعى من وراء هذا الكلام ، ان حكم الرومان لم يكن على وجه الاطلاق مفيدا لشمال افريقيا والجزائر ، ولكن الشىء الذى يهم مؤرخ الحضارة وعالم الاجتماع بالدرجة الاولى ، هو انتشار القيم الحضارية بصورة تلقائية ،والاقبال العفوى على الثقافة والصنائع ، لان الحضارة ، كما نفهمها ، معناها النشاط الذى تساهم فيه الجماهير من غير اكراه ولا ظلم ، ومعناها العمل فى بوتقة البشرية جمعاء ، من اجل ايجاد الحلول المناسبة للحاجات اليومية والمشاكل العملية

وبعد ان خرب الرومان قرطاجنة ، اعلنوا ضمها الى الامبراطوريه لكى يمنعوا حلفاءهم ملوك البربر من الاستيلاء على هذا البلد ، والتفكير فى استعادته بعد ان خرج من يدهم

ان القرطاجنيين الذين نجوا بانفسهم من التقتيل والتخريب ـ وهو امر بكى له ، فيما يقال ، سيبيون الافريقى نفسه Scipion L'Africain علما بانه هو الذى امر بتلك المجازر الرهيبة ـ هؤلاء القرطاجنيين استجاروا بالبربر فاجاروهم ، واخذوا يواصلون رسالتهم الحضارية السامية ، وهكذا ، فقد انتشرت اللغة البونيقية اكثر مما مضى ، حتى ان الكتابات المنقوشة بهذه اللغة تكاثرت فى الجزائر عام 118 قم، اى بعد ما يزيد على ثلاثين سنة من دخول الرومان ، وكذلك فان اللهجات البربرية تطورت الى لغات مكتوبة ، واخذ الملوك النوميديون الذين ندموا لو ينفع الندم ، يجمعون الكتب من المكتبات البونيقية التى اراد سيبيون اميليان ان يخربها ، رغم انه كان معروفا بالثقافة والعلم ، كما اعادوا تشغيل المعامل الفينيقية ، ونهضوا بتلك المهمه على احسن وجه ، واستانفوا تشييد صرح الحضارة فى حقل الزراعة والصناعة تلك الحضارة التى انشاها الليبيفينيقيون منذ عشرة قرون خلت ، فاتى من بعدهم الرومان ، وقضوا على تلك المحاولة المباركة ، وقد كتب المؤرخ جيروم كاركو بينو Jerôme Carcopino فى هذا الصدد يقوه : « لم يبق من قرطاجنة شىء ، بعد ان خربها الرومان تخريبا كاملا : لقد اصبحت هى واهلها اثرا بعد عين »

اما البقية فمعروفة : لقد اخذ خلفاء مسينيسا وورثة عرشه يتناحرون ويتقاتلون ، وفرض الرومان حمايتهم على ما يشكل اليوم الجزائر والمغرب الاقصى ، ثم نشبت الحرب الطويلة التى دامت عشر سنين وتصارع فيها يوغورطا مع اكبر قادة الحرب فى روما ، ونشان الاحزاب السياسية وانخرط فيها الامراء النوميديون ، بعضهم يناصر قيصر ، والبعض الآخر يناصر انطوان واوكتاف وبومبى ، الى ان جاء عهد اوغسطس الذى بفضله عرفت آخر مملكة بربرية تاسست فى الجزائر ، عهدا من الرخاء والازدهار لم تعرفه من قبل ، تحت حكم يوبا الثانى ، وهنا ايضا ، فان هذا الجانب المزدوج المتعلق بالسلطه والحضارة يدعونا الى ان نقف لحظة لكى نتامل قليلا فى الثقافات المفروضة بالقهر والقوة ، او المقبولة من طرف شعب من الشعوب حينما تلبى تلك الثقافة بعض الحاجات الوطنية الملحة ، لابد كذلك من ان نقف قليلا لكى نرى كيف يستيقظ الشعب بعد طول غفلة ، وما هى الخصائص العامة للمجتمع البناء ،المجتمع الذى يتفتح على الخارج لكى يستفيد من تجارب الغير ، ويلتفت الى الماضى ، لكى يوحد الصف ويحيى التراث ويعيد مجده الغابر وسيادته المغصوبة

او اوكتاف الذى اصبح يعرف ، بعد تقلده للحكم وتعزيز سلطته ، باسم اوغسطس ، كان لا يزال مشغولا بتركيز دعائم الامبراطورية الرومانية الواسعة، والقضاء على الحرب الاهليه فى ايطاليا بالذات ، ولذلك القى عن كاهله شؤون شمال افريقيا واراد ان يتخلص من مشاكلها فقام بتنصيب امير شاب من امراء البربر هو يوبا الثانى ، واسند اليه الحكم فى ثلثى البلاد

ان هذا الملك الذى هو من سلالة نوميدية عريقة ، لم يتاثر بالحضارة

البونيقية ، لانه تربى فى روما وتعلم اليونانية واللاتينية ، واقام فى ديار الغربة ، رهين حرب ، منذ نعومة اظفره، بعيدا عن افريقيا بلاد الاجداد ، وقد اخذ هذا الملك الشاب منذ عام 29ق‌م ، يعمل من اجل احياء عهد الحضارة المزدهرة التى انشاها اجداده الاولون ، وقد تضافرت عدة عوامل فى حياة هذا الملك ، فوضعته فى قلب التيارات الكبرى ، وفى معترك الاحلاف والشدائد والايام التاريخية المشهودة التى برهنت فيها منطقة البحر الابيض المتوسط بانها ارض التعاون العالمى ، والوحدة الثقافية الشاملة ، والبطولات الخارقة ، والاساطير التى رفعت بعض الملوك والرجال العظام الى مرتبة الآلهة ،وفى عام 19ق‌م ، زوجه الامبراطور اوغسطس بكيلوباطرة سلينى ، بنت كيلوباطرة الشهيرة فى التاريخ ، واصبح بلاط يوبا الثانى مكانا يقصده الفنانون اليونان ، والنحاتون الكبار ، والعلماء الذين اخلوا يجمعون فى مكتبته المخطوطات النادرة ، ومما لا شك فيه ان تشربه للثقافة الرومانية قد سهل عليه المهمة التى كلفه بها اوغسطس ، وهى نشر الحضارة الرومانية ودعوة بنى قومه الى مبادئها ، لكى ينسوا حضارتهم الاصيلة التى هى مزيج من الثقافة القومية ومن التقاليد والصنائع الموروثة عن قرطاجنة وعن الليبيفينيقيين ، على ان يوبا الثانى كان ميالا للثقافة اليونانية المجردة من الاغراض والاطماع، ولم يكن متاثرا بثقافة الرومان الا لانه ظل مخلصا لروما ومعترفا لها وللقيصر اوغسطس بالجميل ، وكان عالما وكاتبا وممن يقدر الروائع الفنية حق قدرها، ولم يقتصر فى نشاطه الثقافى على المجال الفكرى ، وينبغى ان نذكر هنا بان مملكته كانت تشمل ثلثى مساحة الجزائر الحالية ، ومساحة المغرب الاقصى الذى لم يتمكن المعمرون والتجار والحكام الرومان من الوصول الى اطرافه النائية، ومن تنظيم شؤونه الادارية ، ونحن نشير الى هذه النقطة لانها ستكشف لنا عن صفتين غريبتين وراسختين فى نفس يوبا الثانى ، رسوخا لا يكاد يترك له مجالا للاختيار

ان العاصمة الجزائرية فى ذلك الوقت هى مدينة شرشال ، وكانت تسمى قيصرة TESARAE ، وهى تكاد تفوق المدن اليونانية والرومانية المعاصرة لها فى العظمة ، اذ كان لها انظمة بلدية نموذجية وكانت حافلة بالمعابد والمبانى الفخمة ، فتوافد اليها رجال الفن والعلم من كل حدب وصوب، وهنا نلاحظ ان يوبا الثانى وجه نشاطه الى المقاطعات الغربية من مملكته الواسعة ، فاهتم بها اهتماما كبيرا ، وكان يحب الاقامة فى قصره الملكى بمدينة فولوبيليس (شمال مكناس)(3) Volubilis التى بنيت هى كذلك على غرار مثيلاتها من المدن الرومانية ، وكان يصعب ان يتردد ،رغم بعد المسافة ، على المغرب الاقصى ،حيث وضع الفينيقيون والليبيفينيقيون اسس المراكز التجارية الاولى ، واكتشفوا طريق الذهب والمعادن الثمينة ومهدوا السبيل للمتاجرة مع القارة الافريقية، وقام يوبا الثانى ، اما شخصيا او مستعينا باعوانه ، قام باستكشاف المناطق النائية من المغرب الاقصى ،ودرس عالم الحيوان والنبات ورمم المراكز التجارية الفينيقية المهملة طيلة قرون عديدة ، واقام فى جزر الكانارى المصانع الشهيرة التى ما فتىء مؤرخو العصور القديمة يمتدحون مزاياها الحسنة ،

(3) تسمى اليوم القصر فرعون او ليل

وانشا السفن للقيام بابحاث علمية استكشافية ، وجهزها احسن تجهيز

وهكذا اخذ يوبا الثانى يربط الماضى بالحاضر ، ويواصل ـ من غير ان يتنكر لروما التى اجلسته على عرش الملك ـ الجهود التى بذلها الاوائل فى اقامة حضارة اصيلة ومستقلة بالمغرب

وكانت سياسة يوبا الثانى هى اغناء التراث ، والقيام بالاستكشاف والترميم ، والرجوع الى الاصل ، اى الى الثقافة التقنية التى برع فيها الليبيفينيقيون ، وقد نهض بتلك السياسة ، متحمسا لها ، لانه مدفوع الى ذلك بحاجة ملحة للتثقف والعمل البناء ، لا بحكم التبعية للرومان ،ولئن وفق فى سياسته وجهوده التى ظل يبذلها طيلة حكمه ، اى مدة 49 سنة، فلانه كان بعيدا الى حد ما عن المراقبة الخفية او المباشرة من طرف السلطة الامبريالية ، وبمعزل عن التدخلات والحزازات الشخصية والتاثيرات المفرضة من طرف المستوطنين والمعمرين والتجار الرومان الذين لا يدينون له بالولاء ، لانهم مواطنون رومان ويتمتعون بامتيازات خاصة فيما وراء البحار ،ومن المعروف مثلا ان مجلس الشيوخ الرومانى قرر الاطاحة بحكم يوغورطة وشن عليه حربا شعواء عندما واقق هذا الملك لدى الاستيلاء على مدينة سيرتا ، على معاقبة جماعة من المهربين الايطاليين، اى من الرعايا الرومان الذين لا يجوز مسهم باذى

وهكذا عرف يوبا الثانى ، بالتعاون مع شعب البربر ، كيف يوفق ـ فى صبر واناة ، وبمنتهى البراعة ـ بين مختلف الحضارات التى ازدهرت فى حوض البحر الابيض المتوسط ، فعمل من اجل احياء الصنائع الفينيقية ، ونهل واختط منهجا مستقلا للنهوض ببلاده نوميديا ، معتمدا فى ذلك على الامكانيات من معين الحضارتين اليونانية والرومانية الوطنية ، الا ان هذا العمل الجبار الذى نهض به يوبا الثانى ، ما كان ليقاوم على طول الزمان ، غزو الاستعمار الرومانى الذى الحق ضربة قاضية ، فى مدى قرنين ، بحضارتين اصيلتين من اكبر الحضارات التى نشات فى حوض البحر الابيض المتوسط ، وهما حضارة الاتروسك Etrusques وحضارة قرطاجنة

وقد بدات روما تمارس سياسة الهيمنة على الممالك البربرية على اثر معركة ثابسوس Thapsus (4)

(4) – تسمى اليوم : رأس ديماس، وهي توجد بتونس (المترجم)

عام 46 ق.م ، ولكن شمال افريقيا لم تصبح مستعمرة تابعة لروما الا عام 40 ميلادي . أو بالاحرى اصبحت مجموعة من المستعمرات ، ومنذئذ اختل التوازن في تاريخ شمال افريقيا وتاريخ الجزائر على وجه الخصوص ، فقد اخذت كفتا الميزان في الاضطراب ، وهنا نلاحظ من جهة ، كيف ضاعت الفرصة مرة اخرى من اجل السير بالبلاد نحو الوحدة والاستقلال ، ومن جهة اخرى نلاحظ كيف تمت تلك العملية المنظمة في غزو البلاد ، وفرض حضارة دخيلة ،حضارة قاسية ،شديدة القسوة ، لانها مفروضة على الناس بالقوة ، ومعتمدة على النخبة المختارة من الطبقة الراقية ، ومع ذلك كله ، فهي حضارة وظيفية ، انتفع منها الناس في كثير من المجالات

ومهما يكن من امر ، فان هذا الحادث في حد ذاته مهم جدا ، لانه يكشف لنا لدى عن شخصيتهم العميقة، تلك الشخصية التي تتميز بالتطرف من جهتين : فهم يحبون الاستقلال بانفسهم، وهذا الحب مرتبط بحبهم للسلام والامان ، من غير استكانة ولا هوان ،ان هذه الروح المغربية نجدها تارة متمردة وتارة اخرى طيعة ، فالمغربي ميال للقبول تارة والرفض تارة اخرى ، مدفوعا الى ذلك بعواطف الكرم والعنف والاباء والشمم ، حتى انه ليرضى في سبيل ذلك ان يتجرد من كل شيء ولو كان عزيزا ، وان يضحي بحياته ، فهذه النفس الجياشة الطموحة جعلت المغربي يعبر دائما عن عواطفه بالمرح والهدوء تارة ، والاستماتة في العيش والضجيج والعنف ، تارة اخرى

ويقول احد المتخصصين في افريقيا على عهد الرومان ، وهو كريستيان كورتوا

بان تاريخ بلادنا في تلك الفترة يشبه تاريخ المقاطعة الامريكية المسماة « الفارويست » ، اي « الغرب الاقصى » لانها ، كتلك ، لا تقهر أبدا ، ويبدو لنا ان هذا التشبيه لا يخلو من مبالغة ، وذلك ان « السلام الروماني » لم يكن له من الحقيقة سوى الاسم ، لان الثورات والتمردات وحركات العصيان تواصلت بدون انقطاع مدة اربعين سنة ، طيلة الحكم الروماني الذي دام قرنين ،ويقول جبرائيل اوديسيو

بأن القرون الاربعة الفاصلة بين هذه الفترة وبين دخول العرب كانت حافلة بالحروب والثورات

ولكن ، هل يعني هذا ان الامر اقتصر على ما ذكرنا ؟ يقول الكاتب جبرائيل اوديسيو ، وهو من ابناء منطقة البحر الابيض المتوسط ، وممن تبنتهم الجزائر التي تمثل بالنسبة اليه المركز الحساس، والارض المتجاوبة باستمرار مع المغرب اجمع ، يقول في مقال رائع خصصه لبلادنا : « كل شيء في شمال افريقيا متطرف ، واسم « المغرب » في حد ذاته اكبر دليل على ذلك ، ومن طبيعة الاطراف انها تتجاوب فيما بينها ، بل تجاوب كل من يمد اليها يدا ، وكل مكان فيها مقر لاجتماع يعقد او لقاء يتم بين تلك الاطراف » الى ان يقول : التوازن عندما يختل ذلك التوازن ، والتجاذب او التنافر بين الاطراف »

ان حكم كريستيان كورتوا موسوم بشيء من العجلة والسطحية ، لقد وصف الجزائر كما كان في عهد الرومان فقال بانها « الفارويست الذي لا يقهر » وهذا حكم ليس صحيحا الا اذا كان المقصود منه هو الاشارة الى بعد من ابعاد هذه البلاد التي لم تتفتح امكانياتها الحضارية على الوجه الاكمل في عهد الفينيقيين ، فلما اتى عهد القياصرة الرومان ، ماتت تلك الامكانيات وقضى عليها تماما ، اما الابعاد الاخرى ، فهي حافلة بالامكانيات الضخمة التي يتمتع بها هذا الشعب المدهش بما فيها من مفارقات عجيبة : فتارة تجده موحد الشمل ، وتارة اخرى مفرق الصف ومن هذا الشعب تجد الفارس المقدام والفلاح المسالم ، والفظ الغليظ والمهذب اللطيف ، والمشرك بالله والموحد لربه ، والمحارب للعوائد والتقاليد والمؤمن بالخرافات والاباطيل

ان الجهود التي بذلك لبناء المدن المزدهرة بالحضارة مثل تيمقاد Timgad
وتافزه Tipasa
وبونة (عنابة) Hippone
وقيصرة (شرشال) Tesarae
وجميلة Djemila
وصلداي (بجاية) Saldae
وميليف Mileve
هذه الجهود لم تكن من عمل الفينيقيين وحدهم ، أو من صنع المؤجرين والمهندسين المعماريين واصحاب الحرف القادمين من بلدان اخرى من حوض البحر الابيض المتوسط ، ان ارض الجزائر التي اتحفت الادب العالمي بكاتب يعد من اكبر الكتاب وهو « ابولي دي مادور Apulée de Madaure صاحب كتاب « التحولات Metamorphoses (وهي القصة الوحيدة الباقية من التراث اليوناني) ، وانجبت واحدا من اكبر دعاة الكنيسة الافريقية واعظمهم في الجدال ، وهو ترتوليان Tertullien ، وتربى فيها حتى صار من النابغين المحفوفين بالتقدير والاحترام، رجل فذ في الفكر المسيحي والتبشير بالدين ، رجل عرف بالزهد والعلم والحجة القوية ، واعني به اوغسطينوس من تاغاست (سوق اهراس) اسقف مدينة بونة (عنابة) Hippone
ان هذه الارض تستطيع كذلك ان تنجب رجالا آخرين ذهبت اخبارهم فاصبحوا من الغابرين
ولعل اكبر شاهد على ما نقول ان يوفينال Juvénal اكد في القرن الاول الميلادي بان شمال افريقيا هي موطن الفصحاء ، ويضيف لوي فيو Louis Veuillot مؤيدا هذا الكلام ، لانه ممن يقدر

الفصاحة حق قدرها : « ان العبقرية الافريقية تتجلى فى كون افريقيااصبحت من اكثر الاقطار غنى بالفصحاء والبلغاء» ويقول هذا الصحافى الكاثوليكى النزعة الذى اشتهر اسمه فى القرن التاسع عشر ، يقول متحدثا عن « ترتوليان » ومعبرا عن اعجابه بشجاعته وفصاحة لسانه : « ان الكنيسة الافريقية قد انعمت على البشرية برجل يعد من اكبر العاملين فى سبيل اظهار وجه الحقيقة » اما ارنيست رونان Ernest Renan فقد ذهب الى ابعد من هذا ، اذ صرح بان البشرية مدينة لشمال افريقيا بكتاب اساسى وهو الكتاب المقدس La Bible باللغة اللاتينية ،ويمضى قائلا بان « النص اللاتينى ظهر اول ما ظهر فى افريقيا ، على الارجح ، ومن المعتقد ان النص اللاتينى للصلاة ، والاقسام الرئيسية من الشعائر المسيحية ، اصلها كذلك افريقى » وينتهى رونان بعد هذا الى النتيجة الآتية : « وهكذا ساهمت اللغةاللاتينية الدارجة فى افريقيا ، ساهمت الى حد بعيد فى وضع لغة الدين المستعملة فى الغرب ، وبذلك كان لها اثر كبير فى لغاتنا الحديثة »

ونعيد الى الاذهان ان جبرائيل اوديسيو ، قال ، بعد ان تحدث عن خرافة « السلام الرومانى » المزعوم الذى تخللته ثورات عديدة وعمليات قمع شديدة : « واستمرت نفس المسالة طيلة القرون الاربعة التى سبقت وصول العرب ، فعرفت البلاد غزو الوندال والبيزنطيين ، ولمعت اسماء الزعماء امثال فاراكسين Faraxen وفيرموس Firmus ، وجيلدون Gildon وانطالاس Antalas وجبداس Jabdas وكوتزيناس Cutzinas ، وظهرت حركات الدوناتيست Donatistes والسيركونسيليون وغير هؤلاء كثيرون ، فهل يمكن بعد هذا ان نقول بان البلاد عرفت عهدا من الاستقرار هو السلام الرومانى ؟ » .

ان هذه اللمحة الموجزة عن التسلسل التاريخى تدعونا الى ان نتدبر ونفكر كى نفهم الامور على حقيقتها : فزعماء البربر الواردة اسماؤهم آنفا ، والحركات المنشقة التى ذكرها المؤلف السابق الذكر ، كل ذلك يشكل وجهتين ، بحسب ما اذا وقفنا بجانب السلطة الاستعمارية الشرعية الخاضعة لروما وللكنيسة المسيحية التى اخذ نفوذها يتزايد بتشجيع من الرومان ، او بجانب الثورات المشروعة المطالبة بالعدالة ، وقد كتب احدهم فقال : « ان افريقيا هى البلاد التى انجبت كثيرا من القديسين» ونحن نقول : ان القديسين فى هذه المنطقة من حوض البحر الابيض المتوسط مثلهم كمثل الشهداء ، لان ظهورهم علامة على وجود حالة مزرية لابد من معالجتها ، واشارة تنبىء بالخراب والدمار بالنسبة الى دولة من الدول

واكبر دليل على ذلك ان البرابرة اخذوا منذ بداية القرن الثالث الميلادى ، يتجمعون على حدود الامبراطورية الرومانية التى ضعف شأنها بسبب تطاحن عائلاتها العريقة وتمرد جنودها ، وبسبب الصراع السياسى او العسكرى بين القياصرة واعدائهم ، وبسبب الحالة الاقتصادية المتردية التى عانت منها كثيرا المقاطعات البعيدة ، بل حتى روما بالذات روما التى كانت فى السابق تستنزف بدون شفقة ولا رحمة خيرات البلاد الخاضعة لها ، لكى ترضى بها حاجات الشعب الرومانى وجشع الاعيان من مجلس الشيوخ ومن لف لفهم ، وكانت الامبراطورية مقبلة على انقسام خطير ما لبث ان حصل بالفعل فى القرن الذى يلى

وقد عاصر القديس اوغسطينوس هذا التحول الخطير الذى تم فى تاريخ البشرية ، فى مراحله الحاسمة ، ورغم جهود قسطنطين Constantin الذى وضع اسس الامبراطورية المسيحية ، ورغم مرسوم ميلان ، ورغم المجمع الدينى الذى انعقد فى مدينة نيسى Nicée عام 325 ، ورغم تنظيم الكنيسة المسيحية التى اعترفت بها الدولة وانشات معها علاقات رسمية ، رغم ذلك كله فان بذور الاضطراب والشك والعنف والفوضى والصراع الفكرى بدات تختمر فى هيكل الامبراطورية الموحدة سياسيا ،المنقسمة جغرافيا ، فالمجتمع كله ، والنخبة المختارة منه ، والافكار السائدة فيه ومذاهبه الفلسفية وصراعاته ومطامحه وآماله ، كل ذلك ما لبث ان آل به الامر الى عهد من المحن والشدائد ، عندما برزت الشعوب الجرمانية المتحفزة، وهى الشعوب التى قضت على حضارة البحر الابيض المتوسط القديمة وحطمت النظام الرومانى المحكم ، واخذت تتبنى عن غير ما تجربة قوانين روما ، وتتقاسم فيما بينها اطراف امبراطوريتهاالغربية، وقد نجم عن هذا الانقلاب الشامل فى الوضع العالمى ان اتجهت الامبراطورية الرومانية السفلى (وهو الاسم الذى اطلق عليها بين 476 ـ 275 م) نحو النظام الاستبدادى باتم معنى الكلمة ، ويرى هانرى مارو Henri Marrou صاحب ترجمة حياة القديس اوغسطينوس ، بان هذا المفكر الكبير الذى عاش حتى شهد انحطاط الدولة الرومانية وافول نجمها ، لم يكن مخطئا فى تقديراته عن مستقبل الامبراطورية الرومانية الجديدة ومصيرها ، ان هذا الحكم الاستبدادى ما لبث ، منذ منتصف القرن الرابع ، ان اخذ يضطهد الشعوب بحسب طريقة جديدة تقوم على تالية الامبراطور ، وفرض ضرائب باهظة ، ومراقبة حركات الناس وسكناتهم ، وتسلط بعض الفئات بصورة وراثية ، واقامة عيشة البذخ والترف ، ومهما يكن من أمر ، فان هذه الدولة القائمة على الاقتصاد الموجه وعلى الارهاب ، والسلطة العسكرية ، قد انقذت الامبراطورية من الاضمحلال ،

فى حـــين ان الغرب كانت تجتاحه الشعوب البربرية ، وبينما نشـــاهد الجناح الشرقى البيزنطى من الامبراطورية ينهض وينتعش ابتداء من عام 400 ، عن طريق اقامة الحكم الاســـتبدادى الاقطاعى ، فان الجنـــاح الغربى من الامبراطورية اخذ ينهار تحت ضربات جماهير الفلاحين المسخرين فى بلادالغال (فرنسا) ، وفى نوميديا ، كما اخذ يتعرض لهجوم الشعوب الجرمانيـــة ، ويضيف صاحب الترجمة : « لقد مضت حياة القديس اوغسطينوس كلها فى هذه الظروف ، وان فى ذلك للقارىء اليوم ، لعبرة واية عبـــرة ، انه يعلمنا كيف يواجه المرء ظروف الشدة والمحنة ،وقد شهد فى طفولته الانتفاضات الاخـــيرة للدولة الرومانية ، كما شهد فى كهولته سقوط اسوار روما ، فى 24 غشت من عام 410 ، امام الفيزيقوط ، بقيـــادة ملكهم الاريك

وعندئذ اخذ يتامل فى المعنى العميق الكامن وراء سقوط عاصمة الحضارة ، تلك العاصمة التى ظنت نفسها خالدة، مما جعله يؤلف كتابه الرائع المشتمل على اثنين وعشرين جزءا ، وهو « مدينة الله » ، حيث نجده يعالج موضوعين اساسيين : اولهما ان الحضارات مآلهـا الى الزوال ، وثانيهما ان البشرية تواقة الى الآخرة ، ولا يزال هذان المبدان هما اساس الفكر المسيحى فى التاريخ »

(يتبع)

هرمان هاوف

د.
أبوالعيد
دودو

واحتلال الجزائر

عندما سقطت الجزائر فى ايدى الفرنسيين يوم 5 جويلية سنة 1830 ، اخـــذ بعض الاروبيين يتساءلون عن الاسـباب الحقيقيـة التى ادت الى احتـــلال الجزائر وعن موقف بريطانيـا من هذا الاحتـــلال والمعروف ان بريطانيا قد ابدت فى ذلك الحين تخوفهـــا من أن تتخذ من دعوى القضاء على القرصنة وسـيلة لاحتلال الجزائر وجعلها مســتعمرة فرنسـية والمعروف ايضا انفرنسا قــد اعتبــرت تخــوف بريطانيا تدخلا فى شؤونها الخاصة ، وتكفى هنــا الاشارة الى ماقالته على لسان شاتوبريان بهــذا الصدد .

ومن بـــين اولئك الذين اثـــاروا مثـــل هذه التســاؤلات المؤرخ الالمـــانى هرمان هارف . فقد اصـــدر عام 1835 بمشـــاركة صـــديقه ادوارد نيدرمان كتابا صـــغير الحجم ، طـــبع فى مدينة شتوتغارت ، وضع له عنوان «الجزائر كماهى» . ويتضمن الكتاب فى مجموعة معلومات عامة ، لا تخـــتلف عما نجـــده فى بقية الكتـب الاخرى التى تحدثت عن الجزائر مـــن الناحيـــة الجغرافيـــة الطبيعية والمعمارية وغير ذلك . ولهذا لا يهمـــنا من هذا الكتاب سوى مقدمتـــه . فالمؤلف لايبدى اعجابه بجرآة فرنسا الى الحد الذى ينسيه واجبه كمؤرخ ولا يعتبر مسالة احتلالها للجزائر قضـــية مسلمة كما فعل غيره ، وانـــما يحاول ان يناقش الاسباب التى ادت اليه مناقشـــة هادئـــة ، كما يناقش موقف بريطانيا منه .

يرى هاوف ان الاستيلاء على الجـزائر اهـم حادثـــة فى القرن الماضى ، اى حتـــى الوقت الذى وضع فيه كتابـــه ان الجزائر ، على حد تعبيره ، قد ارعبت الشعوب التجاريـــة واستبدت بالبحر الابيض المتوسط ، وارغمت شارل الخامس على الفرار امامها بصورة مخزيـــة . ومـــع ان انجلترا نفســـها كانت سيدة البحار فانها لم تســـتطع أن

تملى اتفاقياتها على الجزائر الا بصـــورة مؤقتة . وكانت الجزائر ، فى نظره ، قد فرضـــت عـــلى الشـــعوب المتخلفة خلال قرون عديدة دفع اتاوة لها نظير مرور ســـفنها التجارية فى البحر الابيض المتوســـط . ثم كانت هذه الجزائر نفســـها غنيمة للجيش الفرنسى ، فاختفت اختفاء الظل ، وتمكنت فرنسا من احتلال هذه المنطقة الجميلة بكل هدوء مع انه من الممكن ان تؤدى الى نشوب حرب بين انجلترا وفرنسا وتركيا (ص 1) .

وبعد أن يعترف هاون بهذا كله ، يشير الى أن هذه الاسباب كلها لم تكن كافية لاحتلال الجزائر والقضاء على سيطرتها قضـــاء تاما . ثم يقرر ان فرنسا عندما قررت ارســـال حملتها الى الجزائر لم تكن تنظر الى ان وضع حد للقرصنة هو السبب الوحيد فى الاقدام على خطوة جريئة كهذه . ممـــا لا شك فيه ، فى اعتقاده ، أن هـــذه الحملة التى بدت فى ظاهرها عملا انســـانيا وحضـــاريا ، قد ارتبطت بأطماع شخصية بحتة .

ويضـــيف هاوف أن انجليترا قد راقبت الاعداد لتلك الحملة والاتفاق عليها بسخاء ثـــم القيام بها بنجاح ، بنوع مـــن اللامبالاة لم يعهد فيها ، الامر الذى اســـتغربته منها أوروبا كلها . وقد راحت فى ذلك الحين اشاعة مؤداها أن فرنســـا قد تعهدت لانجليترا بالتخلى عن الجزائر بعد القضـــاء على القرصـــنة ، وبعد ترك ســـرب من الجنود فيها لحماية الحركة التجاريةفى البحر الابيض المتوسط غير أن ثورة جويليةقد وضعت لعملية الاســـتيلاء على الجزائر اهدافا أخرى لم تكن مقصودة فى اغلب الظن فى بداية سنة 1830 ، (ص 2)

وبذلك أصبحت مشكلة الجـزائ فى راى هاوف ، مسكلة وطنية بعد أن كانت مجرد قضيـــة وزارية . واذا كان ملك فرنسا قد حدد فى ذلـــك الوقت نوع تلك الحملة التى كان ينوى القيـــام بها ، وبين طبيعتها فقد اصبح ـ نالصعب عليه آنذاك ان يقرر مصير الجزائر او التخلى عنها دون الرجوع الى الشعب . واذا كانت انجلترا ، حتىلو فرضنا أنها قد ابرمت بالفعل اتفاقا مع فرنســـا ثم تطالب بعد ذلك الاحداث بتنفيذ الامور المتفق عليها ، فان ذلك يرجع الى رغبتها فى المحافظـــة على تحالفها مع فرنسا بأى ثمن وعدم المساس بوضعها الخاص ! ولا يمكن أن يصدق الانســـان أن فرنسا لم تتخذ قرارا بشأن الاستيلاء عـــلى الجزائر خوفا من اى دولة اخرى غير انجلترا ، لان حكومة فرنسا قد اخذت تستهين بدول القارة كلها وتعتدى على مصـــالحها بشـــتى الطـــرق والوسائل
منذ ثورة جويلية . وسواء تم هذا الاتفاق المشكوك فيه من بين انجلترا وفرنســـا او كـــان مجـــرد اسطورة ، فان فرنسا كانت فى حيرة من أمرهـــا بشأن احتلال الجزائر او التخلى عنها .

ويبدى هارف بعد هذا كله رايه فى احتـــلال الجزائر ، فيقـــول :

ان عملية احتلال الجزائر فى ظروف من هـــذا النوع لا تفيد فرنسا فى شىء ، وانما تلحق بـــه ابلغ الضرر ، مستدلا على ذلك بارقام المبـــالغ التى كانت فرنسا تدفعها سنويا من اجل المحافظة على المناطق المحتله . ويضيف انه اذا حـــدث سوء تفاهم بين انجلترا وفرنسا وتعرضت هـــذه لاحداث سياسية غير متوقعة ،فان قضية الجزائر

ويستبعد المؤلف ان تكون فرنسا قد اقبلت على تلك التضحيات الجسام لو انها لم تكن تعتقد ان فى امكانها الحصول على مبالغ مناسبة من جهة من الجهات ، كما أن اهانة موظف صغير ما كانت لتؤدى بالضرورة الى الحرب مع الجزائر ، لو ان فرنسا كانت فى وضع يسمح لها بالتجاوز عن الامور البسيطة . ويقدم هاوف دليلا قويا على هذا ، وهو ان الاهانات المتكررة التى لحقتها من طرف « الدون ميكايل » ماكان فى مقدورها ابدا ان تنتهى بها الى اعلان الحرب على البرتغال ! وعلى هذا فا نفرنسا قد مسحت اثر ضربة المروحة من وجه قنصلها بالدم ، لان ذلك يعود عليها بالفائدة ! (ص 3 — 4) .

لم تبق عندئذ غامضة لمدة طويلة .

وينتقل المؤلف فى نهاية مقدمته الى الحديث عن الجزائريين فيقول انهم كانوا يعتقدون ، بعد طرد الاتراك ، ان فى مقدورهم الآن ان يرفعوا رؤوسهم ، خاصة بعد أن الحق بعضهم بوظائف معينة ، غير ان الفرنسيين سرعان ما اظهروا لهم ان عليهم أن يخضعوا للفرنسيين كما خضعوا للاتراك قبلهم . ومنذ تلك اللحظة عاودهم ، فى نظره ، الى اسيادهم السابقين ، لان عهدهم كان انسب لهم من جميع الوجوه . وقد دفعهم هذا الحنين الى الهجرة للشرق للالتحاق بهم هناك .

ومن الواضح ان هاوف قد اخطأ فى رأيه ، فالجزائريون ، فى اعتقادى ، لم يهاجروا الى الشرق لانهم اشتاقوا لرؤية الاتراك وانما هاجروا اليه لانهم فقدوا حريتهم ، وارغموا على التخلى عن اراضيهم ، ففضلوا العيش فى بلاد اسلامية سواء كانت هذه البلاد تونس أو مصر او الشام او الحجاز أو غيرها .

وكيفما كان الامر ، فان هاوف بما يكون ، من بين الالمان ، الوحيد الذى حاول مناقشة الاسباب التى ادت الى احتلال الجزائر ، بهذه الصورة ، وأثار قضية المروحة دون أن يجعلها سببا فيما حدث بعدها . ومن هنا فان مناقشة هذه جديرة بأن يتعرض لها الباحثون عند التاريخ لهذه الفترة والظروف الناتجة عنها . ولا بد ان يبحث كذلك موقف بريطانيا من قضية الاحتلال حتى يتضح لاولئك الحريصين على معرفة تاريخ بلادهم معرفة سليمة ، ويعرفوا كيف استطاع احد المؤرخين الفرنسيين أن يقول بعد ذلك بسنوات كثيرة ، ان الجزائر قد كانت وستكون لنا الى الابد !، وبالتالى حتى يعرف هؤلاء قيمة ما بين ايديهم اليوم .

الأثر الحضاري لقوافل التجارة السودانية عبر العصور

د. عبد القادر زبادية

أ- نبذة عن ماضي الصحراء

اذا ذكرت الصحراء اليوم فكثيرا ما يرتبط اسمها فى الاذهان بمعانى الجفاف والقحل ، وما ذلك الا لان رمال الصحراء وقفارها الشاسعة قد ندرت فيهما معطيات الحياة خلال الاحقاب الاخيرة من تاريخ الانسان على الارض ، وانحصرت فى بعض المنخفضات الضيقة المساحة ، حيث تفسح بعض الظروف الطبيعية لبعض الينابيع ان تسبب فى تكون الواحات المتناثرة هنا وهناك .

(I) هناك شبه اجماع على ان العصور التاريخية تبدأ مع اختراع الكتابة فى حدود خمسة آلاف سنة قبل الآن ، وما سبق من حياة الانسان على الارض ، يدرج ضمن عصور (ما قبل التاريخ)

الإفريقية الكبرى قبل التاريخ

ويظهر أن هذه الوضعية التي عليها الصحراء اليوم تختلف عن تلك الوضعية التي كانت عليها في القديم ، اذ يتفق معظم الباحثين على أن الصحراء كانت في القديم تتسم بالخصب وتتوفر على اديمها كل اسباب الحياة اكثر من اى منطقة أخرى على سطح المعمورة ، وهم يستدلون على ذلك بعدد من البراهين منها :

1) ان هناك كثيرا من المعالم التي تنبىء عن وجود خدود ومنخفضات ، وكانت تجري في الاولى مياه غزيرة في شكل ادوية وأنهار ، وربما كانت قد وجدت في الثانية بحيرات او مسطحات مائية في شكل بحيرات أو مصبات لينابيع ومجاري مائية غنية المحتوى وثرة المصدر .

2) وبما أن الجيلوجيين يتفقون على أن المساحات الصحراوية اليوم هي من أقدم اقسام القشرة الارضية ، بدليل ان عوامل التعرية والنحت قد احالت معظم صخورها الى رمال واتربة اكثر من اى منطقة أخرى على سطح الارض ، فانهم يذهبون ايضا الى ان مختزنات الصحراء من النفط ومشتقاته ، انما هي احدى نتائج تحلل المواد العضوية والنباتية التي كانت المساحات الصحراوية في عهود خصبها ، تضم على سطحها انواعا عديدة وكميات هائلة منها .

3) وهناك حقيقة ثالثة تتوفر في دعمها الوثائق التاريخية والطبيعية معا ، فأما الوثائق التاريخية فتتمثل في أن السكان الاوائل الذين سبقوا الى تكوين المستقرات الحضارية الاولى على ضفاف الانهار ، في شرقي أفريقيا وشمالها الشرقي قد اثبتت كثيرا من التحريات أن أغلبيتهم قد نزحت من الصحراء، وربما كان نزوحها عن الصحراء قد اقترن ببداية تحولها الى حالة الجفاف ، وقد حدث هذا عند نهاية الفترة الجليدية الثالثة (1) أما أثناء الفترة الجليدية السالفة للحقبة التي نحن فيها الآن ، فقد انحصرت الحياة الانسانية في الصحراء ، وتكاثر بها وجود الانسان والنبات والحيوان ، ويحتوي حاليا كل من سطح الصحراء ، وجوفها على العديد من الآثار التي تدل على ذلك .

ولا شك ان الصحراء في تلك العهود التي غص خلالها سطحها بمظاهر الحياة كانت قد رأت نشوء معالم حضارية عديدة تدل عليها الرسوم التي أثبتها الاقدمون على صخور التاسيلي ، ومن اكثرها جلبا لانتباه الباحثين لا يزال استعمال العربات التي توصل اليها شعب الجرامونت يحظى بالعناية الفائقة . ومن هذا كله فان الماضي الحضاري الصحراء من الامور التي لا يتطرق اليها الشك ، في عصور ما قبل التاريخ ، ولا شك أن ذلك كان قد ارتبط بحقبة كانت الصحراء خلالها تتمتع بمناخ غزير الامطار ، ويختلف عن المناخ الذي يسودها الآن .

ب ـ أثناء العصور التاريخية

(1) يفترض الباحثون في عمر الارض ، انها مرت بثلاثة أدوار جليدية ، تفصل بينها ثلاثة أدوار عم خلالها الصحو ، وأثناء كل فترة جليدية كان يمتد الجليد على كل سطح الارض، ويبقى حزام يتوسطها تنحصر فيه الحياة البشرية والحيوانية والنباتية ، أما حينما ينحصر الجليد في منطقة القطبين وتاتي فترة الصحو ، فان الحزام الوسطى يغلب عليه الجفاف ، وبما أن صحارى العالم تقع في الحزام الذي يتوسط الارض ، فان فترة الصحو بقدر ما يطول أمدها بقدر ما يشتد الجفاف في الصحارى وتضيق مصادر الحياة الحيوانية والنباتية بها ، وعلى هذا الاعتبار فنحن الآن في فترة الصحو الثالثة او الرابعة ، والجليد محصور الآن في منطقتي القطبين ، والصحراء في حالة من الجفاف الشديد

اذا كان الغموض يكتنف العديد من الجوانب عن الدور الحضارى للصحراء الافريقية الكبرى فى عصور ما قبل التاريخ فان ذلك الدور الذى لعبته هذه الصحراء فى ميدان الحضارة الانسانية اثناء العصور التاريخية كان واضح المعالم الى حد بعيد . ولا تعنينا هنا العصور التاريخية القديمة بمقدر ما تعنينا العصور الوسطى والحديثة ، لان العصور التاريخية الاولى لا يزال المؤرخون يعتبرون الوضع البدائى من اهم سماتها ، نقول هذا ونحن لا ننكر قيام عدد من الامارات القبلية التى ظهرت اثناءها سواء فى شمال الصحراء أو فى جنوبها .

اما اختلاط السكان الشماليين والجنوبيين وتعاملهم بمختلف الطرق فهو مما لا ينكره احد كذلك فى تلك الحقبة ذاتها .

ويبدو أن الموقع الجغرافى قد مكن سكان الشمال من التطور اكثر مما مكن سكان الجنوب، وهنا لعبت طرق الصحراء فى نقل الحضارة وتمكين الجنوبيين من الاستفادة مما توصل اليه سكان الشمال ، دور لم يلعبه المحيط الاطلسى فى يوم من الايام (1)

فقد ظلت الصحراء طوال العصور الوسطى وخلال جزء كبير من العصور الحديثة كذلك ، تخترقها القوافل دون انقطاع وكان الباعث الاول على تجهيزها وتحمل الصعاب فى سبيل عدم توقفها فى يوم من الايام ، هو الارباح الوفيرة التى كان يجنيها التجار من ورائها بدون شك ، ولكن نتائج ذلك فى المجال العام كانت غزيرة المحتوى بحق ، وذلك ما يتمثل فيه الدور الحضارى الجليل القيمة ، وقد اختص به المسلمون عامة والمغاربة بشكل خاص .

لقد كان التجار فى العالم الاسلامى ينتسبون غالبا الى طبقة الفقهاء والمثقفين ، وهذا ما جعل لعلمهم التجارى ، نتائج تتعدى ميدان التجارة وحده ، واذا عرفنا أن نسبة المسلمين الآن فى السودان الغربى كله تتجاوز التسعين بالمئة ، فاننا نستطيع ان ندرك بسرعة مدى اثر القوافل التجارية التى كان يجهزها المسلمون الى تلك البلاد ، اما اذا تذكرنا أن كل مسلمى السودان الغربى ، هم على المذهب المالكى ، فاننا ندرك بيسر نسبة دور المغاربة فى التجارة مع السودان وذلك بالقياس مع دور التجار الذين كانوا يأتون من مصر ، وبمثل تلك النسبة ذاتها يتجلى لنا الدور الحضارى لكل من الطرفين

يتفق المؤرخون على ان قبائل السودان الغربى اسلمت عن طريق تجارة القوافل ، ولم يرسل المسلمون فى يوم من الايام جيشا الى تلك المناطق بقصد ادخال الناس فى الاسلام (2)

اما الطريقة التى تم بها اسلام السودانيين ، فقد كانت لاتتجاوز التاثير الثقافى والفكرى الذى يحدثه رجال التجارة من المغاربة والمصريين بالدرجة الاولى ، على رؤساء القبائل فى البداية ، ثم لا يلبث اتباع أولئك الرؤساء من ان يقتدوا برؤسائهم .

وقد كتب الرحالة والتجار المسلمون كل مشاهدتهم عن افريقيا الغربية ، ودونوا كل ما عرفوه عن طبائع السكان وسلوكهم وأساليبهم فى التعامل ، كما كتبوا الكثير عن أنظمة الحكم لديهم ، ومن هنا فان الباحثين اليوم ، لا يجدون من مصادر حقيقية وجديرة بالعناية والاستناد الى صحتها غير المصادر العربية، وذلك خلال الفترة بين القرن السابع الميلادى وبين القرن السابع عشر (3)

ومهما يكن ، فان الوضعية التى كان عليها سكان الغرب الافريقى قبل وصول العرب ، كانت على غاية من البدائية اذا قارناها بدرجة التطور التى بلغها المسلمون فى ذلك الوقت ، فقد كان معظم السكان لا يزالون لم يتجاوزوا مرحلة العرى ، كما ان الاستقرار كانت مميزاته المفيدة لم يصلوا الى مرحلة الاستفادة منها ، اما الطراز المعمارى فانهم لم يكونوا يدركون من أنواعه الا استعمال الاخصاص للوقاية البسيطة من عوارض الطبيعة العاتية . واكثر من هذا ، فان تصورهم عن الكون ، كان لم يتخط مرحلة الطوطاميات السحرية بعد .

اما بعد وصول المسلمين ، فقد تكونت فى البداية عدة مدن هامة على طول مشارف السودان الشمالية وحافات الصحراء الجنوبية ، وقد نشأت تلك المدن كمحطات للقوافل التى تعبر الصحراء نحو الجنوب ، وكان من اهمها والاتا — تمبكتو — غاو — وتدمكة ، وفى هذه المدن كان يتلقى تجار الجنوب بتجار الشمال ، ويتبادلون البضائع المتنوعة الاصناف ، وقد كانت

---

(1) فى العصور القديمة ربما وصل الفينيقيون الى سواحل الغرب الافريقى ، ولكن عملهم قد اقتصر على التبادل التجارى المحدود ولم يتجاوزوا فى اتصالهم بالسكان مياه الساحل ، اما فى العصور الحديثة فقد كون الاوروبيون عدة مراكز تجارية على السواحل وباشروا منها تجارة العبيد على نطاق واسع ، ويقدر المؤرخون النسبة التى اخذها الاوروبيون كعبيد (خلال القرنين 17 و 18) باكثر من ثلث السكان فى المناطق التى وصل اليها نفوذهم ، ومع نهاية القرن التاسع عشر استعمر اولئك الاوروبيون المنطقة كلها واستغلوها استغلالا مباشرا

(2) نستثنى هنا ما ذكره ابن عبد الحكم من ان عقبة بن نافع الفهرى ، كان قد ارسل حوالى سنة 665 م سرية من برقة بقصد معرفة جنوب فزان ، وقد حدد العلامة (برونشويك) المكان الذى بلغته تلك السرية بين فزان والنيجر الحالى ، ويدعى (ماء الفرس) ، ولم يذهب رجال تلك السرية للفتح وانما للاستطلاع ، ثم عادوا

(3) وضع جماعة من اليهود خريطة فى نهاية القرن الثالث عشر ، وربما كان مركز عملهم فى (منورقة) وهى الخريطة المعروفة بخريطة (كتالان) ، ولم تحتو عن داخل افريقيا الغربية سوى اسم غانا وبعض الصور الخيالية التى استقوا معالمها من اتصالهم بالمسلمين فى الاندلس على الاكثر ، ومع ذلك اعتبرت تلك الخريطة آنذاك عملا عظيما فى اوروبا باجمعها ، وفى ذلك الوقت كان الرحالة والتجار المسلمون قد عرفوا كل شىء تقريبا عن داخل السودان الغربى، واصبحوا على اتصال به وثيق ، اما الاوروبيون فانهم حتى نهاية القرن السادس عشر كانوا لا يعرفون عن داخل الغرب الافريقى الا ما توفره لهم بعض كتابات الرحالة العرب ، وخاصة كتاب (وصف افريقيا) للحسن الوزانى الذى وقع بأيديهم فى الثلاثينيات من القرن السادس عشر

تلك البضائع تشمل معظم ما ينتجه العالم الاسلامى من أقصاه الى اقصاه ، كما اشتملت ايضا على عدة أصناف من منتوجات الغرب الاوروبى التى كانت ترد الى الغرب عن طريق موانئه الشمالية .

وقد كان لتلك البضائع اثرها الهام في ترقية الذوق لدى السودانيين ، وساعدت الناس على تنويع رغباتهم الاستهلاكية وخاصة الطبقة الموسرة من بينهم .

والواقع أن اول من تأثر بالحضارة العربية الاسلامية من السودانيين كانوا هم الملوك والرؤساء ، فسارعوا الى العمل على جلب العلماء والخبراء المسلمين الى جانبهم ، وافسحوا لهم المجال في الاقامة والاستقرار ببلدانهم (1) ، وهذا مما يفسر لنا المغزى من تصريح أمير مدينة جنى ، حينما أسلم في بداية القرن الثانى عشر ، فقد رفع يديه الى السماء أمام ملأ من قومه قائلا : (اللهم اجعل هذا البلد موئلا يتكاثر به التجار ويستقرون به ، وتروق لهم الاقامة فيه) . أما أمير البورنو فقد كتب رسالة الى سكان توات في القرن الرابع عشر يرجوهم فيها بذل كل ما في استطاعتهم ليتكاثر ورود القوافل على بلده . ولما تجول ابن بطوطة في السودان الغربى أثناء القرن الرابع عشر كان يجد فيمعظم المدن التى زارها تجار وعلماء مغاربة مقيمين بها وكان قسم هام من بينهم ، من معارفه .

ويتفق كل الرحالة العرب على أن أمراء السودان الغربى كانوا يبذلون كل ما في امكانهم لتوفير الامن والاستقرار لرجال القوافل فيبلدانهم ، كما يتفقون على أن السكان كانوا يعاملونهم بمنتهى اللطف . ويذكر العلامة ابن خلدون أن القوافل التى كانت تجهز من المغرب باتجاه السودان الغربى قلما كان عدد جمالها المحملة بمختلف البضائع يقل عن اثنى عشر الف جمل ، كما يذهب الى القول بأن معظم المدن والقرى في بلدان المغرب ، كانت تشترك في تجهيز قوافل التجارة السودانية (2) .

وقد بدأ استقرار المثلين التجاريين العرب بالسودان منذ القرن التاسع الميلادى ، ثم أخذ عددهم يزداد شيئا فشيئا وبما أن قسما هاما من بينهم كانوا من المثقفين فقد باشروا الى جانب عملهم التجارى ، التدريس . وكان الباعث لهم على ذلك هو المجال الفسيح الذى انفتح لعلمهم الثقافى مع اعتناق الناس للاسلام (3) . اذا يكفى ان يعلن الشخص اسلامه ، وانما يلزم أن يتبع ذلك مجهود خاص ليستوعب ذلك الشخص متطلبات وأهداف الدين الجديد .

وقد كان القرن السادس عشر ، هو الفترة التى بلغ خلالها ازدهار الحضارة الاسلامية في السودان الغربى مرحلة الاوج ، فتغيرت مفاهيم السودانيين القديمة عن الكون ، وظهر في مدينة تمبكتو التعليم الجامعى لاول مرة في تاريخ السودان الغربى حتى ذلك الحين ، وهذا بعد أن كانت قد اتسعت قاعدة التعليم الابتدائى والثانوى خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر . ولما زار الحسن الوزانى (المعروف بليون الافريقى) تلك المدينة في النصف الاول من القرن السادس عشر ذكر ان بها كثيرا من العلماء والفقهاء والطلبة واثنى على الازدهار الذى كانت عليه المدينة آنذاك في ميدان الثقافة . وفى تلك الفترة بدأ سكان السودان الغربى يجتازون مرحلة الاخذ وظهرت جماعة من بينهم كعلماء ومثقفين في مختلف فروع المعرفة فشاركت في حركة التدريس والانتاج الفكرى والتأليف العلمى ، وقد كان ولا يزال من أشهرهم لدينا :

1) العلامة احمد بابا ، صاحب (نيل الابتهاج بتطريز الديباج) ، وكتابه من المصادر الهامة عن فقهاء المالكية ، وقد الفه كتكملة لكتاب ابن فرحون في نفس الموضوع . ولاحمد بابا كذلك ، كتاب آخر لايزال مخطوطا ، وقد عالج فيه موضوع التجارة بالعبيد المسلمين ، وعنوانه : (نيل السعود الى حكم مجلوب السود) .

ولما هاجم جيش المنصور الذهبى مملكة سنغاى السودانية في سنة 1591 م كان احمد بابا من بين الذين انكروا على المنصور عمله ذاك ، فحمل الى مراكش ، وهناك التف حوله جمع كبير من الطلبة واعترف له الاساتذة الكبار في المغرب الاقصى آنذاك بعلو كعبه في العالم ، ولما رجع الى بلاده ودعه الطلبة والاساتذة وهم يبكون لفراقه وترجوه العودة الى بلادهم ليستفيدوا من غزير علمه .*

2) **عبد الرحمن السعدى** ، صاحب تاريخ السودان ، وهو من مصادر الدرجة الاولى لدى الباحثين حتى الان عن تاريخ السودان الغربى الى حدود منتصف القرن السابع عشر .

---

(1) يذكر البكرى منذ القرن الحادى عشر ، ان معظم الخبراء والموظفين فى بلاط ملك غانا كانوا من العرب ، ويثبت ان الملك ورعيته كانت تكن لهم كل الاحترام والتبجيل ، وقد سارت معظم الامارات السودانية بعد ذلك على هذا المنوال

(2) ينظر ابن خلدون ، عبد الرحمان ـ التاريخ ـ ج 6ص 405

(3) ويحسن التذكير هنا ، بأن المغاربة الذين دخلوا الاسلام فى النصف الاول من القرن السابع الميلادى ، بقيت اغلبيتهم حتى نهاية ذلك القرن فى حاجة الى معرفة قواعد الاسلام ومفاهيمه فى الحياة ، وهذا مما جعل عمر بن عبد العزيز يرسل جماعة من الفقهاء الى المغرب لتفقيه الناس امور دينهم . ومع ذلك لم يستطع سكان البوادى القصية مثل منطقة السوس (فى اقصى الجنوب الغربى للمغرب الاقصى حاليا) التمكن من استيعاب الاسلام حتى القرن العاشر للميلاد ، ومن هنا يتضح لنا مدى الحاجة لتكاثر المعلمين فى السودان حتى يتمكن سكانه من الدين الجديد ، أما بعد تمكنهم منه ، فان دور رجال القوافل من العلماء يبدو على غاية من القوة والجدارة بالتقدير والاحترام

3) القاضى محمود كعت ، صاحب تاريخ الفتاش فى تاريخ السلاطين والجيوش وأكابر الناس ، وكتابه من مصادر الدرجة الاولى كذلك ، فى موضوع تاريخ السودان الغربى حتى نهاية القرن السابع عشر.

وقد كان القرن السادس عشر قد رأى ايضا العديد من التآليف التى انتجها علماء سودانيون فى علوم الفقه والشريعة والتفسير والمنطق. ومن الجدير بالذكر هنا ان هناك مؤلفات لعلماء المغرب مثل كتب المغيلى والتادلسى عرفها السودانيون وتدارسوها كما عرفها المغاربة ، ولكنها لم تعرف فى المشرق ، أما مؤلفات المشارقة فقد عرفت فى المغرب كما عرفت فى السودان .

وقد كانت الكتب من بين أهم البضائع التى كانت تحملها القوافل الى غرب افريقيا ، وكان للسودانيين اقبال عظيم على اقتنائها بأغلى الاثمان ، فقد حدث فى سنة 1584 مثلا ان أحد العلماء السودانيين تعلقت همته بشراء كتاب كان قد ورد لتوه من المغرب مع أحد القوافل ، ولم يجد فى يده ما يمكنه من الحصول عليه ، ثم واتته الفرصة فى ان الامير « اسقيا داود » أراد ان يكرمه ، فعرض عليه ان يحق له كل ما يطلب منه ، فطلب ذلك العالم من الامير ان يشترى له ذلك الكتاب ، ففعل الامير ، وكان ثمن ذلك الكتاب يقارب المليون وستمائة الف من نقودنا الحالية (I)

ومن هذا كله نستطيع الاستنتاج بأنه من طريق القوافل التجارية بين السودان والمغرب ، وصل السودانيون فى القرن السادس عشر الى أن يعيشوا عصرهم ، ويتمثل ذلك فى تفتحم على ثقافة العصر الاول فى ذلك الوقت ، وبهذا عرفوا العالم وعرفهم .

وقد كان الاسلوب المعمارى قبل وصول المسلمين الى السودان لا يتجاوز نظام الاكواخ ، ولكن السودانيين ما لبثوا أن عرفوا ما عند المسلمين من هندسة معمارية راقية ، وهذا ما دفع السلطان المالى كنكان موسى من ان يبذل هبات سخية ليجلب الى السودان الغربى ، احد مهندسى غرناطة اللامعين ، وهو (الساحلى) ولما قدم هذا؛ كان أول أعماله تخطيط قصر للملك ومسجدين ، فقلده الناس فى ذلك الطراز الذى كان يخطط على أساسه وبالتدريج،تجاوز السودانيون الاسلوب القديم الى اسلوب حديث ، ويظهر أنهم مزجوا بين ما كان عندهم وبين ما جلبه الساحلى ، فأسفر ذلك عن بروز أسلوب جديد خاص بالسودان ، يمكن أن نسميه (الطراز المغربى السودانى فى فن العمارة) . وهو يمتاز باتساع الفناء وكثرة الاعمدة ، أما المظهر الخارجى فلا يخلو دائما من امتدادات هرمية بقصد الزينة فى الغالب .

ومن الاثار الاخرى لقوافل التجارة السودانية عبر الصحراء الكبرى ، كثرة التنقل التى ساهمت فيها حركة تلك القوافل التجارية مساهمة عظيمة فعلا ، فبمرافقة القوافل استطاع كثير من الطلبة أن يتجرأ على قطع الفيافى الصحراوية القاحلة ليصلوا الى بلدان المغرب والى مصر ليزدادوا ثقافة واطلاعا ، ويأخذوا عن أبرع الاساتذة فى هذه البلدان . كما أن الحجيج كانوا يسيرون فى جموع كبيرة رفقة رجال القوافل ويشاطرونهم متاعب القفار الصحراوية الشاسعة ، وبذلك يستطيعون أداء فروض الحج ، كما يتمكنون أثناء رحلاتهم تلك من الاطلاع على ما بلغته البلدان التى يمرون بها من تقدم حضارى ، فينقلون أخباره الى قومهم بعد العودة ويحفزونهم على الحركة والنشاط فى ذلك الاتجاه .

جـ ـ خاتمة

لقد دخلت مناطق السودان الغربى ، حتى حدود الغابات الاستوائية ، (2) اسلوبا جديدا فى الحضارة يختلف عن الاسلوب البدائى القديم ، وقد تم ذلك عن طريق القوافل التى كانت تخترق الصحراء الافريقية الكبرى ، منطقة من بلدان المغرب ومن مصر الى تلك المنطقة الشاسعة المساحة،

(I) ينظر ، تاريخ السودان ـ ص 6I

(I) بقى سكان الغابات الاستوائية الذين لم يستطع رجال القوافل الوصول اليهم على الحالة البدائية القديمة وربما كانوا يأكلون اللحوم دون طبخها ولذا اطلق عليهم الرحالة العرب اسم اصحاب (لملم)

وقد بدا ذلك مع بداية القرن الثامن الميلادى تقريبا .

وبهذا لعبت الصحراء الكبرى فى تاريخ السودان الغربى ما لم يلعبه المحيط الاطلسى من الادوار الحضارية الهامة . اما الذين قاموا بهذا الدور فى خدمة التمدن الانسانى ، فهم العرب المسلمون،وقد قام منهم باكبر نصيب فى هذا المجال سكان المغرب بالدرجة الاولى سكان وادى النيل .

وقد نتج عن جهود المسلمين فى هذا الميدان ان سكان الغرب الافريقى اصبحوا جزء لا يتجزا من العالم الاسلامى، ورغم الاعمال المعاكسة التى يقوم بها الاوروبيون فى تلك المنطقة منذ نهاية القرن التاسع عشر ، بقصد تحويل الناس عن الاسلام او ابعادهم عن الشعور بانتسابهم للعالم الاسلامى على الاقل ، فان مساعيهم فى هذا السبيل لم تسفر لحد الان الا عن نتائج طفيفة الى حد كبير . حيث ان الجماهير الشعبية فى غرب افريقيا لا تزال شديدة التعلق بالدين الاسلامى والحضارة الاسلامية ، وهنا يبدو الى اى حد يحسن بالعرب عامة والمغاربة بشكل خاص الاعتناء بتوثيق الصلة اكثر من اى وقت مضى ، مع اخوانهم فى جنوب الصحراء الافريقية الكبرى التى كانت بحر الاتصال والعلاقات الانسانية المثمرة منذ اقدم العصور .

د . عبد القادر زباديــة

أستاذ بقسم التاريـخ بالجامعـة

من بين المصادر الهامة لهـذا المقال :

---

1 — ابراهيم حسـن — انتشار الاسـلام فى القـارة الافريقية — القاهـرة 1964

2 — احمـد بابا — نيل الابتهـاج — فاس 1317 هـ

3 — عبد الرحمن السعدى — تاريخ السودان — باريس 1964

4 — محمد كعت — تاريخ الفتـاش — باريس 1964

5 — زاهر رياض — الممالك الاسلامية فى غرب افريقيـا وتجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى — القاهرة 1968

(6) Mauny R., Tableau géographique de l'Ouest Africain , Dakar 1961.

(7) J. Léon L'Africain, Description de l'Afrique, T. 3, Paris 1898.

(8) Briggs, L. Cabot, Tribes of the Sahara, Cambridge 1960.

(9) Fage, J., An introduction of to the history of wst Africa, Cambridge 1965.

(10) Lhote, H., A la découverte des fresques du Tassili, Paris 1958.

دراسات إسلامية

التقدم العلمى

هذه المشكلة قائمة فى الغرب منذ اكثر من قرن وقد قامت فى المشرق الاسلامى منذ السنين : هل يؤدى الى الالحاد او بعبارة اخرى هل الدين يتناسب مع التقدم العلمى ، هذا السؤال نجده فى تيارات فكرية عديدة انتشرت غربا وشرقا تحت اسماء مختلفة ابتداء من القرن التاسع عشر على الخصوص تحت اسماء الوضعية العلمية Positivisme scientifique او اللائكية Laicite ومعناها فصل الدين عن شؤون الحياة Séparation du temporel et du spirituel او فى لغة اليوم « Progressisme »

والإيمان

الشيخ بوعمران

• العلم ضرورى ولــكن فوق هذا هناك مفهوم اوسـع للفكر الانسانى تدخل فيه الفلسـفة والدين والعقائد بصفة عامة .

• يقـول باشـــلار : الحقائق العلمية نســـبية فقط ، اما الحقائق الاخلاقية فهى مطلقة .

هذه التيارات بصفة عامة لها مواقف معروفة من صلة العلم بالعقيدة . وقبل أن تعرض التيارات أود ان اغره بسرعة الاسباب التاريخيــة التــى ادت بالغربيين الى هذه المواقف لاننا اخذناها فى الغالب عن الغربيين وذلك بوسائل شتى : امـــا عن طريق البعثات العلمية الى اوروبا ومنها بعثات طلابية الوافدة من البلاد الاسلامية الى الجامعات الغربية لتتعلم وتعود لتقوم فى بلادها بما سميناه (صلاحات) باما بوسائل اخرى عن طريق الترجمة من الكتب الاجنبية الى اللغات المنتشرة فى العالم الاسلامى ، وخاصة منها اللغـــة العربية اما عن طريق ثالث وهو التدريـــس من طرف اســاتذة اجانب مثل المستشرقين الذين درسوا فى جامعات البلدان الاسلاميـــة والذين قد كـــانوا وكونوا فى جامعاتهم الغربيـــة البعض من الاساتذة الذين اصبحوا يـــشرفون على التدريـــس فى الجامعات الاسلامية وبطرق اخـــرى عن طريـــق الاذاعات والصحـــافة والافلام وقد برزت فكرة الـــعلمانية (SCIENTISME) عند الغربيين فى القـــرن التاســـع عشر وقد بنـــاها المفكرون الذين قالوا بالعلمانية وجعلوا العلم هو الفلســـــفة والعقيـــدة والتقدم . والعلم هنا له مفهـــوم محدود فهو العلم التجريبى الطبيعى وينحصر فى العلوم الفيزية والكيمائية بصفة خاصة وفى علوم الاحياء لماذا انتـــشرت هذه الفكرة عند الغربيين. لأن التصنيع تقدم كثيرا وانتـــشرت الالة تقدمت العلوم التجريبية هذا مامن ناحية. وقد برزت فوائد العلم التجريبى بصفة ملحوظة ومن ناحية اخرى وجدت فى تاريخ الغرب الفكرى بعض العراقيل لهذا التقدم العلمى منها مواقف الكنيسة الكاثوليكية ضد كل تقدم فكرى علمى حتى القرن الســادس عشر عندما انشقت الكنيسة على نفســـها وقامت الثورة الدينية التى تزعمها المفكر الالمانى لوثر وقد وجه هذا المصلح بعض التهم للبابا وللكنيســـة الكاثوليكية من ضمنها انها جمدت الفكر ومما يدل على صحة هذه الاتهامات موقف الكيسة مثلا من غاليلية (GALILEE) وهو العـــالم الفلكى المشهور الذى اكتشف فى القرن الســـــادس عشر ان الارض تدور ، فنشر هـــذه الفـــكرة بعـــد ان جربها وتيقن من صـــحتها ، فحاكمته المحـــــاكم الدينية الكاثوليكية بدعوى انه تدخل فى شىء يمس الدين المـــسيحى ، وقصة المحاكمة مشهورة . وقد أرغم على نفى آرائه والا كان يعدم ، وعندمـــا فكر فى الموضوع تراجع فى رايه أمام المـــحكمة الدينية ولكنه كان متيقنا بأن الأرض تدور ولذلك قال عبارته المشهورة الحقيقة ان الأرض تدور وهذه كارثة كبرى فى العالم الغربى وهو تدخل الدين فيما لا يعينه ، فقد اتت المسيحية

مثل الاديان الاخرى بقواعد دينية وبمبادىء سامية موجودة فى الكتب المقدسة ولم تتناول قط الامور العلمية بأشارات رمزية ، وانما تجمدت الافكار فى الكنيسة فاصبحت ليست فقط سلطة دينية وانما ايضا سلطة اجتماعية وسياسية وكانت لها صلات وثيقة بالحكومات المسيحية لآن الكنيسة سيطرت على الوضع السياسى فى اوروبا الغربية كلها وتحالفت مع الامبراطوريات واشهر تحالفها هو الذى كون الامبراطورية الكاثوليكية الرومانية وهو تحالف بين امبراطور جرمانيا وهى المانيا والبابا حتى سيطرت الكنيسة على اوربا الغربية فى القرون الوسطى بحيث ان الدارس لتاريخ الغربيين يتحقق بأن الكنيسة كانت هى صاحبة الكلمة فى جميع المجالات طيلة العصور الوسطى ولهذا يقال بأن الحضارة الغربية فى ذلك العصر كانت مسيحية والعبارة التى كانت تمثل هذه الحقيقة هى عبارة (CHRETIENTE) ونحن اليوم نقول ان هناك كنائس مسيحية كثيرة قد تخلت شيئا عن هذه السلطة الاجتماعية والسياسية ولكن لم تتخل الكنيسة عن هذه السلطة من تلقاء نفسها وانما ارغمتها الظروف على ذلك فقد وقعت ثورات ضدها ثورا تدينية اولا منها ثورة لوثر التى اشرنا اليها وثورة كالفين الفرنسى الذى اسس جمهوريته البروتستانتية فى مدينة جنيف وحينما زار البابا اخيرا جنيف استقبله السكان ببرودة تامة لانهم انصار الفكرة البروتستانتية التى قام من اجلها كالفين ولا تزال كنائسه ومدارسه ومعابده هناك

وقد لعبت هذه الحركة دورا خطيرا فى تاريخ الغرب ان الثورة الاولى ضد الكنيسة كانت دينية ثم حدثت ثورات اجتماعية لان الكنيسة اعتمدت على الطبقات المثرية والنبلاء والتجارة وكان فى الكنيسة نفسها طبقات طبقة الرؤساء الزعماء وطبقة شعبية كانت متصلة بالفلاحين والفقراء والمستضعفين . اعتمدت الكنيسة على اهل السلطة من نبلاء وتجار واغنياء واهملك تعاليم المسيحية لان المسيحية الحقة تقول بالاعتماد على الفقراء وعبارات المسيح عليه السلام فى هذا المعنى كثيرة معروفة الجنة للفقراء السماء الخ ..

فثارت هذه الطبقة الاجتماعية اى طبقة الفقراء ضد الكنيسة كسلطة وكانت الكنيسة تعتبر دولة وحتى عصرنا هذا يعتبر الفاتيكان دولة ونجد فى الفاتيكان سفراء والبابا يعامل معاملة رئيس دولة حين يسافر لبلد ما وهذا يتنافى تماما مع التعاليم المسيحية القديمة مما جعل بعض المفكرين من المسيحيين وحتى من رجال الكنيسة يثورون ضد هذه الاوضاع الاجتماعية التى كانت تعيشها المسيحية وعدد المضطهدين من رجال الكنيسة كثير نذكر منهم فقطفينلون FENELON فى فرنسا وهو الذى وجه رسائل لملك فرنسا لويس الرابع عشر تدور حول قضية فقر الفلاحين وذلك بصفته رجل الكنيسة فاضطهاده المملكة الفرنسية ورجال الكنيسة الكاثوليكية وبأن كان من زعمائها .

بعد هذه الثورات الاجتماعية المتعددة جاء دور الثورات السيأسية ضد الكنيسة واشهرها الثورة الفرنسية الكبرى سنة1781 وقد تميزت هذه الثورة باضطهاد رجال الكنيسة فأممت ممتلكات الكنيسة وزج بكثير من رجالها الى السجون واعدم البعض منهم بصفتهم معارضين للثورة ومن الملحوظ ان بعض رجال الكنيسة من الطبقات الشعبية ايدوا الثورة الفرنسية وبقيت الكنيسة على هذا الوضع حتى دخلت فيها عناصر جديدة ابعدت هؤلاء الثوار المسيحيين وفى القرنين السابع والثامن عشر برزت فى بريطانيا وفرنسا على الخصوص فكرة الالحاد القديمة وتزعم هذه الفكرة بعض المفكرين الذين اشتهروا فيما بعد بفلاسفة الانوار وهم ديدوو وفولتير VOLTAIRE ودالمبير D'ALEMBERT وريسو ROUSSEAU وغيرهم ومنهم ملحدون ماديون اشهرهم ديلفيسيوس D'HELVETIUS وله كتاب فى هذا الموضوع واراد هؤلاء الفلاسفه ان يتقدموا بالعلوم التجريبية والاجتماعية وان يحرروا الطبقات الضعيفة من الشعب فقاومتهم الكنيسة نظهر تمثلا مجموعة رسائل الديد والرومى **الخواطر الفلسفية** التى تمثل السلاح الاكبر ضد الكنيسة وكذلك كان فولتير المعجم الفلسفى والمقالات الكثيرة والرسائل التى كان ينشرها قبل

ان تنتشر الصحافة وكانت الحكومة تضطهد فولتير فلجأ الى سويسرا وحكايته معروفة مع النبلاء ، فقد قال له احد النبلاء يوما انت راع ابن راع ابن فلاح ولا تستحق الاحترام « وضربه بالعصا »

لهذه الاسباب اعتقد المفكرون فى الغرب ان التقدم يتنافى مع الدين فاذا اراد مفكر او عالم ان يتقدم علميا او ان يكتشف شيئا فعليه أن يبتعد عن الكنيسة لانها عبارة عن تجميد فكر وتسلط على المفكرين وطغيان سياسى واجتماعى .

وبعد هذا ازدهرت الحركة الصناعية وتطورت الالات واكتشفت قوة البخار ثم اخترعت الباخرة ثم السكة الحديدية والهاتف ... وهذه الاكتشافات العلمية جعلت الانسان يعتقد بأن عقيدة البحث العلمى هى كل شىء أما عقيدة الكنيسة الكاثوليكية فاصبحت قديمة لا تأتي بطائل للمجتمع الاوربى وادرك هذا الخطر بعض رجال الكنيسة فحاولوا ان يسايروا العصر ولكنهم اخطئوا فى اختيار المناهج فبدلا من ان يدرسوا العلوم ويستنتجوا منها ما يسمح لهم بالدفاع عن عقيدتهم حاربوا العلوم بصفة عامة لانها مصدر الالحاد والعلمانية فكان رد المفكرين عنيفا واشهرهم اوغست كونت **AUG COMTE** الفيلسوف الاجتماعى الفرنسى المعروف الذى اخذ عنه جل العلماء فيما بعد فهو صاحب المذهب المشهور ب **POSITIVISME** اى الوضعية وقد سماها هو الوضعية الفلسفية وجاء الكثير من اتباعه وحوروا المذهب قليلا وسموه الوضعية وقد تعلم اوغست كونت فى دير ليكون من رجال الكنيسة ثم تخلى عن هذا الاتجاه لانه فقد الايمان وكان هذا يقع للكثير من رجال الكنيسة منهم ارنست رينان **ERNEST RENAN** المستشرق المعروف الذى له دراسات فى ابن رشد والرشدية وفى اللغات السامية .

وكان رينان أيضا من انصار الفكرة العلمية وله كتاب **مستقبل العلم**

أما أوغست كونت فقد وضع اسس المذهب الفلسفى على ما سماه بقانون المراحل الثلاث وهو ليس بقانون ، وفى هذا يقول ان الفكر الانسانى يمكن حصره فى مراحل ثلاث :

المرحلة الاولى : هى المرحلة الميتافيزيقية بمعنى ان الميتافيزيقيا تشخص بعض القوى الطبيعية مثلا يعتبر بعض اليونانيين والافارقة والاسياويين القدماء انفى السماء قوة فى الشجرة قوة وفى القمر قوة ولهذا كان هؤلاء يقدسون هذه القوى ويخشونها لانها فوق الطبيعة الملموسة .

المرحلة الثانية : هى المرحلة الدينية او اللاهونية وقد اختار عدة مفكرين هذه القوى المختلفة وشخصوها ونسبوا اليها أوصاف البشر وكانت هذه الفكرة تقول بتعدد الالهة عند اليونان فنجد آلهة القمر وآلهة الحصاد وآلهة الصيد وغيرها ، وفوق هذه الالهة كلها اله رئيس وهو جوبيتر . وكان الحال كذلك عند الرومان والفرس والمصريين القدماء واسماء الالهة تختلف ولكن الفكرة واحدة .

وقد تطورت الفكرة حتى وصلت الى فكرة اله واحد حكيم قدير كامل فيه جميع الاوصاف الانسانية كما يقول اوغست كونت فى درجة الكمال . لانه من غير المعقول ان توجد خلافات بين الالهية كما فى الالياذة والاودسية ثم عندما انتشر العلم التجريبى تبين أن هذه الفكرة لاصلة لها بالواقع لانها بعيدة عن التجربة والواقعية العلمية وقد كان أوغست يقول أن التقدم الفكرى هو فى نكرة هذه الفكرة المجردة .

المرحلة الثالثة : والاخيرة هى المرحلة العلمية العلمية الوضعية وقد تطور أوغست كونت بعد ذلك وعدل عن فكرته السابقة وبعد ما قال بأنه لا وجود للاديان وضع دينا جديدا وسماه بدين الانسانية والسبب فى وضع هذا الدين بسيط فقط تعرف على امراة وقامت بينهما علاقة فاصبح يتأمل من جديد فى ضرورة وجود دين ما فوضع هذا الدين غير انه فصله عن الكنيسة وبذلك قضى هو نفسه على فكرته السابقة وهى أن المرحلة العلمية تنفى المرحلة الدينية فوضع دينا جديدا ، لان الانسان حيوان اجتماعى كما قال ارسطو كما هو حيوان فلسفى وحيوان دينى فى نفس الوقت هذا ما فعله اوغست كونت نفسه وكل المفكرين وصلوا لنفس الفكرة حتى من يقول بالالحاد لان

الالحاد ذاته دين جديد له كتبه المقدسة وله انبياؤه ورسله وفرقهفتوجد فيه كل المظاهر الدينية والالحاد عقيدة غير انها تنكر وجود الالهوهى مبنيةعلىأسس عقلية واذا درسنا التيارات الالحادية المعاصرة نجد فيها كتبا تعتمد كالكتب المقدسة ولكل مدرسة ملحدة كتبها المقدسة ولو كان الالحاد عقليا فقط ما كان يعتمد على هذه الكتب والغير العلمية لان الالحاد المعاصر يعتمد على العلم من حيث هو علم تجريبى فقط فاذا قال بأنه لا وجود للاله وانما توجد المادة والعقل فقط كيف يمكنه ان يبرهن على ان الاله غير موجود عقليا واذا اعتبرنا ما اقترحه بعض المفكرين من ترك الكتب المقدسة جانبا لنفكر بعقولنا ونهتدى الى فكرة معينة واضحة عن وجود الاله أو عدم وجوده فلن نستطيع أن نصل الى نتيجة مرضية لان العقل وحده قاصر وهذا ما اكتشفه بعض العلماء الفزيائيين انفسهم لان الفكرة التى تقول بأن العلم هو كل شىء تغلغلت فى الفزياء الحدكثة والكمياء وسبب هذا ان العالم الادوات المادية فى ابحاثه ولا يفكر الا فى الظواهر والفكرة العلمية مبنية على هذا والعالم العصرى يفكر فى الاحداث فقط وفى الانسان ولكن يفكر فى مصير الانسان ولا فى نفسية الانسان لانه يعتقد ان الانسان لا يملك وهذا هو ما يسمى بالمادية او هو يفكر فى العالم كعالم بدون اله وهذا هو الالحاد .

ان العقلية المعاصرة تدعى بأنها هى كل الفكر الانسانى وفى نفس الوقت يتبين لنا ان العلوم المعاصرة الحديثة لايمكنها انتتجاوز بعض الحدود فالعلم الطبيعى مبنى على دراسة اللبيعية

الالهية وكل ما وراء اموره فان ذلك طمع فى محال .

العقل ميزان صحيح واحكامه يقينية لا كذب فيها غير انك لا تطمع ان تزن به امور التوحيد والاخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الصفات الالهية وكل ما وراء اموره فان ذلك طمع فى محال .

وهذه فكرة موجودة عند جل المفكرين المسلمين وهى بعيدة عن الفكر الغربى لان الفكر الاسلامى يميز ما بين العقل والدين ومعنى هو ان الاسلام يأتى بتعاليم دينية موجودة فى القرآن الكريم وفى أحاديثنا الصحيحة وفى تراث الفكر الاسلامى ولكن الاولوية ليست للعقل وحده كما يقول المعتزلة ولكن السنة الاسلامية التى وقع عليها اجماع المسلمين تذهب الى ان الاسبقية للرسالة النبوية وللتعاليم الدينية وللوحى ثم يأتى العقل ولا يخلق العلوم وانما يتأمل الطبيعة ويوجهها ليكتشف ويسيطر عليها ويتجاوز العالم المعاصر حدود العقل عندما يقول أن العقل يستطيع ان يسيطر على كل ما يدور فى فكر الانسان وهناك علوم لا تقر هذا المبدا فمثلا علم النفس السلوكى لا يعتمد الا على الظواهر فاذا تحرك انسان واذا وقع له خلل فكرى عصبى يقوم بحركات يدرسها العالم النفسانى ولكنه لا يستطيع ان يعتمد على العقل وحده وكذلك علم الطبيعة والكيمياء يبحث عن الظواهر ويستعين بمكبرات ليرى الامور كما هى الوسائل التى يمكن للعالم المعاصر ان يتحكم بها فى الغيبيات انه يستطيع ان يصل الى القمر لان القمر موجود يستطيع بالعمليات الحسابية التى تنقل المركب أبولو APOLLO الى سطح القمر القمر ولكن هل يستطيع العلم ان يقول لنا مسبقا ما يدور فى فكر هؤلاء الطيارين عندما يصلون الى القمر .

ان هناك فوارق بين الظواهر العلمية التى يعتمدها العلم المعاصر والغيبيات بصفة عامة هل يستطيع أن يحدد لنا متى تكون نهاية العالم الذى نعيش فيه . هذه غيبات فوق العقل الانسانى وكذلك يعتقد العالم المعاصر أن التقدم مستمر وهذا يدل على شىء من التفاؤل ولكن هذا التفكير قاصر فحينما ندرس تاريخ الفكر الانسانى نجد أن هناك تقدما ماديا بالفعل فقد انتقلنا من المصباح بالزيت الى الكهرباء واكتشفنا الكثير ، ولكن هل تقدمنا مدنيا وخلقيا بشكل مطرد ، هناك تفاوت فنحن تارة نتقدم وتارة نتقهقر فنحن قد تقدمنا علميا حتى اكتشفنا القنبلة الذرية وتقهقرنا **حضاريا واخلاقيا** حتى ابادت هذه القنبلة الذرية الالاف من سكان مدينة هيروشيما هنالك .اذن هناك تقدم مادى وتأخر حضارى فى نفس الوقت مثلا وصل الامريكيون الى القمر واضطهدوا السود فى أمريكا وهنا يتدخل العالم المفكر اذا كان قادرا

على التفكير لان من ظواهر هذه العلوم العصرية ان العالم لا يفكر الا فى علمه وقد ذكر لنا العالم بينيه استاذ الفيزياء فى جامعة جنيف GENEVE بأن العالم الفيزيائى لا يستطيع فى الغالب ان يفكر فى مشاكل الانسان وحاجاته النفسية لانه يعيش بين ادواته ويفكر فى بعض النتائج المحدودة وقد كثرت التخصصات الفرعية فى مجال العلوم ففى مجال الفيزياء مثلا هناك الفيزياء الذرية وفيزياء الجوامد وغير ذلك وهؤلاء العلماء يهملون ويحتقرون كل ما هو بعيد عن هذه العلوم المادية لان العالم العصرى الفيزيائى والطبيعى لا يعتبر من لا يسير على هذه المناهج العلمية يستعمل قوة غير عقلية . فالفلسفة والدين والثقافة العامة كلها امور تبدو له غير عقلية لانه يعتقد ان الحقيقة هى فقط ما يلاحظه الانسان ويراه من اجل تغيره وان الانسان لا يستطيع ان يصل الى حقيقة ما الا بحواسه وذكائه فيجب علينا اذن أن نبين لهذا العالم العصرى أن العلم شىء والدين شىء آخر والحكمة شىء ثالث فالعلم هو جمع معلومات نحن فى حاجة ماسة اليها لنتغلب على الطبيعة أو كما يقول ديكارت العلم يجعل الانسان سيد الطبيعة والمسيطرة عليها فوظيفة العلم هى التغلب على المشاكل المادية ونتقدم لنتمتع بمرافق احسن فنتغلب على الحر بالات التكييف مثلا ، اما مشاكلنا العقلية والنفسية والعقائدية فلا يمكن للعلم ان يسيطر عليها لانه قاصر على المادة فقط وذلك باعتراف العلماء التجريبيين فمثلا الاميردى بروى وهو من علماء الفيزياء المشهورين وقد نال جائزة نوبل فى الفيزياء يقول العلم الان لايمكنه ان يصل الى اليقين فى جميع المجالات وقد بين باشلار العالم الفيلسوف المعروف فى كتبه **بأن الحقائق العلمية نسبية فقط اما الحقائق الاخلاقية والدينية فهى مطلقة .**

هذا ما جعل المفكر المتدين يقول ا نالعلم ضرورى ولكن بعد هذا هو وفوق هناك مفهوم اوسع للفكر الانسانى تدخل فيه الفلسفات والاديان والعقائد بصفة عامة وهذه الاشياء تسلط على العلم،وهناك تأثير متبادل بين الجانبين

والمهم ان نضع الميزان بين الجانبين فتكون لنا حضارة انسانية لبشر يتحكم فيها انسان متعقل فى اوضاعه متأملا فى مصيره محاولا ربط المصير بالعالم وبخالق العالم .

الإسلام كدين عالمى

للمستشرق المجرى

د. عبد الكريم جرمانوس

ان القانون ــ وهو الحق الانسانى حسب تعاليم الاسلام ــ قد ولد وتتطور فى ظل الاخلاقيات . فهو الذى يوجه الناس ، وهو الذى يحميهم وهو فى التسليم والاعتراف بذلك انما ينبع من منبع ومصدر أخلاقى ميتافيزيقى ، اساسه الدعوة الالهية ، حسب ماهو مثبت فى القرآن الكريم وحسب ماأوصى به وما تبع النبى صلى الله عليه وسلم من تقاليد .

لقد حقق العلماء بعد وفاة النبى وعلى مر القرون ــ نظاما قانونيا محكما ، يعتبر الكمال المذهل الخارق للعقل الانسانى ، وذلك بفضل استنادهم الى المنبع القانونى من ناحية والى عقل الانسان وفهمه من ناحية أخرى .

وهكذا كانت الشريعة بمدارسها الاربع المعروفة .

الحنفى الشافعى ، المالكى ، الحنبلى التى اشتركت فى البناء الهائل العظيم الذى ضبط وقعد بانتظام كل لحظة فى حياة الانسان وعمله .

ليس فى الاســـلام طبقــة القســاوســة المقــدســة ، فكل مسلم يقف أمــام ربــه دون وساطــة .

كانت الشريعة الاســلامية ، وقد حددت ماهية الانســان الذاتى الحــر ، تعتبر أعــلى مستوى وأكثر اكتمــالا من نظم القوانين الاوروبية .

وحتى قبل ان تصدر نظم القوانين الاوربية التى تعــددت العلاقة بين الدولة وبين الحياة الطبيعية للمجتمــع ، وقبــل أن يؤخــذ الانسان على انه شــخصية ذاتية لا يمــكن التدخل فى تصرفاته الداخــلية والخارجية ، واعنى بــها الروحية والطــبيعية ، كانت الشــريعة ــ وهى القانون الاسلامى ــ قد انتشرت وحددت ماهية الانسان الذاتى الحر ، حياته ، وظيفته ، وهى بهذا السبق ومن هذه الزاوية تعتبر اعلى مســتوى واكثــر اكتمالا من نظم القوانين الاروبية .

من العبث أن احاول تعريف الشريعة ، خاصة امام اخوتى المســلمين . لقد شــرحت وفسرت الشــريعة خلال محاضراتى الجامعية للمجريين والالمان والهنود سنوات طويلة ، وفى بقاع عديدة من العالم اقمت ســلاسل محاضرات خصصتها لتفسير الشريعة ، وهو مااعتقد انه من الاهمية بمكان لاخوتى ورفقاء دينى المسلمين ، لان هذه المعرفة الاسلامية التى كانت تمثل العمود الفقرى للثقافة الاسلامية ونقطة الارتكاز الاساسية فيه ما تزال اليوم هى الحقيقة الحية ، على الرغم من ان بعض المسلمين فى بعض البلاد قد اخذوا بسياسة العدل الاوروبية معتبرين ان الشريعة مــا هى الا شرط او نص ، أو حق مــوروث او حق شخصى وعلى اســاس هذا الاعتبار وسعوا من قوانينهم الارضية استنادا الى قوة هذا القانون المفرد .

من الطبيعى أن نظم القوانين الغربية باالنسبة للتكوينات الانســانية انما تتغذى من منبع الفكر الانســانى . هذا الفكر الذى يتغير من وقت لاخر حاملا فوق كتفيه عذاب الانسان ومتاعبه وطابع الامواج المتقلبة فى حياة المجتمع ، وهو بهذا الشكل فى الحقيقة يكون مؤقت الفعالية والشرعية ، دائم التغير ، مما يجعل العلاقات المتصــلة بعضــها البعض متعارضة متناقضة .

ومن راى الشريعة انه اذا عرفنا هذا التناقض عن طريق المنطق وحده ، واذا ما دققنا النظر فى بحثها فاننا سنضع أيدينا علىنظم الحياة وقواعدها المكتملة التى يمنحها الفكر للانســـان . ان المنطلق الاساسى فى نظام الشريعة هو انه لا بد من وجود خالق لهذا الكون عامــة ، هــذا اقتناع لا مجال لمناقشــته ، لانــه حقيقة اوليــة تعادل الحقيقة الاولية عــند العلوم الطبيعيــة ، التى لا تؤكد او تدحض عقل الانســان ، والتى بانكارها تهدم كل نظم العلوم الطبيعية .

والخالق هو السبب الاول ، وهو المســبب الاول الذى يســتمد منه العالم اجمع امتداده . لكن هذا الســبب الاول (والنوع العــالى) ، العقل ليس بمستطيع فهمه أو الامســاك به او التقرير بشىء فيه ، وهو مع ذلك له من القوة التأثيرية فى الارض جمعاء الكثير ، وبما يؤثر كل لحظة فيها . وهو فى نفس الوقت الالهية التى تفوق تصور الانســان وعقله وادراكه ، وهــو ايضــا النظام الاخلاقى للارض جمعاء .

لقد قرر ذلك المفكرون العرب وعلماء المعتزلة ابو هذيل محمد العلاف (توفى عام 226 هجرية) النظام (توفى عام 231 هجرية)، بشر بن المعتمر معمر بن عباد ، ثمامة بن اشرس (توفى عام 213 هجريـــة) . لقد حـــاول كـــل هؤلاء المـــفكرون — بمساعدة من منطق ارسطو — ان يقربوا بين التعبير الالهى وخصائصه وتاثيره على سير العالم اجمع وبين قوة الانسان وتفكيره ، وقد وصـــلت ابحاثهم وتجاربهم الى النتيجة التالية : وهى ان الالوهية بالنسبة لعقل الانسان لا يمكن التعرف اليها ، لكن وجودها لا يمكن انكاره .

تكون من اعمال وتصرفات علماء الدين على مر القـــرون ، وبفضل من الشريعة ، فقه المذاهـــب الاربعة . وهو قانون محكم نجده بين ايدينـــا الان وقاعدته ان يحكم الارض عامـــة بقوة اخلاقيـــة ، وضمن سبيل التعرف على هذه القوة الاخلاقيـــة بالقرآن وبوصايا النبى صـــلى الله عليه وســـلم وحسب ما يفسره العقـــل من تفســـيرات وفهم وادراك . وفى هذا تقود الشريعة الانســـان الى التعرف على كيفية حفظه لجسده وممارســـته له حتى يبقى ســـليما معافى ، وكيف يمكن ان يتطهر روحانيا عند الصلاة عندما يقف خاشعا امام ربه ، وهى كلها اشياء لها مغزاها ومعناها حتى لا تكون حركات لتحريك الفم او مظاهر خارجية ، وانمـــا هى فى الحقيقة تعمق خالص وغراق فى شىء . وهو ما يعنى الاقتناع بأننا مسؤولون مســـؤولية تامة عن كل اعمالنا وافكارنا وتصرفاتنا امام الناس ، ثم امام الله.

هـــذا الـــوجود الذى يـــكون القوة الارضية والسماوية فى كل مكان ، هذا الارشاد والتوجيه يتاكد ويتقرر فى كل زمان وفى كل تكوين تاريخى وفى كل حركة اجتماعية . . وهو فى نفس الوقت يتضمن السلوك الانسانى للمرء تجاه اخيه ، كما انه يؤثر فى التطهر الجســـدى وفى التطهر الروحى ايضا .

وهو ما يعلمه الاسلام عند ما يقول . . «الطهارة من الايمـــان» . وفى التعـــاليم الأخلاقية للاسلام كوحى ، نراها تحفظ المجتـــمع مـــن الذنوب التى تســـببها البراءة المطلقة والتـــمرد والعناد وشدة الشـــكيمة . فتعاليم الاسلام تحرم بشدة تعاطى الخمر وتعاطى اى نوع من انواع المخدرات او المنومات لأنها — بتحكيم العقل الانسانى — تعنى شروع فى الاعتداء على حياة الانسان نفسه . وهذا المنع فى الاسلام يمكن ان يكون مثلا لكل الشعوب وكل المجتمعات ومجســـدا فى قوانينها ومقررا ، على اعتبار ان هذا المنع انما يســـبق ويتقدم على تاثير المخدر او المنوم قبل ان تحل الجريمة .

والاسلام يحافظ على سلامة الاسرة ويحرسها. وهو يعاقب بشـــدة على تحطيم الحياة الزوجية وتدهورها ، وكذا على الفســـق والفجور . فحياة الاسرة عند الاســـلام مقدسة ، وهى مثل الهرم ، شاهقة عـــالية لا تمس ، حيث يعلن الزوج فيها زوجته ورفيقة حياتـــه كأم لأولاده وكملاك حارس تقف الى جانب زوجها تؤيده وتعضده .

ويتبع الاسلام فى ارتداء الملابس والهندام حكما اخلاقية تؤيد وجهة نظره ويضـــمن الحياة والعفة والحجاب يجســـد هذا الرمز ، وهو يعنى انه لا يجب على النساء ان توقضن بتصرفاتهن من خلال سترة طائشة مســـتهترة الرغبة الحسية بطريقة خاطئة حتى لا تصـــيب طهارة المجتمع باالعدوى

لقد اثرت الموضوعات الغربية عند النســـاء والرجال سواء بســـواء بشكلها الفاضـــح على السلوك الانسانى بما افســـد التوازن الاسرى ، فضلا عما فجرته من اضـــرار وتخـــريب داخل المجتماعات والدول .

يعاقب الاسلام بشدة وفى سمو على الســـرقة والانتـــهاك وقطع الطريق ، ولهذا نادرا ما تقترف امثال هذه الذنوب فى الدول الاسلامية .

والاسلام كدين لا يقيد المؤمن به ــ على اعتبار المؤمن لابد ان يؤمن بشــيء ــ لايقيده بالا يعرف قوانين الطبيعة ، او يكف النظر عن عملها وكيفية تشغيلها نتيجة خبرته الشخصية وتجاربه وافكاره وعند ما كانت شعوب أوروبا تتلمس طريقهـــا فى غابة الجهل كان العلماء المسلمون يبحثون بالعربية فى العلوم الطبيعية . . فى الجبر والحساب والكيمياء والفلك والطب ، كاشفين اسرار الفلسفة عاملين على نشر تعاليمها فى حرية . لقد كان المدرســون فى مدارس المساجد الاسلامية على اعلى مستوى علمى ،وكانت تعاليمهم هى الاساس الذى سارت عليه اوروبا عندما نهضت من سباتها مؤخرا .

ان الاســلام لا يعرف الفروق او الدرجات بيــن الانسان .. ليس الغنى او القوى من هو فى الدرجة الممتازة عند الله سبحانه وتعالى ، لكنه هو العالم المفكر الذى يجد طرقه الحر فى بحوثه الحرة ليضىء بها القوانين الاخلاقية ويفتح مجال التعرف عليها، وهو فى هذا يوضح متطلبا ت الحياة وتجــاربها وتجاربها فى تناسق وانسجام .

والاسلام لا يعرف كذلك طبقة القساوسة او الخاصة . لكن تعاليمه تقول بأن على كل مسلــم أن يعرف قوانين الاسلام واتجاهاتها الاخلاقية ، وعليه ان يقف ويوازع من نفسه امام الله سبحانه وتعالى خاشعا خاضعا دون وساطة .

والاسلام الى جانب العلوم الطبيعية التى سبق ذكرها قد ابدع ادبا ضــخما تتجلى عظمتــه فى انتاجات الشعر والنثر التى اصبحت مثلا ونموذجا يحتذنى به فى الماضى ، ولا زالت باقية حتى اليوم تخدم شعوب العالم المثقفة .

وفى نظام العالم الاسلامى ولــدت الرغبـــة والاشتياق الى العالم الروحى الذى انبثقت منـــه أصلا . فقد حاول الناسكون والمتقشــفون الذين



عزفوا عن غرور الحياة وخيلاء الارض وارتفعوا عن مظهرها الخارجى أن يتخلصوا من قيود الجسد وهؤلاء هم الصــوفية ، الذين ارادوا أن يتحدوا بأرواحهم مع الالوهية . وهم فى تجليهم وتطورهـــم اللدنى عرفــوا أن الاخاء والمحبة والمدة هى القوة العظيمة فى العالم جمعاء ، ورفعوا مـــن هــذه الخاصية فى اشعارهم واعمالهم .

وأقدم هذه الاعمال الصوفية الروحانية مـــن تاليف أبو طالب المكى (المتوفى عام 996) بعنوان « قو تالقلوب » ، ومن تاليف عبد الحق سبعين (المتوفى عام 1269) بعنوان « اسرار الحكمـــة المشرقية » . عمر بن الفارض (توفى عام 1235) كتب « نظم السلوك » و « خمرية » وهى شعر رمزى متجل كتبه عندما ظهرت امامه روح النبى صلى الله عليه وسلم . ثم ابن العربى (توفى عام 1240) ومؤلفيه « فتوحات المكيـــة » وفصوص الحكم » حيث يكتب عن رؤياصوفية غامضة .

لقد هاجم العلماء الغـوامض الصوفيـة فى البداية . وظل هذا الهجوم حتى كتب الغـزالى (المتوفى عام 1111) كتابه « احياء علوم الدين » التى اعلن فيها عن سمو بصيرة النفس وحطـم الجسر القائم بين العلماء والتصوف . ان نظرية الغزالى تكمن فى فلسفته الشعور التى وصل فيها الى التعبير عن الخوف عند الانسان ، وهو قـد احس بالوحدة عنده وهذه المعـرفة فى تعلقـه بشخصية محبوبة مفكرة يمكن ان ينادى عليهـا فى يأسه وقنوطه فتستجيب لندائه ورجائـه ، وهـ ىالتى تعم رحمتها فى الارض والسماء دون حـــدود .

ان مقدمة ابن خلدون (المتوفى عـام 1406) احد كبار عباقرة الاسلام قد قررت هذه الحقيقة .وهى انه طالما تنمو وتترعرع شجرة مـن بذرة فلا بد من أن تثمر الشجرة ثمارا ، وهى نفـس العلاقة بين المجتمع الانسانى وبين التطور . وهذه القوانين تتحقق ضمن التطور فى مختلف بقـاع الارض .. فى نظام الحياة اليومية ، فى التركيـب الجيولوجى للارض ، وكذلك فى حـياة المجتمـع الانســانى ايضـا .

كل شىء يتحرك ويستمر ولا يتـوقف دون مسببات او مقدمات ولا يوجد شىء دون نتائـج او عائدة . لكن هذا العقد والارتباط ليس ميكانيكيا ولا يعمل من تلقاء نفسه ، لكنه هـو الـوعى الانسانى وهو ارادة الانســـان نحو التطور والاستمرار .

ليكن امام كل مسلم طريق سلفه فى ظل وعى كامل منه .. لتكن امامه دائما حيـاة السالفـين واعمالهم ،وليحس بواجبه نحو تمجيد هذه الحياة وهذه الاعمال ،تماما كتعاليم الاسلام سواءبسواء التى تمجد الحقوق والواجبات

لقد وجد ابن خلدون هذه التعاليم الاخلاقيـة فى استمرار قوة المجتمع وسماها « عصبية » . فاذا ما تراخت اوبطلت هذه الواجبات او نال منها او من احترامها وتقديرها شىء ، خفض مـن الاعتقاد واصاب قوةالمجتمع بالضعف والاضمحلال. لنكن فخورين باعمال اسلافنا المســلمين .. ولنتابع بكل قوانا اعمالهم ، حتى نرعى هــذه العصبية « بمزيد من التقدير والاجلال ،وحـتى ندخل فى عصر الاسلام الذهبى مشاركـين فيـه بنصيـب جليـل .

كتاب الأصالة

Dynamische Weltwirtschaft

Von Fritz Baadde

List Verlag 1969

ديناميكية الاقتصاد العالمى

تأليف : فريتس باد

عرض وتعليق

د : طيب لحضيرى

يعتبر الاستاد باد من النظرين الاقتصاديين فى العالم ومن قادة مدرسة اقتصادية خاصة فى المانيا ويمكن اطلاق تعبير «الفلسفة الاقتصادية للتعريف بهذه المدرسة : اى انها مدرسة تنظر الى الاقتصاد العالمى على انه وحدة متكاملة رغم جميع ظواهر التجزئة التى قد توحى بوحدات اقتصادية مختلفة فى العالم وتمنع من الناحية النظرية معالجة مشكلة الاقتصاد كوحدة متكاملة باختصار ان هذه المدرسة ترى ان تقسيم العمل على المستوى العالمى شىء كان دائما موجودا وسيوجد . وظاهرة تقسيم العمل هذه هى وحدها التى فرضت مظاهر التجزئة لوحدة لايمكن تجزئتها باية حال من الاحوال وهذه الوحدة لايمكن معالجتها بصفة فعالة الا عن طريق تناولها بالبحث ككل وكوحدة وهل هذا سر العنوان الذى يعطيه الاستاد باد لكتابة « ديناميكية الاقتصاد العالمى » ولكن

النظرة لاتستفاد فقط من عنوان الكتاب بل لا نبالغ اذا قلنا ان جميع الافكار والاحصائيات ، والازمات الاقتصادية التى عالجها المؤلف فى كتابه الضخم (502 صفحة) توضح لهذه النظرية بصفة تكاد تكون اطلاقية وسوف نتعرض باختصار لمثال يسوقه المؤلف لاثبات نظريته الوحدوية بالنسبة للاقتصاد العالمى .

ولكن قبل ذلك نلقى نظرة عابرة جدا عن نشاط المؤلف ، لان فى نوعية النشاط الذى زاوله ولا يزال يزاوله مايوحى بهذه النظرية الفلسفية الوحداوية فى الاقتصاد العالمى .

اشتغل الاستاذ باد لسنوات عديدة كمدير للمعهد العالى للاقتصاد العالمى التابع لجامعة كيل . واشتهر بمعرفته الدقيقة بتاريخ الاقتصاد العالمى ، وكان نشاطه كمدير لهذا المعهد الذى يوحى الاسم المعطى له باتجاه هذه المدرسة ، من جملة الاشياء التى مكنته من جمع معلومات عن تاريخ وحاضر الاقتصاد العالمى قلما يوجد مثلها فى العالم اذا لم يكن معدوما .

ويدير الاستاذ باد حاليا مؤسسة للبحث العلمى فى المشاكل الاقتصادية العالمية وخاصة مشاكل اقتصاد بلدان العالم الثالث ، وفى هذا الكتاب خاصة يبين الاستاذ باد بكل دقة ووضوح عن توسعه وتعمقه فى البحث فى مشاكل الاقتصاد العالمى ، ويمكن اعتبار هذا الكتاب فى آن واحد نوع من نظرية فلسفية عميقة فى الاقتصاد العالمى وموسوعة ضخمة ومدعمة بجميع انواع الاحصائيات والدلائل لمجمل المشاكل التى عانى ويعانى منها هذا الاقتصاد .

النظرية الوحداوية فى الاقتصاد العالمى .

المثال الذى أشرنا اليه اعلاه هو عبارة عن عرض جدولى لمنهجية المؤلف ، وتصوير حى لمدرسته حسبما حاولنا بكل اختصار ، ان نعرفها كمدرسة فلسفية ترى فى الاقتصاد العالمى وحدة متكاملة رغم تعدد الصور والاشكال التى يفرضها واقع التجزئة فيه الى وحدات متعددة : ان الاقتصاد العالمى وحدة وكل منا يعيش داخل هذه الوحدة ، وما صور واشكال التجزئة الا انواع لا عد ولا حصر لها من انواع تقسيم العمل . للبرهنة على هذه الحقيقة يختار المؤلف سيدا يسميه (السيد x 1968) ويتبعه مبينا ان جميع حركاته وسكناته اليوم منسوجة بشكل دقيق التنظيم الى وحدة الاقتصاد العالمى . (I)

يقول المؤلف ان السيد x 1968 يستيقظ فى الصباح تاركا فراشه بدون ان يفكر من أن الافرشة القطنية التى قضى فيها ليلته من اصل مصرى ، هندى ، وباكستانى ، وأمريكى ، وان الشعر الذى ملئت به اوسدته من بولونيا . انه يدخل الى حمامه بدون ان يفكر ايضا من ان المادة التى تسخن له الماء عبارة عن بترول آت من العربية السعودية والكويت وليبيا ويغسل يده بصابون مصنوع من زيوت افريقية . ان السيد x 1968 يرتدى قميصه المصنوع من قطن مصرى او من صوف استرالى افريقى . ان حذاءه من جلد مستورد أيضا من افريقيا . انه يجلس ليتناول فطوره بدون ان يتفطن لحظة من ان جل الاثاث المحيط به عبارة عن قطع خشبية وغيرها آتية ربما من القارات الخمس التى تتكون منها الكرة

(I) هذا المثال عبارة عن مدخل عام ، ويعالج المؤلف فى هذا المدخل القطن ودوره فى الاقتصاد العالمى ولعله اختار القطن لهذا المدخل من اجل ان هذه المادة الخام اول مادة بدأت تكتسح الاسواق العالمية اثناء الثورة الصناعية فى بريطانيا التى بدأت كثورة فى ميدانى الغزل والنسيج تستورد هذه المادة من مصر والهند وباكستان وامريكا لا نعطى لا ترجمة مدققة للمثال ولا سردا كاملا ، انما نلخص فقط روح هذا المثال من اجل الهدف الذى اشرنا اليه

الارضـــية . ان السيد x 1968 يدخل ســـيارته ليذهب الى عمله ، ولكن لو حللت هذه الســـيارة الى جزيئاتها الاولية لعرف ان العالم كله ،مثل فى عربته . وفى العمل لو فكر السيد x 1968 لحظـــة واحدة لأدرك انه عبـــارة عن ذرة صـــغيرة جدا فى وحدة هائلة هى الاقتصـــاد العـــالمى . ان معلمه محكوم عليه بالشلل التام اذا انقطعت عليه جميع المواد الخام التى تستورد من شتى اصقاع العالم.

ان السيد x 1968 تابع تبعية تكاد تكون مطلقة فى جميع انواع حركاته وسكانه ، فى نومه فى عمله وفى أوقات راحته للاقتصـــاد العالمى . انه جزء لا يتجزأ من هذه الوحدة ، وتحـــركه فى داخل هذه الوحدة ماهو الا نصيبه من ملايين الانصبة التى يفرضها قانون توزيع العمل فى المجتمع الانسانى .

عرض موجز لمواد الكتاب

أن عرض فلسفة الكتاب شيء ممكن ، لا لانها فلسفة تتحلل الهيكل النظرى كله للمواد المعروضة والمناقشـــة فى الكتاب ، ولكن لعل عرض المثال يعطى صورة واضحة ولو غير كاملة عن اتجاه هذه المدرسة والمنهج النظرى الذى تحاول ان ســـعمله فى البحث ويتناول الكتاب وفقا لهـــذه المنهجية بالبحث والشـــرح والتعليق المشاكل الاقتصـادية الاساسية التالية :

1) — نمو ومستقبل الاقتصاد العالمى

2) — المانيا ودورها فى الاقتصـــاد العالمى بين الامس واليوم وغدا .

3) — الاقتصاد العالمى من وجهة نظر انتاج المواد الغنائية .

4) — الانفجار الســـكانى فى العالم والمشاكل التى تتولد عنه (خاصة مشاكل المجاعة) .

5) — القوانين العامة التى تتحكم فى الانفجار السكانى فى العالم

6) — الارض كمصدر للتراث الطبيعى

7) — البحـــار والمحيطات كمصدر من مصاد انتاج المواد الغذائية فى العالم .

8) الطاقة ودورها فى الاقتصاد العالمى .

9) — المواد الاوليـــة ودورها فى الاقتصـــاد العالمى .

10) — دور المواصالات فى الاقتصاد العالمى

11) — الثورة الصناعية فى العالم واثرها فى نمو المجتمع البشرى .

هذه بكل اختصار امهات المشاكل التى عولجت فى هذا الكتـــاب ، والتحليل العلمى الدقيق لكل مشـــكل مدعم بمختلف الاحصائات والصـــور والرسوم والخرائط الاقتصادية ، وفى الكتاب 82 صورة وخريطة رسم اقتصادى تبين حالة التطور لكل مشـــكل عولج ، كما يحاول المؤلف ان يدعم نظرياته بواسطة الارقام كلما استدعى الامر ذلك

ولابد من الاشارة بصدد هذا العرض الخاطف لمحتوى الكتاب الى قائمة المراجع التى تحتوى على مئات من الكتب والمجلات والتقارير الصادرة فى جميع مناطق العالم . ولانبالغ اذا قلنا ان هذه القائمـــة عبارة عن سجل ضخم لمكتبة عالمية حول الاقتصاد العالمى ، ولهذه القائمـــة اهمية عظمى للباحثين فى

مشاكل الاقتصاد العالمي .

نـــــقـــــد

لانريد ان نزعم هنااته في امكاننا توجيـــه نقد على بناء للكاتب ، ذلك ليس من اختصاصنا وحتى لو كنا اختصاصيين فيالموضوعلتعلر مثلهذا النقد لضيق المجال وضخامة المادة التي يعرضها المؤلف في اســلوب على في غــاية الدقة لايمكن نقده الا بتدقيق الدراسة والتخصص في الموضوع .

ولكن ذا لكلا يمنع من المناقشة النظرية العامة لكتاب ، والمنهجية المســتعملة في هذه المنافســة

ان الوحدوية في الاقتصـــاد العــالمـــي تكون من عنصرين اساسيينيستنتجان حتى من دراسات المؤلف نفسه : العنصر الاول هو المواد الخام .

اذا اردنا ان تستعمل تعبيرا اقتصاديا محضــا او جميع تلك البلاد المنتجة لهذه المـــواد الخام اي بلدان ما يسمى بالعالم الثالث (I)

والعنصر الثاني هو الصـــناعة الميكانيكية المحولة لهذه المواد الخام ، والبلاد المصـنعة ان معالجة هذين العنصـــرين في اطار وحدة مغلقة من شأنه ان يترك قضـــية التـــوازن والعدالة بين هذين العنصرين لا تدخل في الحسبان وهذا ما حدث للمؤلف الذي لم يعالج في نظـرنا هذه القضية ، قضـية العدالة والتـــوازن في في التلاؤم الطبيعي الذي يفرضه تقســيم العمل لمعالجة الاقتصاد العالمي لا يمكن الا ان تكون نقطة الانطلاق في تبرير للمشاكل الاقتصـــادية التي يعاني منها العالم اليو م.

انه لا يمكن ان يوجد تقســيم عمل بين عالم يتخبط في الفقر والجهــل والجمــاعات وذلك لعظم مصادر الثروات الطبيعية في العالــم ، وبين آخر ينعم فيالرفاهية والثراء فقــط لانه يملك في تحويل هذه الثروات صناعيا .

أهمية الكتاب :

(I) هذه النظرة النقدية الخاطفة لا يمكن مع ذلك ان تقلل من أهمية الكتــاب العظيمة التي يمكن في المجتمع الانساني ، ومن هنا فان الانطلاق من قضية تقسيم العمل نلخصها في النقاط الآتية :

1) — ان المؤلف يعرض المشاكل الاقتصــادية في قالب اجتماعــي جديــد ، فجميــع المشـاكل درست في اطار واســع تبين بدقة أهمية عنصر الاقتصـــاد كقاعدة اساسية للتقدم الانساني في مختلف الميادين .

2) — ان الكتاب يعطي مجموعة من المعلومات عن حالة الاقتصاد العلمي قل ان توجـد ربما في غيره من الكتب حول الموضـــوع ، وجميع الارقام مدعمة بنقاس ومقارننات نضرية شائقة

انه فعلا عبارة عن موســوعة رائعة في الاقتصاد العالمي .

(I) افريقيا التي تعد شطرا عظيما من العالم الثالث تزود الدول الصناعية والاستعمارية بالنسب الآتية لبعض المواد الخام :
95٪ من الماس 69٪ من الكـــوبالت 63٪ من الذهب 34٪ من الكروم 32٪ من النحاس 66٪ من الكاكاو 65٪ من زيت النخيل 95٪ من الفول السوداني 64٪ من القطن 65٪ من البن

الاستجابات السيكولوجية للعاهة الحركية المرئية لدى المجاهد معطوب الحرب

د : محمد العربي ولد خليفة

يرجع تفكيرى فى هذا البحث الى مصدرين اولهما خاطرة طالما عنت لى وارقتنى فقد كنت اسائل نفسى عن جدوى دراساتنا فى علوم الانسان وعلم النفس بوجه خاص اذا دابنا عل اجترار نظرياتها ومناهجها دون ان نروضها وان نطبقها عل واقعنا الخاص وان نخلع عليها خصائص شخصيتنا القومية الاصيلة ونحولها الى اداة لخدمة تطورنا عل المستويين المادى والانسانى

وقد اغرتنى هذه الفكرة عندما ادركت أن الجانب التطبيقى فى علم النفس الذى يكاد يطغى اليوم على الجانب النظرى فيه — يمكن اعتباره احد المزايا التى تعكس واقعنا فى حيويته وثرائه فى نقائصه وسلبياته : وقد خيل لى أننا اذا سرنا فى هذا الاتجاه فسوف نحقق هدفين فى آن واحد فنشرع من جهة فى وضع صياغة وطنية لعلم النفس ولا نكتفى بنقد اولئك الاجانب الذين يبحثون واقعنا بالنيابة عنا بينما نتطفل نحن على بحث شجونهم وشؤونهم ونعتبر واقعنا منطقة حرام ونساهم من جهة اخرى فى تغذية العلم نفسه بما نقدمه من جهد يحمل فى طياته الحذق والابتكار .

اما المصدر الثانى الذى استلهمت منه هذا البحث فيرجع الى ذلك الصيف من سنة 1966 عندما طلب منى التدريس لمجموعة من قدماء المجاهدين كان من بينهم بعض المعطوبين فى حرب التحرير الوطنى فقد أثار انتباهى وأنا أحاورهم ما يبدو عليهم من مظاهر الجد والحرص والحماس ومضاء العزم وسرعان ما تحول انتباهى الى اهتمام وشغف بما تعج به أعماقهم من مشاعر وانفعالات واتجاهات . وكنت على يقين بأن اولئك الرجال الذين كانوا بالامس القريب طليعة الكفاح المسلح ليسوا اليوم أقل استعدادا للمساهمة فى معركة فاصلة لا يتمتع فيها السلاح ولكنها ستعطى لهذا الكفاح مضمونه الايجابى المتمثل فى بناء قوة ذاتية فلا عجز أكثر من الرضوخ للعجز ولا قوة أكثر من ارادة تبنى الحياة وتوزع بذور الامل .

وكنت أطمح فى بادىء الامر الى القيام بدراسة شاملة لسكولوجية المجاهد معطوب الحرب مهما كان نوع عاهته الا أن الحاجة الى نتائج عملية جعلتنى اقصر دراستى على قطاع واحد من ميدان رحب هو العاهات

الحركية البتر والتشوه وفى ضوء ذلك قمنا بتحديد جوانب المشكلة موضوع البحث ووضعها فى اطارها العلمى الصحيح فيما أن الانسان وحدة بيولوجية نفسية اجتماعية فان للعطب جوانب ثلاث فهو فى الدرجة الاولى مشكلة فردية لان العاهة تتصل مباشرة بالذات ويظهر ذلك من الناحية الجسمية فى اضطرار الفرد الى التبعية لغيره وفى احساسه با لعجز والقصور العضوى ومن الناحية النفسية تبدو آثار العاهة فى الشعور بالنقص والحرمان والتعرض لمواقف الزمن والاحباط ، كما يعتبر العجز فى الدرجة الثانية مشكلة اجتماعية لان النية تساهم الى حد كبير فى الفكرة التى يكونها المعطوب عن حالته وهى فكرة وثيقة الصلة باتجاهات الاخرين نحوه وبنمط الثقافة السائدة فى المجتمع فهو فى الواقع ينظر الى عاهته بعيون الاخرين ويمكن النظر فى العجز الجسمى فى الدرجة الثالثة باعتباره مشكلة اقتصادية تتمثل فى ابقاء فئة كبيرة من افراد المجتمع عالة على الدولة تاخذ ولا تعطى وتعيش فى الظل سجينة الوحدة وتحت رحمة القصور والتعوق .

فتضع اهمية هذا البحث على المستويين العلمى والنظرى اذا وضعنا فى حسابنا الاعتبارات التالية

1 ـ ان دراسة شخصيه وسلوك المعطوبين عموما ما زالت فى حاجة الى بحث علمى اكثر عمقا وشمولا على الرغم من اهمية النظريات التى قدمت البحوث التى نمت فى هذا الميدان فان تغيراتها ونتائجها تعتبر مساهمات جزئية فى حاجة أن يعاد تقويمها فى ضوء منظور شامل يعنى بسيكولجية المجاهد المسرح بعد حرب تحريرية تختلف فى جوهرها عن الحروب الكلاسيكية المتعارفة .

2 ـ ندوة الدراسات الميدانية التى تتناول واقعنا المحلى فما اكثر ما درس الباحثون الماضى البعيد والقريب واليوم آن الاوان للالتفات الى واقعنا الخاص لننفض عنه الغبار ونصقله ونظهر ملامحه الحقيقة

ان بلادنا تقبل على نهضة اقتصادية اجتماعية تتخذ من التخطيط العلمى دعامتها الاولى وتلتمس من امكانياتها الذاتية وسائل الانطلاق وما اشد حاجتها فى هذه المرحلة بالذات الى بحوث علميه تتصل بالانسان ذخر الثورة وضمانه استمرارها

3 ـ افتقار مكتبتنا العربية الى بحوث سيكولوجية فى هذا الميدان وما تم منها ـ على حد ما نعلم ـ يكاد يقتصر على سيكولوجية الجماعات الخاصة وكان لعلماء النفس التربوى اليد الطولى فى دراسة ضروب التفوق الحسى والحركى الولادى والمكتسب لدى الاطفال

4 ـ تمثل فئة المجاهدين المعطوبين قطاعا ضخما يتوزع افراده فى هضبة الواقعة بين 30 و 50 سنة وهى المرحلة التى تصل فيها القدرة الانتاجية للشخص الى حدها الاقصى وهذا ما يجعل اعادة تكييف هذه الفئة وتاهيلها آمرا جديرا بالدراسة والاهتمام

5 ـ تشير التوقعات الاحصائية الى تزايد انتشار ظاهرة العطب فى العالم بسبب الحروب وحوادث العمل والمرور والتشوهات الولاديه

ان المعطوب عندما يتخلص من وطاة الاحباط يعمل جهازه النفسى على اكتشاف السبيل الصحيح للتغلب على تعوقه وعجزه فيعيد تنظيم مجاله السيكلوجى، وقد اتضح من دراسه ظاهرة الاحباط ان مدى قدرة الفرد على تحمل التوتر الناجم عن التعوق والصد والحرمان يتوقف على مجموعة من العوامل التكوينية الكامنة فى الفرد نفسه مثل تعوده على مجابهة الزمن منذ صباه والى عوامل اخرى فى الموقف الخارجى وان هذه العوامل تتبادل التاثير

وقد لوحظ ان اكثر الاستجابات التعويضية الايجابية لدى المجاهد معطوب الحرب هى الاعلاء وتقبل العجز ومحاولة التسامى عليه فينظر المجاهد الى عاهته على انها امتحان من الله ولاراد لقضاء الله ويبدو ذلك بوجه خاص فى انخفاض استجاباته العدوانية والهروبية واعترافه بالحدود التى تقف عندها امكانياته فهو يعتمد على نفسه فيما يستطيع اداءه من اعماله وينتظر العون والسند فيما يعجز عنه

وقد تبين ان الاعلاء عند الكثير من الحالات ياخذ مظهر التقوى والانكباب على العمل بحرص واهتمام بالغ والتدرب على استخدام الجهاز الاصطناعى بدون شكوى او تافف

ان المجاهد معطوب الحرب يشعر فى قرارة نفسه بانه يفضل اولئك الذين خاضوا حروبا لا تستهدف اعلاء كلمة الحق وانقاذ الدين من براثن « الرومى » مهما سجلوا من بطولات

لان المجاهد يعتقد انه لم يخض حربا من اجل الحرب وانه لم يكره على الانخراط فى صفوف الجيش بل انه فعل ذلك تلبية لنداء ضميره ودفاعا عن دينه ما « المحاربون القدماء » فهم فى نظره فى درجة ادنى

ان المفهوم الدينى للجهاد يلعب دورا رئيسيا فى صياغة فكرة المجاهد معطوب الحرب عن ذاته وطريقة تعبيره عنها وقد حدد القرآن الكريم تحديدا واضحا مكانة المجاهد بين قومه ومنزلته عند ربه ، يقول تعالى :

« لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله باموالهم ، فضل الله المجاهدون باموالهم وانفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرى عظيما »

(النساء آية 95)

« ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو اخباركم »
(محمد آية 31)

اذن فالمجاهد يعتبر عاهته دليلا على انه ابلى البلاء الحسن وكفر عن ذنوبه عند ما وهب نفسه لله والوطن واذا اخذنا بعين الاعتبار التصور الخشطالتى لمطاوعة الشخصية فاننا نلاحظ ان ارتفاع درجة الصلابة الاجتماعية لدى معطوب حرب التحرير هو فى الواقع نتيجة الاستجابة لعويضية زائدة صادرة عن الجهاز النفسى بأجمعه ويستهدف هذا النمط من التعويض الاشعار بالعاهة نتيجة تضخم الانا الاعلى ومحاولته السيطرة على الانا فاذا كان البتر والتشوه عند الاخرين علامة على العجز والقصور تجعل الشخص يشعر بالدونية فهو عند معطوب الحرب للامة على الشرف ومصدر للزهد والافتخار ولكى يحتفظ الانا بوحدته ويتحاشى الثنائية .

«العاهة من جهة علامة على العجز والنقص وهى من جهة اخرى علامة على الشرف والتضحية » تستنجد المنظومة النفسية بالية دفاعية مناسبة هى الاعلاء الدين يتخذ شكل صلابة اجتماعية تتمثل فى تضفيته نظام العلاقات الاجتماعية والتمسك الشديد بالقيم والمعايير التى تباركها الجماعة حتى يحتفظ المجاهد برمزية العاهة ويستثنى نفسه من اولئك الذين اصيبوا بعاهات فى ظروف عادية .

تتخلص الخطوط الرئيسية لهذا البحث فى انه محاولة لاقامة فكرة حلية عن شخصية المجاهد معطوب الحرب وهى محاولة ترتكز على محورين اولها دراسة تجريبية وثانيها تحليل نظرى فلم نكتف فى دراستنا بمجرد تطبيقه الاختبارات وتصنيف البيانات ورصف النتائج بل حرصنا على عرض وتحليل الاساس النظرى لكل ذلك .

و يتكون البحث من تسعة اقسام واحد عشر فصلا .

ومن خلال التحليل والمقارنة حاولنا تفسير الجوانب المختلفة للظاهرة فى حدود عينة البحث وفى ضوء الواقع الحضارى لمجتمعنا الراهن فقدمنا صورة واضحة عن شخصية المجاهد معطوب الحرب فى سلوكه وتعبيره عن حاجاته وفى فكرته عن ذاته وفى اتجاهاته نحو غيره من الناس .

ونجز فيما يلى اهم ما توصلنا اليه من نتائج :

1 — ان الاستجابات التعويضية الفاشلة لدى المجاهد معطوب الحرب تتجه فى الغالب الاهم الى الخارج لان الانا عنده لا يعانى من اى شعور بالنقص او الذنب بينما ترتد الاستجابات الفاشلة لدى الفئة الثانية الى الداخل نظرا لتخلص الانا وعجز الفرد عن اعادة تنظيم مجاله السيكولوجى ومن جراء ضغط الاحساس بالنقص ووطاة الشعور بالذنب .

2 — ان درجة الصلابة الاجتماعية تتناقص تدريجيا من المجموعة الاولى حتى الثالثة ، لان العاهة عند المجاهد علامة على الشرف ومصدر للزهو والفخار وهذا ما يجعله يستخدم آلية الاعلاء ويضيف من نطاق علاقاته ويتمسك بالقيم والمعايير الاجتماعية لكى يحتفظ برمزية العاهة .

3 — لا يمكن فهم اثر العاهة على شخصية المعطوب الا فى ضوء كل نفسى اجتماعى سوماتى .

4 — ان تضخم اعباء المعطوب العائلية وعجزه عن الوفاء بالتزاماته المادية والمعنوية يجعله يعيش فصراع عنيف يؤثر على صورته عن ذاته وعلى علاقاته بغيره .

5 — يتعرض المعطوبون من المجموعة الثانية الى شعور ملح بالاحباط فى مجتمع ما زالت فيه قدرات الفرد الفيزيقية تلعب دورا هاما .

كما يتعرض الحاصلون على مستوى تعليمى فوق المتوسط من نفس المجموعة السابقة الى مواقف الزمت والتثبيط لاسباب كثيرة أهمها حدة شعور المتعلم بما يتهدد مكانته الاجتماعية واعتباره الذاته وشدة اهتمامه باتجاهات الآخرين نحوه .

وبناء على هذه النتائج فقد تقدمنا بمجموعة من التوصيات يتصل بعضها بالجانب الفنى الذى ينبغى اتباعه فى مثل هذا البحث ويتصل بعضها الآخر بالجانب الانسانى من المشكلة ونجمل أهم هذه التوصيات فيما يلى

1 — نظرا للصعوبات التى واجهتنا خلال الاجراءات العملية للبحث فاننا نوصى باستخدام المنهج الاكلينيكى الذى يتيح للباحث فرصة اقامة علاقات انسانية مباشرة مع الحالات .

2 — تنظيم المحفوظات والاحصاءات تنظيما فنيا باصدار نشرات ووثائق تبوب فيها المعلومات بطريقة تسهل على الباحثين مهمتهم .

وحبذا لو قامت المصالح المختصة باحصاء وتصنيف فئات المعطوبين بوجود افراد اصحاء جسميا واسوياء عقليا .

3 — نوصى بضرورة توعية البيئة الانسانية المحيطة بالمعطوب لانه فى الواقع ينظر الى عاهته بعيون الآخرين .

4 — نظرا لاعتبارات منهجية واخرى خاصة بحدود الامكانيات المتوفرة اقتصر هذا البحث على قطاع صغير من ميدان فسيح ما زال الكثير من جوانبه بكرا ، ولكى تكتمل الصورة العلمية والعملية لهذا البحث ينبغى القيام بدراسة شاملة لضروب التفوق الحسى والحركى والمتعدد .

آراء أبي بكر العربي الكلامية

ونقده للفلسفة اليونانية

وتحقيق كتابه "العواصم من القواصم"

تلخيص لرسالة دكتوراه
الدولة المقدمة من
الاستاذ عمار طالبي

د. عمار
طالبي

لا يمكن القول بان دراسة الفلسفة الاسلامية قد اشرفت على الكمال بل ان الطريق ما يزال امام الباحثين شاقا ومفتوحا في آن واحد ، ونعتقد ان اول خطوة جدية في دراسة هذه الفلسفة انما هي بعث ذخائرها الدفينة في مختلف مكتبات العالم العامة والخاصة ، واخراجها للباحثين في صورة نقدية علمية ، وقد بدا دارسون كثيرون في بناء هذا العمل ، ولكنه لم يبلغ بعد المدى الذى نريده له

لذلك وقع اهتمامي بكتاب وبشخصية يبدو انها مغمورة بعض الشيء لدى المهتمين بتاريخ الفلسفة الاسلامية ، وهي في واقع الامر شخصية غنية ، كلها اثراء عقل ، وجراة علمية نقدية الا وهي شخصية ابى بكر بن العربي (543 هـ 1138) الناقد المتكلم الاصولي الفيلسوف المسلم الذى تتلمذ للغزالي ، وتمثل منهجه النقدي ، وطبقه على الفلسفة اليونانية ، وعلى المتصوفة والباطنية ، كما طبق منهجا آخر نقديا تاريخيا على احداث الفتنة الكبرى فتنة صفين فاوضح انها اصل لما تولد عنها بين المسلمين وترك لنا وثيقة من اهم الوثائق الفكرية التى تعبر عن روح الحضارة الاسلامية وعن نضالها ضد من فتن ومذاهب وآراء وانشقاق وتنازع النزعات العقائدية الاخرى المناهضة لها ، هذه الوثيقة هي كتاب « العواصم من القواصم » الذى اقام فيه مؤلفه عواصم عاصمة من قواصم قاصمة ، عواصم عقائدية تعصم من قواصم هدامة تقصد الى قصم ظهر المسلمين الحضاري ، والى نقض بنائهم العقائدي الذى يكون عصب هذه الحضارة القوى ، ولبها النابض وروحها الوثابة

واهم وجه من وجوه هذه الرسالة انما هو المنهج النقدي الذى اتبعه ابو بكر بن العربي ، وسلكه في كتابه المذكور اذ ليس يخفى ما لهذا المنهج النقدي من صبغة فلسفية ، وروح علمي بالغة الاثر

ان اصول المنهج النقدي الذى نجده عند الباحثين المسلمين لترجع في اساسها الى القرآن نفسه ، ذلك الكتاب الذى يمثل قطب حياة المسلمين العقائدية والفكرية والحضارية فالقرآن بذر بذور النقد ، فنقد نقدا واضحا مختلف التيارات العقائدية المعروفة حين نزوله ، من مجوسية ويهودية ونصرانية وصابئة ، ودهرية ، ومنكرى النبوات ، ونهج في هذا النقد نهجا عقليا ظاهرا في اتجاهين رئيسيين : نقد عقائدي ، ونقد اخلاقي اجتماعي اى نقد في ميدان الميتافيزيقا ، ونقد في ميدان الاخلاق التى لا يمكن ان تبنى بناء عميقا الا على اساس ميتافيزيقي او ارضية غيبية ، لذلك كله اتسمت ابحاث المسلمين وكتبهم العقائدية بهذه السمة النقدية ففي اول اتصالهم بذوى العقائد الاخرى والفلسفات المخالفة من يونانية وغيرها اخذوا في نقدها ومعارضتها ، وقد تصدى السلف لعقائد دخلت في المجتمع الاسلامي وراوا انها مخالفة لعقائدهم فقاوموها وفندوها ، واتى المعتزلة فكانت فكانت لهم صولات نقدية عنيفة في مناضلة المانوية وغيرها من التيارات الفلسفية والمذهبية حتى اتهم بعضهم بانه دنس نفسه بالفلسفة واخذ بها عن طريق مطالعتها والاتصال بها والرد عليها

والذى يتصل ببحثنا هنا انما هو بيان نضال الاشاعرة ضد الفلسفة

لان ابا بكر بن العربى اشعرى فى اتجاهه العام ، غزالى فى منهجه النقدى ، لذلك نجد ابا بكر بن العربى يصرح بان اول من تصدى لنقض آراء الفلاسفة وتفنيدها انما هو ابو الحسن الاشعرى (324) واذا رجعنا الى كتب الاشعرى التى ذكرها المؤرخون فاننا نجدها ذات صبغة نقدية ، اذ انه تصدى للمنطق الارسطى فنقده ورده ، كما رد على كتاب «الاثار العلوية» لارسطو ، وناقش ابن الراوندى وغيره من الفلاسفة والملحدين والطبائعيين ، والف كتابا فى «مقالات الفلاسفة» وكتابا فى «الرد على الفلاسفة» وبين ابن تيمية (728 هـ) ان ابا الحسن الاشعرى ذكر فى كتابه «مقومات غير الاسلاميين» مالم يذكره الفارابى ولا ابن سينا ولا امثالهما من المقالات والمذاهب .

ثم جاء المؤسس الثانى للمذهب الاشعرى ولمقدماته الطبيعية والمنطقية وهو ابو بكر الباقلانى (403 هـ) فسار على ذاك المنهج النقدى الاشعرى والف كتاب «الدقائق» الذى رد فيه على الفلاسفة وعلى ما يذهبون اليه من آراء فى النفوس والعقول ، والافلاك والنجوم وعلى نظرتهم فى واجب الوجود والفيض وما الى ذلك من المشكلات الطبيعية والميتافزيقية كما رد على المنطق الارسطى وخاصة المقولات ورجع فى ذلك كله منطق المتكلمين المسلمين على منطق اليونان .

اما ابو المعالى الجوينى (478 هـ) فقد توثقت صلته بالفلسفة ومع ذلك فانه لم يتردد فى نقدها ، ونجد ذلك فيما وصلنا من كتبه مثل الشامل الذى خصص فيه فصولا عدة للرد على الفلاسفة مثل فصل الرد على القائلين بقدم العالم وفصل الرد على القائلين بقدم المادة . وحدثنا ابو بكر بن العربى ان الجوينى الف كتابا «فى النفس» فى ثلاث مجلدات ذكر فيه من مذاهب الفلاسفة فيها آراء كثيرة ولكنه تاثر بمذهب الرواقيين فى النفس فاخذ به. ونجد فى كتابه «الارشاد» نقدا لفكرة الفيض ولترتيب الموجودات والعقول.

ولكن الذى نقد الفلاسفة نقدا منهجيا متكاملا حاسما انما هو الغزالى (500 هـ) الذى نفذ الى آرائهم ، ثم توجه بعد ذلك الى بيان تهافتها والى نقدها مما حرك ابن رشد للدفاع عنها ونقض ما اتهمهم به الغزالى من التناقض والتهافت والبطلان .

وقد تفطن ابو بكر بن العربى الى منهج الغزالى النقدى فاوضح لنا انه فاق منهج كل من تقدمه ممن ناقض الفلاسفة وناقشهم وبين لنا انه «ابحهم بمداهم» اى انه استخدم منهجهم المنطقى للرد عليهم بسلاحهم، واذا كان من تقدمه من المتكلمين ناقض الفلاسفة بمناقضات جدلية فهو قد ناقضهم ببراهين حاسمة .

والواقع ان الغزالى لم ينقد الفلسفة اليونانية فى جملتها ، وانما اهتم بنقدها فى مجال الالهيات وفى بعض المشكلات الطبيعية . اما المنطق وهو منهج الفلسفة فقد اخذ به وبين لنا انه لا يختلف عن المنطق الارسطى الا فى الاصلاحات ، وانه من النادر ان يتطرق الخطا الى المنطق الفلسفى اما الرياضيات فهى لا تخالف العقل ولا الدين ومن ثمت فانه لم يتناولها بالنقد .

واذا كان ابن تيمية قد ذهب الى ان اول من ادخل المنطق اليونانى فى المناهج الاسلامية فان الواقع التاريخى برهن لنا ان اول من ادخل المنطق اليونانى فى المناهج الاسلامية فان الواقع التاريخى برهن لنا ان ابن حزم (456 هـ) قد سبقه الى ذلك حيث انه ناصر المنطق الارسطى والف فيه ودافع عنه ضد الفقهاء وحسبه منهجا سليما للعلوم كلها وان كان قد خالف ارسطو فى القياس وفى العلية اما العلية الطبيعية فقد اثبتها وذلك فى كتابه « التقريب لحد المنطق » لذلك نرى ابا بكر بن العربى يهاجمه مشيرا الى انه اخذ هذا المنطق اليونانى عن الكندى (252هـ) .

والحقيقة انه لم ينفرد الاشاعرة بنقد الفلسفة اليونانية ، وانما شارك فى بيان تهافتها تيارات فكرية اخرى مثل المعتزلة والشيعة والكرامية ايضا اذ نص ابن تيمية على ان سائر طوائف النظر من المسلمين كانوا يعيبون المنطق اليونانى ويثبتون فساده ، ولا نعد والحقيقة ان قلنا ان ابرع من تصدى لنقد المنطق الارسطى من الحنابلة انما هو ابن تيمية فى كتابه الكبير (الرد على المنطقيين) وفى كتابه « نقض المنطق » وكتابه نصيحة اهل الايمان فى الرد على منطق اليونان ،وفى كتابه ايضا « جهد القريحة فى تجريد النصيحة » ولم يقتصر على نقد المنطق وانما نقد ما استخدم فيه المنطق لاثباته الا وهو الميتافيزيقا اليونانية والفلسفة الخلقية الاغريقية ونظرية المعرفة ايضا وقد الف رسالة سماها « الرد على عقائد الفلاسفة » (مجلة المنار المجلد 10 ص 616 — 621) وليس من شك فى ان ابن تيمية استفاد من منهج الغزالى ومن منهج تلميذه ابن بكر بن العربى وتاثر بهما غير انه امتاز عنهما بنقده المنطق الذى رحب به ابن حزم ومن بعده الغزالى وادخلاه فى صميم المناهج الاسلامية فى مختلف المعارف .

ورد النوبختى من الامامية فى كتابه « الاراء والديانات » على المنطق والف فى ذلك كتابا آخر سماه « الرد على اهل المنطق » .

بل ان المتصوفة انفسهم شاركوا فى نقده اذ تصدى شهاب الدين عمر السهروردى والف فى ذلك كتاب « كشف القبائح اليونانية ورشف النصائح الايمانية » وكتاب « ادلة العيان على

البرهان فى الرد على الفلاسفة بالقرآن » .

رغم سهام النقد العنيف التى وجهت الى المنطق فانه وجد انتشارا وقبولا فى العالم الاسلامى بتاثير الغزالى ، وتسرب المنهج النقدى للفلسفة اليونانية الى المغرب الاسلامى الا انه غلبت على الناس النزعة المنطقية الغزالية بعد ان ادخلها ابن تومرت (+ 524 هـ) وابو بكر بن العربى وبقيت لدى الناس الى يومنا هذا ، لذلك نجد احد علماء تلمسان وفقهائها وهو محمد عبد الكريم المغيلى (+ 909 هـ ــ 1503) ياخذ بها ويرد على السيوطى الذى رفض ان ياخذ بالمنطق ونقده وكانت له صلة بعلماء المسلمين فى افريقيا يراسلهم ويراسلونه ، واذا كان السيوطى قد هاجم المنطق متاثرا الى ذلك بابن تيمية فى مصر فان المغيلى دافع عنه متاثرا فى ذلك بالغزالى الذى بقى مذهبه سائدا فى المغرب .

وينبغى ان نشير الى ان الفلاسفة الاسلاميين ايضا قد ردوا على مناهج المتكلمين واوهنوها ، وبينوا طابعها الجدلى ، وخاصة منهج المعتزلة والاشاعرة لذلك نجد ان اكثر نقد ابن سينا (+ 428 هـ) انما هو موجه الى المعتزلة ، واكثر نقد ابن رشد (+595 هـ) انما هو موجه الى الشاعرة . ووصف ابن تيمية منهج المتكلمين فى نقدهم للفلاسفة بانه منهج فاسد ، ولكنه بين ان منهج الفلاسفة ادى الى اخطاء فى مسائل الميتافيزيقا والنبوات افدح واعظم من خطاء المتكلمين اما فيما يتعلق بالعلوم الطبيعية والرياضية فان صواب الفلاسفة اكثر من صواب المتكلمين فيها ، ايضا فان الغزالى نفسه نقد آراء المتكلمين ومنهجهم خاصة وتابعه فى ذلك ابن رشد ومن بعده ابن تيمية .

وقد تاثر ابن خلدون بمنهج الغزالى وابى بكر بن العربى فى نقده للفلسفة فعقد فصلا فى بيان تهافت الفلسفة وابطالها فنقد المنطق والالهيات والطبيعيات وبين لنا ان الفلسفة من ظواهر الحضارة ، وعوارض المدن ، كما اوضح الطابع الصورى للمنطق اذ انه ادرك الصبغة التجريدية او الانتزاعية التى اتسم بها المنطق الارسطى فذهب الى ان صناعة المنطق غير مامونة الغلط لاغراقها فى التجريد والبعد عن الواقع المحسوس ، ولكنه لم يغفل عن اهمية المنطق الصورى فى الاستدلال وترتيب الادلة وشحذ الذهن، واجادة البرهنية على ما هو معلوم ولكن الوسيلة لادراك الحقائق عنده انما هى الفكر الطبيعى ، وليس المنطق الا وصفا لفعل هذا الفكر الفطرى وبيانا لخطواته ، وبهذا فقد امتاز ابن خلدون عن الغزالى وابى بكر بنقده للمنطق والجدير بالاشارة ان هناك توافقا غريبا بين ابى بكر بن العربى وابن خلدون فى وجهة نظرهما الى الفلسفة والى الاخلاق والى القوانين العلمية .

لقد وجدت بعض الصعاب فى دراسة آراء ابى بكر بن العربى وذلك من جراء عدم توفر دراسات حول مذهبه ، ولعدم استكمال العثور على جميع مؤلفاته ولانه لم يبحث فيما اعلم لحد الان لا من قبل المسلمين ولا من قبل المستشرقين ولكن ذلك كله لم يمنعنا من محاولة تركيب مذهبه ، وبيان منهجه الذى يعتبر ممثلاللمنهج الغزالى فى المغرب ولا من اقتحام المخاطر فى سبيل آرائه وابرازها للناس . .

سلكت فى هذه الدراسة منهجا تاريخيا موضوعيا فعالجت حياة الرجل ورحلته الى المشرق ، وملامح الحياة العقلية فى عصره خلال دراستى لاساتذته الذين اخذ عنهم وتاثر بهم ، وبيان المواطن التى نزلها واقام فيها ، وصنفت تاليفه تبعا للموضوعات التى عالجتها واشرت الى الكتب التى ورد بها من المشرق وادخلها الى المغرب معتمدا فى ذلك كله على نصوص ترجم فيها لحياته بنفسه ، وان كانت هذه النصوص مبعثرة فى مختلف كتبه المخطوطة والمطبوعة ا وقد اخترنا ان ندعه يتحدث بنفسه عن رحلته و عن اساتذته احيانا كثيرة فاورد نا من هذه النصوص ما يؤدى الغرض فى البحث .

اما المنهج الموضوعى المقارن فقد استخد مناه فى بقية اجزاء الدراسة معتمدين فى ذلك على التحليل والتركيب

يتكون هذا البحث من قسمين تناولنا فى القسم الاول منه نقد ابى بكر بن العربى للفلسفة اليونانية ، بجانب آرائه الكلامية ، وتناول القسم الثانى تحقيق كتابه « العواصم من القواصم » تحقيقا نقديا .

اختبار حاسم للصحافة الامريكية

إعداد :
محمد طاع الله

اختبار حاسم للصحافة الامريكية

بدا هذا الفصل الغريب فى حياة الصحافة الامريكية فى صيف 1967 ، فى اوج معركة الفيتنام ، فقد اراد روبرت مكنمارا ان يؤلف لجنة لكتابة تاريخ ضخم عن صناعة القرارات فى الهند الصينية

وقام ليزل غيلب من موظفى مكنمارا بجمع فريق من الاكاديميين ما بين 30 الى 40 وكلهم من الرسميين المدنيين والعسكريين داخل الحكومة وخارجها ، وكل منهم على اطلاع جيد على احد مظاهر الحرب الفيتنامية

وقد اتيح لهم الحصول على جميع ملفات البنتاغون وعدد كبير من ملفات وزارة الخارجية ووكالة المخابرات المركزية وبعض الادارات الاخرى ، بينما لم يسمح لهم الحصول على الاوراق الشخصية للاوراق

وخلال عام انتجوا ما يمكن ان تطلق عليه كل سلطة حكومية - دراسة اكاديمية رزينة لمراحل صناعة القرارات - وهى ليست متكاملة او نهائية ولكنهاقائمة على اساس النصوص الموجودة فى اوراق الحكومة السرية والمحاضر والبرقيات ومشاريع المقترحات التى لم يكن من المحتمل ان يطلع عليها الجمهور ، وهى سجل لثنائية العمل السياسى والعسكرى من طرف اربع ادارات حكومية امريكية

وان دراسة البنتاغون التى جاءت فى 47 مجلدا تتحدث فى تحليلاتها وتشير فى نصوصها الى ان التعهدات الامريكية فى الحرب الباردة والساخنة لا تقيم وزنا فى اى مرحلة لاى قانون داخلى او دولى ولا حتى لحقوق مجلس الشيوخ او متطلبات الدستور وحساسيات الحلفاء وحصير الشخصيات وحقوق المواطنين الامريكيين او حتى لادنى مستويات الصدق

ولا شك ان فى نشر مثل هذا السجل البائس شكل الحرب التى تخوضها الولايات المتحدة نفسها سيضايق الحكومة فى عيون العالم وفى عيون مواطنيها انفسهم ، وقد يضر بالسمعة المعروفة عن بعض الممثلين الرئيسيين فى الدراسة

وقد رحبت حكومة نيكسون من جهة بالفوائد التى ياتى بها نشر تلك المواد الصحفية على الصعيد الداخلى الا ان المتهمين فى تلك الوثائق هم من الحزب الديمقراطى ، والوثائق نفسها عبارة عن تاريخ لسلوك الحزب الديمقراطى فى الفيتنام ، ولكن حكومة نيكسون تخشى من ان تكون وثائقها هى موضوع الاهتمام الصحفى فى المستقبل ، وهى تواصل خوض حرب الهند الصينية من جهة اخرى ، وباساليب مماثلة ، وقد وصفت ادارة نيكسون جريدة التايمز بانها تريد خذلان الامة ببضاعة مسروقة

وكتب ماكس فرانكل فى جريدة نيويورك تايمز يقول . لقد طرحت هذه القضية صراعا بين الحرية الشخصية وبعض المفاهيم حول الامن الوطنى ، وقد كانت من الناحية السياسية نتيجة عامين من التوتر بين ادارة نيكسون ووسائل الاعلام السائدة ، وقد اخذ استخدام قوانين التجسس لمعاقبة نيويورك تايمز ثم واشنطن بوست كالعصى لتجبر تلجا اليه ادارة نيكسون لملاحقة هاتين الصحيفتين بعد الحملات التى شنها آنيو نائب الرئيس على الصحافة عامة .

وقد شكلت المقالات المنقولة ، وليس المحررة ، وثيقة اتهام لا مثيل لها لادارة الرئيس السابق جونسون ولكثير من الرسميين الدين اتى بهم جون كنيدى الى الحكم

وبالرغم من ان اعدادا كبيرة من القراء سيشكون فى سهولة هذا التسرب « المقصود » للاسرار والوثائق الحكومية من طرف الادارة الحالية الجمهورية

سبر الدماغ الانسانى

قيل ان مشكلة العلاقات الانسانية ناجمة عن جهل الانسان لنفسه وللطبيعة وبينما تتجه حفارات النفط الى اعماق التربة ويغزو الانسان القمر ، نراه يتجه بنشاط وعزيمة مرتدا نحو نفسه ، بحيث يختار من جسمه مركز القيادة وهو الدماغ ليكون مادة جديدة للدراسة

وفى العيادات والمستشفيات والمخابر الامريكية تلتصق اجهزة قياس تموجات الدماغ برؤوس المرضى والاصحاء وانواع الحيوانات المختلفة للحصول على معلومات دقيقة عن مختلف الانفعالات

وفى ركن الطب كتب المعلق الطبى لمجلة نيوزويك يقول « ليست هذه المحاولات سوى عينات من المعالجات والابحاث الكثيرة التى يقوم بها رواد الدماغ ، واذا جاء المستقبل ليؤكد آمال الحاضر فان المغامرة الكبرى التى وضعت اكتشاف الدماغ الانسانى مهمة لها يمكن ان تؤدى الى تحولات كبرى فى البحث الطبى والعلاج النفسانى ،وهناك تقنيات ومعلومات جديدة اثبتت فائدتها المباشرة للانسان فى مختلف ميادين حياته

وتجد هذه التقنيات والمعالجات الجديدة انتشارا كبيرا فى المخابر والمستشفيات الامريكية ، ويتحدث البعض منذ الآن عن « جزئيات الذكاء » وامكانية تعلم كل شىء ابتداء من النحو الفرنسى حتى الرياضيات المندمجة بواسطة تناول الاقراص المناسبة ، ويناقش آخرون بكل جدية امكانية اقتران نتائج مجهودات رواد الدماغ بالاكتشافات الاخيرة فى ميدان البيولوجيا الجزيئية لخلق مهندسين عباقرة او ادمغة خارقة تفوق طاقة دماغ انشتاين او موهبة باخ

ثمن المناصب الدبلوماسية

واوضحت دراسة صدرت فى شهر جوان الماضى « ان الرئيس نيكسون تلقى حوالى 300 الف دولار من التبرعات من مسانديه الاغنياء ، وقد عينهم الرئيس نيكسون فيما بعد سفراء فى عدد من البلدان بعد ان استطاع ان يقنع مجلس الشيوخ بجدارتهم بهذه التعيينات

،ومن بين هؤلاء السفراء آرثر واطسون الذى كان رئيسا تنفيذيا لمؤسسة الآلات الالكترونية الحاسبة (اى بى ام) ، وقد دفع المبلغ للرئيس نيكسون تحت ستار عمليات خاصة ، ومن بين السفراء الآخرين اولئك الذين عينوا فى جامايكا والنمسا ومدغشقر ومالطا ولكسمبورغ وهولندا وايسلندا وترنداد

وقد نشرت قائمة من المتبرعين الذين دفعوا الاموال فى حملة الانتخابات للحصول على مناصب اعضاء فى مجلس الشيوخ فقط

تكاليف الانتخابات

وذكرت جريدة واشنطن بوست الامريكية « ان تكاليف حملة انتخابات 1968 بلغت حوالى 300 مليون دولار ، اى اكثر من تكاليف اية حملة اخرى مضت ، وهى عبارة عن زيادة 50٪ خلال اربع سنوات ، وقد انفق الجمهوريون الدين فازوا ضعف الديمقراطيين

والسبب فى رفع ثمن الفوز فى الانتخابات هى التكاليف الفظيعة التى انفقت على التلفزة ، وحقيقة ان عددا امريكى ناخب لضمان صوته 60 سنتا (اى حوالى ثلاثة دنانير)

وقد صدرت هذه الخلاصة المرفقة بالاحصائيات عن استقصاء واسع اجرته مؤسسة ابحاث المواطنين فى برنسيتون (نيو جرسى) ونشر بعنوان « تمويل انتخابات 1968 »

الكاثوليك فى الفيتنام

عندما تفلس سياسة ما بالجملة ، فانها لا تلبث ان تتخذ لها مواقع من خلال التفاصيل ، ويبدو ان «الانسحاب» التدريجى للقوات الامريكية من جنوب الفيتنام يثير قلق مليون و 700 الف كاثوليكى رومانى من الفيتناميين ومعظمهم من الطبقة الحاكمة فى سايغون ، وهم يمثلون طبقة المعمرين فى الجزائر سابقا ، ويتضح هذا القلق فى واشنطن وسايغون والفاتيكان

وقد حدث فى الشهر الماضى حوار حاد داخل مجلس الشيوخ الامريكى عندما حذر زعيم الاقلية هيو سكوت من ان 650 الف فيتنامى شمالى كانوا قد هربوا الى الجنوب عام 1954 سيكونون اول ضحايا النظام الشيوعى لو وصل الشيوعيون الى الحكم فى الجنوب ، وقد افترض الشيخ الامريكى ان عام 1954 هو عام 1971 دون ان يأخذ فى الاعتبار فارق الاجيال او الاتجاهات الجديدة لهم فى « جنة الجنوب » كما رد عليه احد محاوريه

وفى الفاتيكان رغم انه لم يتخذ موقف رسمى علنى ، فان الرسميين يوضحون ان الفاتيكان حثت الكاثوليك الفيتناميين خلال الاشهر الماضية على الوفاق من اجل الحياة فى ظل حكومة ائتلافية فى سايغون ، كما نوقش فى باريس مصير كاثوليك جنوب الفيتنام

مع ممثل هانوى وجبهة تحرير جنوب الفيتنام ، ومن سايغون كتب مراسل مجلة نيوزويك نيكولاس بروفيت يقول:

« كان احد الفرنسيين الجزويت (اليسوعيين) وهو الاب الكسندر دو رودس هو الذى منح الطابع اللاتيني للغة الفيتنامية ، ثم كتب دليلا للمبشرين الاوروبيين سخر فيه من البوذيه والكنفوشية وغيرها من العقائد المحليه

وفى القرن الثامن عشر ، كان القسيس الفرنسى بير بينو دو بيهين مسؤولا مباشرا عن اول تدخل استعمارى فى شؤون الفيتنام السياسية وفى ظل النظام الفرنسى خلال القرن العشرين وصل الفيتناميون الكاثوليك الى السيطرة تدريجيا على الجيش والشرطة والخدمات المدنية ، وقد اتيحت لهم فرصة التثقيف ، كما انهم اشد نزعة غربية من الفيتناميين العاديين ، وقد اصبح الذين اعتنقوا الكاثوليكية يشكلون طبقة الخدم للفرنسيين الذين استعملوهم صلة وصل بينهم وبين بقية السكان المعادين للوجود الفرنسى

وكنتيجة لذلك ، فان الكاثوليك الفيتناميين يشكلون الآن 25 فى المائة من النخبة الفنية والمثقفة فى جنوب الفيتنام رغم انهم يمثلون 15 فى المائة فقط من مجموع السكان ، والرئيس فان ثيو نفسه من الذين اعتنقوا الكاثوليكية متاخرين

وبالاضافة ، فان اكثر حكام الاقاليم وقادة الفرق العسكرية ونسبة مئوية كبيرة من الضباط هم من الكاثوليك ، ولهذا من الصعب ان ياتى التغيير من الكنيسة ، فهناك الكثير من الكاثوليك الذين يستمدون مصالحهم من الوضع الحالى للنظام ومن الحرب نفسها

وقد ضاعفت هجرة 1954 من الروح المحافظية التاريخية لدى الطائفة الكاثوليكية الفيتنامية ، اذ جاء اغلب اللاجئين من قرى الشمال الكاثوليكية حيث كان القساوسة اصحاب السلطة الاقوى فى المجموعة المحلية

اما فى الجنوب ، فقد وضع هؤلاء المغتربون فى قرى اللاجئين ولم يتبدل وضعهم فى العالم الذى لجأوا اليه ، وما زالوا يعيشون تحت تاثير القساوسة الذين انتقلوا معهم والذين يحملون نزعة عنيفة معادية للشيوعية

« وهؤلاء القساوسة هم سادة الحرب » كما يعترف قسيس شاب ،فهم يجعلون الناس يخشون جهنم وشياطين الشيوعية ، وبالنسبة لكثير من الناس، فان جهنم والشيوعية يعنيان نفس الشيء »

مخاض الكنيسة الهولندية

وحول النزاع داخل الكنيسة الهولندية كتب جيمس جونسون فى الطبعة الدولية لجريدة هيرالد تريبيون يقول :

« رجل هولندى واحد يساوى فقيه واثنان كنيسة وثلاثة يكونون شيعة »

وقد كان الرومان الكاثوليك يستشهدون بهذا القول المأثور خلال اربع سنوات مضت عند الحديث عن المخاض الذى تعيشه الكنيسة الهولندية، فقد ظهرت وجوه جديدة بعد احقاب من الركود الداخلى ، وانشقت « البحار المقدسة » لتقذف بالمخاوف والتحذيرات، وطاف بالبلاد حجاج كثيرون من الصحفيين والكاثوليك المتحررين

وفى البلاد لم ينعدم المتفائلون الذين يرون ان مراجعة الكنيسة لنفسها لا يعنى قطعا ضعفها ، اما المتشائمون فهم يرون فى الاضطرابات السطحية علامة غليان داخلى اخطر من الخلافات العلنية

وفى نفس الوقت ، فان القساوسة الهولنديين يدركون باسى ان المعارك مع روما والمحافظين من صفوفهم سوف لا تسفر عن فائز وربما تؤدى فقط الى تغيير طفيف ، ولكن هذه المعارك تستهوى كثيرا من التقدميين

الزواج على الطريقة اليهودية

واشارت صحيفة نيوزويك الى ظاهرة تفوق الابعاد الاجتماعية فى مدلولها ، وقد كتب احد مراسليها من الشرق الاوسط يقول « كان الزواج المختلط يعتبر باستمرار تهديدا للمجموعة اليهودية وقد اصبح الآن احد المشاكل التى تواجه تزمت القوانين الاسرائيلية ، ففى الشهر الماضى قال وزير الشؤون الدينية الاسرائيلى ان 207 يهوديا وكلهم من النساء قد تحولن الى الاسلام للزواج من مسلمين

وتعتبر هذه اعلى نسبة فى التحول عن الدين اليهودى فى حياة الوجود الاسرائيلى ، وحذر احد الرسميين من ان نهاية هذا السلوك ليست قريبة وقال انى لم اسمع قط عن تحول رجل يهودى الى الاسلام ، وربما يحدث مرة واحدة خلال جيل ان تتحول مسلمة الى اليهودية ، ولكن الفتيات اليهوديات هن المشكل »

ويقول ياكوف يهوشا اليهودى الذى يسير الشؤون الاسلامية انه قام بدراسة عينات من الزواج المختلط « ان الفتيات الاسرائيليات يجدن من اسباب الاغراء ما لا يجدنه مع الشباب اليهودى ، فالحفاوة بهن بالغة من طرف الشباب المسلمين الذى يمثل لتلك الفتيات عالما جذابا جديدا ووضعا اقتصاديا افضل او هروبا من حياة بائسة احيانا ، بالاضافة الى وفرة الاسلوب الرومانطيقى»

ومع ذلك فالزواج لا يحل مشكلة فالاطفال فى الشريعة الاسلامية يبقون مسلمين اذا كان آباؤهم كذلك ،والاطفال فى الشريعة اليهودية يبقون يهودا اذا بقيت امهاتهم يهوديات ، وحتى اذا تحولت امهاتهم الى دين آخر